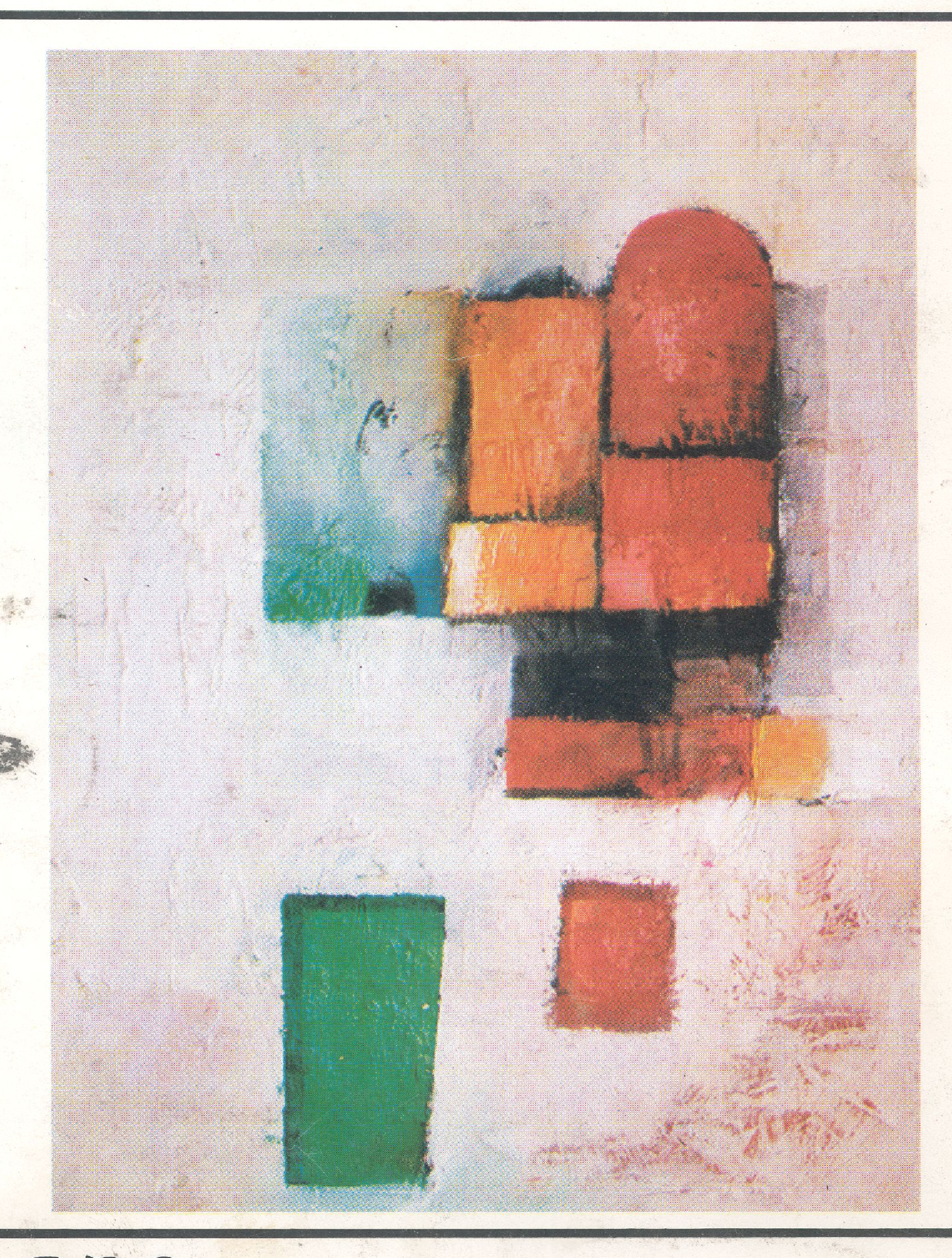


259



الثقافة الجديدة

رئيس التحرير : د . غانم حمدون

المقالات المنشورة تعبر عن رأي أصحابها

259

العدد 9 السنة 40 حزيران 1994

الفهرست

لوحتا الغلاف: زيت على قماش للفنانة أناهيت سركيس

من المحرر

ملف هذا العدد مكرس لبعض قضايا العلاقة بين "الدولة" والمجتمع. ولا يخفى ما لهذه العلاقة من اهمية قصوى لفهم تسلط الدولة والبحث عن سبل الحد من هذا التسلط للوصول الى مستوى من التوازن بين الطرفين يسمح ببناء نظام ديمقراطي. وفي هذا الاطار يبحث د. عبد مجيد الهيتي الجانب النظري لدور الدولة، فيما يتناول بحثا د. ماريون-فاروق سلكليت وزهير الجزائري شيئا من تجربة العراق بخصوصياته. فبحث د. ماريون، الذي اضطررنا الى ايجازه قليلا، ينظر الى فترة تأسيس الدولة العراقية في ضوء مفهوم "المجتمع المدني". اما زهير الجزائري فيتناول مسألة الصراع بين الدولة والقبيلة في وضع العراق الراهن. ولا ريب ان مفهوم المجتمع المدني بحاجة الى معالجات اعمق، اولا لاغنائه، وتاليا للافادة منه في معاينة واقعنا الراهن ورسم طريق الخلاص من الطابع المفرط لتسلط دولتنا.

ويقدم الدكتور رحيم عجينه "قراءة سياسية لقرار مجلس الامن ٦٨٨" ذلك القرار الذي يشكل تعاطي الدول الكبرى، ولاسيما امريكا، مع تطبيقه محكا اساسيا لموقفها الفعلي من حقوق الانسان في العراق وبالتالي من نظام صدام حسين.

وفي هذا العدد ايضا يتواصل النقاش الذي اثارته طروحات الفنان- الباحث محمود صبري في "بيان المثقف الجديد. وهو نقاش نأمل ان يرفد بمساهمات اخرى من مثقفينا. وارتأت المجلة اغناء المحور بمقالة سبق للرفيق عزيز محمد ان كتبها لصحيفة "ريكاي كوردستان" وفيها تنعكس خبرة الموقف من الثقافة والعلاقة مع المثقفين وذلك من موقعه القيادي في الحزب الشيوعي.

وكانت اسرة التحرير قد اعتذرت في العدد الماضي عن نشر الحلقة الثانية من مناقشة الرفيق زكي خيري الهامة لطروحات عطية مسوح حول الماركسية. ونظرا لاهمية الموضوع ولأن العديد من القراء طالبوا باعادة النظر في الامر، خاصة وان الكراس الذي ضم هذه المناقشة في السويد لم يطبع سوى خمسين نسخة، لذلك ارتأينا نشرها مع الاعتذار للكاتب الفاضل عن التأخير الذي حصل.

وكثيرا ما اشتكى مثقفونا المختصون بالعلوم الطبيعية والدقيقة من خلو "الثقافة الجديدة" من الاهتمام ببحوثهم ونشاطهم في زمن التقدم العاصف في مجالات اختصاصهم وتنامي اعدادهم، وخلو الساحة من منابر عراقية تختص باهتماماتهم المهنية. وقد انعكست هذه الشكوى في الرسالة التي كتبها د. هشام جبر الى اسرة التحرير. فأرتأينا نشرها ضمن مناقشات المحور. ونأمل ان يكون نشر مقالة الفيزيائي العراقي د.محمد عبد اللطيف مطلب عن "العلم الشعبي" فاتحة لمساهمات مستمرة من زملائه.

اما ملف "الادب والفن" فهو مساهمة من المجلة في الاحتفال ببلوغ الشاعر سعدي يوسف عامه الستين ويتضمن مقابلة شيقة اجراها ياسين النصير معه في عمان وذكريات وخواطر مع وعن الشاعر من محبيه الشعراء بلند الحيدري ومحمد سعيد الصكار ومهدي محمد علي وهاشم شفيق. وجدير بالذكر ان المجلة تهيئ لملف الصكار الذي احتفل، هو الآخر ببلوغه الستين

قراءة سياسية لقرار مجلس الأمن ٦٨٨

د. رحيم عجينة

يستأثر قرار مجلس الامن للامم المتحدة، ٦٨٨ بأهمية استثنائية لشعبنا وللقوى السياسية في بلادنا بشكل خاص، وكذلك بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط والمجتمع الدولي. وينصرف حديثي أساسا الى الجانب السياسي وليس الى الجانب القانوني، اي ارتباطه بالفقرة السابعة من المادة الثالثة لميثاق الأمم المتحدة، التي استند اليها مجلس الأمن عندما اصدر قراره هذا.

وسيكون من المفيد التعريف بالقرار وبالظروف التي احاطت تبنيه، وتحليل فقراته وتدقيقها وتقدير اهميتها، وفحص آليات تطبيقه، بالاستفادة من تعامل الامم المتحدة، كمنظمة وكدول اعضاء، ومواقفها وتجاربها، في هذا المجال، الامر الذي يتطلب من المهتمين بالقرار، ومن قوى المعارضة العراقية دراسة كل ذلك، ووضع برنامج عمل من اجل تنفيذه.

١

اتخذ مجلس الامن للامم المتحدة قرار ٦٨٨ في ٥ نيسان ١٩٩١. وهو يتعلق بتقديم المساعدة الانسانية والاغاثة، وبالقضايا السياسية ذات الصلة بالقمع الذي تعرض ويتعرض له الشعب العراقي، من العرب والكرد والتركمان والآثوريين والكلدان ومن الطوائف الدينية المختلفة ... كما انه ذو صلة وثيقة بحقوق الانسان والحقوق السياسية لكل المواطنين العراقيين.

صدر القرار في اعقاب هزيمة العراق العسكرية بعد غزو الكويت، واستسلامه دون قيد او شرط لقوى التحالف الدولي التي قادتها الولايات المتحدة الامريكية، باسم الامم المتحدة لتنفيذ قرارات مجلس الامن ٦٦٠، ٦٦١، ٦٦٢، ٦٦٤، ٦٦٥، ٦٦٦، ٦٦٧، ٦٧٠، لكنه اتخذ مباشرة بعد فشل الانتفاضة الشعبية المسلحة وسحقها بوحشية في جنوب البلاد ووسطها، وبعد تراجعها في كردستان العراق، وما نجم عن ذلك من خسائر جسيمة بالارواح، وقمع وحشي، واخطار بمجازر أشد بشاعة، دفعت الى نزوح ٤٠ ألف مواطن الى منطقة الاحتلال الأمريكية والمناطق الحدودية السعودية، و٧٠ الف الى ايران من الجنوب. ومن كردستان نزح ٨٠٠ ألف الى الحدود التركية العراقية و١،٥ مليون الى الحدود الايرانية العراقية، وذلك في نهاية فصل الشتاء، في ظروف طبيعية قاسية، دون توفر او وجود الغذاء والدواء. (تقرير مقدم الى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي في ايار ١٩٩١).

اما الدول التي اسهمت مباشرة في اتخاذ القرار فهم اعضاء مجلس الامن:

الخمسة الدائميون : الولايات المتحدة، بريطانيا، فرنسا، الاتحاد السوفيتي، الصين.

العشرة غير الدائميين: النمسا، بلجيكا، رومانيا من اوروبا، كوبا، الاكوادور من امريكا اللاتينية، الهند، واليمن من آسيا، ساحل العاج، زائير، زيمبابوي من افريقيا.

وشاركت تركيا في تلك العملية عبر مذكرتها في ٣ نيسان ١٩٩١، وايران في مذكرتين لمجلس الامن في ٣ و ٤ نيسان ١٩٩١. شهدت تلك الفترة انهيار المعسكر الاشتراكي، ككتلة دولية، وتفاقمت ازمة الاتحاد السوفيتي، وهو على وشك التفكك، مما أدى الى تغير في اصطفاف التصويت في مجلس الامن بالارتباط مع التحولات المعروفة في ميزان القوى العالمي ومع "انتهاء الحرب الباردة"، ولم يعد الفيتو السوفيتي متوفرا ولا معرقلا لمنع ادانة العراق.

كما ساعدت على اتخاذ القرار الموجه العالمية الكاسحة للتشبث بحقوق الانسان، ومبادئ الحريات الديمقراطية، والحقوق السياسية.

لم يكن العراق كحكومة وعضو في الامم المتحدة طرفا في اتخاذ القرار، كما في القرارات الأخرى. ويمكنه أن يتعكز على هذا الوضع لرفض اي قرار، بغير استخدام القوة الضاربة ضده او التهديد بها، او الضغط عليه بوسائل فعالة، وباعتباره دولة مهزومة مستسلمة ينبغي عليها دفع استحقاقات متنوعة. هذه الظروف تلقي بعض الضوء على طبيعة القرار وصياغته واهميته في اوليات المجتمع الدولي المترابط والمتكامل والمتناقض، او النظام العالمي الجديد حسب التسمية الشائعة، وكذا بالنسبة لاوليات مؤسسات المجتمع الدولي والاقليمي.

فللولايات المتحدة اولياتها بالنسبة للقرارات التي صدرت بعد غزو الكويت. والقراءة المتأنية لمداخلة رونالد نيومن، رئيس دائرة شؤون شمال الخليج في وزارة الخارجية الامريكية في ٢٧ كانون الثاني ١٩٩٤، حول سياسة الولايات المتحدة تجاه العراق، توضح انه على الرغم من تمسكها بتنفيذ جميع قرارات مجلس الامن، الا انه ادرجها بالترتيب التالي: ٦٨٧، ويقفز الى قراري ٧١٥ و ٨٣٣، ثم يعود

الى قرار ٦٨٨، والاكثر اهمية من بين هذه القرارات كما يؤكد هو ٧١٥، الذي يفصل في وسائل تطبيق قرار ٦٨٧ الخاص بتدمير اسلحة الدمار الشامل في العراق، وقرار ٨٣٣ الذي يجدد تأكيد الترسيم النهائي للحدود العراقية الكويتية كما اقرته اللجنة المشكلة من اجل ذلك الترسيم.

اما تركيا وايران فاهتمامهما ينصب على التخلص من مئات الالوف من اللاجئين الى مناطقهما الحدودية، ومن الاعباء الاقتصادية والامنية المترتبة على ايواء واطعام هذه الاعداد الهائلة، بالاضافة الى حرصهما على التحوط مما قد ينشأ من مضاعفات سياسية بالنسبة لمواقف الكرد في كل من كردستان تركيا وايران. وينبغي ان لا نغفل طبيعة هذين النظامين وموقفهما السلبي من قضايا الشعب الكردي العادلة، ومن حقوق الانسان والحريات الديمقراطية. كل ذلك يثير تحفظاتهما على هذا الجانب في القرار ٦٨٨. واذا راجعنا موقف الصين، الدولة دائمة العضوية في مجلس الامن، وموقف دول البلدان النامية من امريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا، سنجد ان حساسية مفرطة تتحكم في مواقفها من قضايا حقوق الانسان، وفي ما تعتقد ان الالزام بتنفيذ اي قرار بشأنها يعتبر تدخلا في شؤونها الداخلية وانتقاصا من السيادة الوطنية وسابقة يجب ان لا تحدث، وان لا يفسح المجال امام مواثيق حقوق الانسان لتتحول الى قرارات ملزمة.

فلا عجب ان نجد صياغة القرار حذرة وغامضة في البعض منها، وربما متناقضة في البعض الآخر، ويمكننا ان نستنتج ان من الصعب جدا، وربما لا يمكن، ان يصدر قرار ٦٨٨ في الوقت الحاضر وفي غير الظروف التي احاطت به. وارتباطا بذلك يمكننا ان نقدر الصعوبة البالغة في تنفيذه.

فالقمع والمجازر البشرية وتهجير مئات الالوف من المواطنين بالقوة، واستخدام الاسلحة الكيمياوية القاتلة من قبل الحكومة العراقية ضد مواطنيها في حلبجة، وقبل ذلك في السليمانية وبهدينان، كسابقة لا مثيل لها في تاريخ البشرية، كل ذلك لم يكن خافيا على المجتمع الدولي والامم المتحدة والمنظمات الحكومية وغير الحكومية، واثير في اكثر من مناسبة ومكان، على الرغم من تضليل الراي العام في بعض البلدان. (نشرت صحيفة البرافدا في موسكو في عام ١٩٨٨ عن جرائم حلبجة نافية لها واتهمت الاعلام الايراني والامريكي بفبركتها). بالرغم من ذلك لم يصدر قرار من مجلس الامن بادانتها، في حين احتجت دول اوروبية عديدة وادانت تلك الجريمة، وكذا البرلمان الاوروبي ومجلسا الكونغرس الامريكي.

٢

واذ نتوقف عند القرار نفسه، فاننا نقدر اهميته الاستثنائية. ذلك ان تنفيذه يفتح الباب امام امكانية اقامة النظام الديمقراطي المنشود في العراق. وفي ظل ميزان القوى الداخلي الراهن، يشكل القرار اداة رئيسية لتصفية الدكتاتورية الحاكمة وتنحية صدام حسين من حياة المجتمع العراقي، اذا ما جرى الالتزام به، وتوسيع آلية تطبيقه. وسيعتمد هذا الى حد غير قليل على نفوذ المعارضة وموقفها منه وسعيها من اجل تطبيقه.

القرار يربط بين الاسباب الموجبة له والاجراءات المطلوبة لتنفيذه. فالاسباب كما وردت هي:

- تهديد السلم والامن الدوليين.

- القمع الذي يتعرض له الشعب العراقي وتدفق اللاجئين وتهديد ذلك للسلم والامن في المنطقة.

- معاناة المواطنين العراقيين جراء ذلك.

اما الاجراءات والاليات التي ارتآها مجلس الامن فهي (ليس بالترتيب الذي وردت فيه):

- المطالبة بوقف القمع REPRESSION فورا. ويمكن ان تستوعب سعة الفقرة لتشمل كافة اشكال القمع بما فيه القمع السياسي والاثني والطائفي.

- بذل الجهود الانسانية في العراق. وهنا لم يتوقف القرار عند تحديد او تعريف الجهود الانسانية. فالبعض يفسرها على انها تعني الاغاثة وارسال الغذاء والدواء والخيم... ويصر مجلس الامن على ان يسمح العراق بوصول المنظمات الانسانية الدولية على الفور الى جميع من يحتاجون الى المساعدة في جميع انحاء العراق، وتقديم كل التسهيلات لهذه المنظمات.

- ويطلب المجلس من الامين العام للامم المتحدة ان يواصل جهوده من اجل ذلك، بما فيها ايفاد بعثة الى المنطقة للمساعدة في تقديم تقرير عن محنة Plight السكان المدنيين. وهنا ايضا نجد ان كلمة المحنة عامة وفضفاضة الى درجة كبيرة، ويطلب الاهتمام بشكل خاص ب "محنة السكان الكرد" الذين يعانون من جميع اشكال القمع. اي ان القرار وظف الجهود الانسانية لمنع القمع. وبذلك وسع من مفهوم الجهود والمساعدة والاغاثة الانسانية.

لكن رونالد نيومن ضيق ذلك بالنسبة للولايات المتحدة فهو يقول في تقريره في هذا الصدد:

ان برنامجنا للاغاثة في شمال العراق يستند الى سياسة انسانية وليست سياسية.HUMANITARIAN POLICY AND NOT A POLITICAL ONE

- ثم يطلب القرار من الامين العام استخدام جميع الموارد الموجودة تحت تصرفه، بما فيها موارد وكالات الامم المتحدة ذات الصلة، لتلبية الاحتياجات الملحة للاجئين وللسكان العراقيين المشردين. وهنا ايضا لم يجمع بشكل صريح بين الاحتياجات الملحة والجهود الانسانية.

عالج القرار موضوع حقوق الانسان والحقوق السياسية في العراق في فقرته الثانية. وهي تستحق منا التامل والدراسة الجيدة لانها تختلف عن الفقرات الاخرى في صياغتها ولان اهتمامناالرئيسي يتركز عليها.

الفقرات الثماني المكونة للقرار تبدأ بالادانة للقمع والمطالبة والاصرار على اتخاذ هذا الاجراء او ذاك ومناشدة الدول الاعضاء...

الفقرة الثانية تبدأ ايضا بمطالبة العراق بايقاف القمع فورا، كاسهام في ازالة الخطر الذي يتهدد السلم

والامن في المنطقة. وهذا مهم جدا وينبغي ان نرحب بهذا الربط بين ممارسة القمع وتهديد السلم... الا ان الفقرة تغفل المطالبة بالالتزام بالمواثيق الدولية الخاصة بحقوق الانسان، وتتراجع لتقول:

"ويعرب (مجلس الامن) عن الامل في السياق نفسه (اي الاسهام في ازالة خطر تهديد السلم والامن) في ان حوارا مفتوحا سيحدث لكفالة حقوق الانسان والحقوق السياسية لجميع المواطنين العراقيين"."...AN OPEN DIALOGUE WILL TAKE PLACE"

واذا تناولنا هذه الجملة بالدراسة نجد التالي:

- ليس هناك مطالبة، وانما اعراب عن امل.
- الحوار يحدث في المستقبل دون تحديد سقف زمني.
- لم يحدد اطراف الحوار. فهل سيتم بين الحكومة والمعارضة بحضور الامم المتحدة؟
- لم يحدد او يقترح مكانا للحوار.

ان عوامل عديدة فرضت هذه الصياغة، فهي تتعلق بالنظام السياسي- الاجتماعي في العراق، ومتأثرة بالمناقشات الدائرة في الامم المتحدة والقرارات الصادرة سابقا عن الجمعية العمومية في قضايا حقوق الانسان والسيادة الوطنية، ومفهوم الشؤون الداخلية للدول والعلاقة بين سلطة اية دولة والمواطنين، والمواقف المتعارضة بين نزعة تضييق مفهوم وتطبيق القرار او توسيعه. واخذت الصياغة بنظر الاعتبار الحوارات السابقة التي جرت، باشراف الامم المتحدة، بين الحكومات وقوى المعارضة في بلدان عديدة.

ويدعم هذا التقدير التمهيد للفقرات الثماني في نصّ القرار. حيث جاء فيه:

"يعيد (مجلس الامن) تأكيد التزام جميع الدول الاعضاء تجاه السيادة ووحدة الاراضي والاستقلال السياسي للعراق، ولكل دول المنطقة".

ان الحيرة تتملك المرء حين يقرأ النص بهذا الالتزام بعد ان صار معروفا ان سيادة العراق قد انتقصت وخرقت في مجالات عديدة وواسعة، نتيجة نهج الحكومة العراقية وما قادت البلاد اليه من هزيمة عسكرية وبالتالي استسلام مذل. فهل يعني احترام السيادة السماح بقمع الشعب وبقاء الدكتاتورية الدموية؟

٣

لحقوق الانسان والحقوق السياسية المعرب عن الامل بكفالتها تجسيدات واسعة وتطبيقات عديدة وجوانب مختلفة، ابتداءا من الحق الاساسي بالحياة، والتمتع بالصحة والتعليم والغذاء، وحرية الفكر والتعبير والعقيدة وصولا الى اكثرها تعقيدا، الى حق تقرير المصير. والمواثيق الرئيسية الصادرة عن الامم المتحدة لكفالتها هي:

- الاعلان العالمي لحقوق الانسان -كانون الاول ١٩٤٨ .
- العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية - .١٩٦٦

- العهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية - ١٩٦٦.

وقد شهدت اجتماعات الامم المتحدة جهودا متواصلة ومكثفة من اجل ان تأخذ هذه المواثيق مكانها في دساتير وتشريعات الدول الأعضاء الموقعة عليها (ومن بينها العراق)، ولكي تصبح ملزمة لها، الى ان تم ذلك في ٢٣ آذار ١٩٧٦. ومنذئذ صار من حق لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة مراقبة تنفيذ تلك التعهدات، ولكن، للاسف، عن طريق تقديم التقارير من قبل الدول الاعضاء للجنة، وليس عن طريق ارسال لجان تقص وتحقيق عند الضرورة، حينما تقدم الشكوى عن خرق تلك المواثيق.

ان احد المفاهيم والتطبيقات لمفردات حقوق الانسان والحقوق السياسية، التي نالت اهتماما خاصا من الامم المتحدة، هي المادة ٢٥ من العهد الدولي التي تؤكد أن "الحق في المساهمة السياسية ومبدأ ارادة الشعب معبراً عنها بالانتخابات الدورية والأصيلة genuine سيكون الأساس لسلطة أية حكومة". وليس من المستبعد أن تشكل هذه المادة احدى الخلفيات التي تحكمت في صياغة الفقرة الثانية من القرار ٦٨٨

فحول هذه المادة ـ ٢٥ ـ جرت وتجري مناقشات حامية، وتصدر قرارات وتقدم تقارير متباينة ومتناقضة في المحتوى وآلية التطبيق. كما تمت بموجبها تسوية عدد من المعضلات والحروب الأهلية في مناطق من العالم، ومع ذلك لم تتعدم المعارضة الشديدة لها في الأمم المتحدة، استناداً الى الفصل السابع، المادة ٢ ، من ميثاقهما: "ليس هناك في ميثاق الأمم المتحدة المالي ما يخولها التدخل في قضايا تخضع في الجوهر للسلطات المحلية لأية دولة، ولا يلزم الدول الأعضاء أن تضع هذه القضايا للتسوية".

وتفاقمت حدة المناقشات عندما بدأت المحاولات لتطبيق قرار عام صادر عن الجمعية العمومية في دورتها الـ ٤٣ ١٩٨٨ ، الداعي الى "تعزيز engansing فعالية مبدأ الانتخابات الدورية الأصيلة، وذلك تجسيداً لممارسة الحقوق السياسية، بينما تركزت المعارضة حول الخوف من التدخل وخرق السيادة. ورأت أن أي نشاط لمحاولة التدخل، مباشرة أو بشكل غير مباشر، في تطور عملية الانتخابات يخرق نص وروح المبادئ المعلنة للقانون الدولي المتعلق بالعلاقات الحسنة والتعاون بين الدول. (موقف الصين وكوبا وكولومبيا في منافشات الجمعية العمومية عام ١٩٩١ الصين وكوبا عضوان في مجلس الامن الذي اتخذ قرار ٦٨٨).

يهمنا كثيرا متابعة مناقشة هذه القضية الحيوية من مبادئ الديمقراطية والنظام الديمقراطي وحقوق الانسان، باعتبارها مفتاح حل الأزمة المستفحلة في بلادنا، ولان قرارا صادرا بشأنها يتعلق بالعراق.

ندر ان تخلفت الامم المتحدة، خلال العقد الاخير، عن ادراج ومناقشة قرار الانتخابات في دورات الجمعية العمومية، وذلك من اجل تدقيقه واستكماله وتطبيقه، وتباينت النتائج، مرة باتجاه التضييق، واخرى باتجاه التوسيع. فالدورة ٤٥ ثبتت الفقرة التالية:

"ان جهود المجتمع الدولي لتطوير فاعلية مبادئ الانتخابات الدورية والاصيلة ينبغي إن لا تخضع للمساءلة حق اية دولة ذات سيادة في اختيار وتطوير انظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، سواءا كان ذلك يستجيب لرغبات دول اخرى ام لا." (صوت الى جانب القرار ١١١ دولة،

وهي من الدول النامية، و٢٣ ضده، الغالبية منها من دول نصف العالم الشمالي).

كما جرى تبني فقرة اخرى تؤكد "احترام مبادئ السيادة الوطنية وعدم التدخل في شؤون الدول الداخلية في عملياتها الانتخابية" (بنفس القوة التصويتية).

وفي موجة التغيرات العاصفة في العالم، واحتدام الصراع الدائر حول حقوق الانسان والديمقراطية، لم تستطع الجمعية العمومية للامم المتحدة ان تغلق باب النقاش وتنهي البحث عن صيغة مقبولة للاطراف والآراء المتعارضة، الامر الذي نجم عنه اتخاذ قرار في الدورة ال ٤٦ في كانون الاول ١٩٩١، جاء فيه:

"ليس هناك حاجة عامة UNIVERSAL NEED لان تقدم الامم المتحدة مساعدة انتخابية لدول اعضاء الا في ظروف خاصة مثل: انهاء السلطة الاستعمارية وفي اطار عملية سلام اقليمية او عالمية، او بطلب من دولة معينة ذات سيادة، شريطة ان يتم ذلك بقرار من مجلس الامن او الجمعية العمومية، وبالالتزام الصارم بمبادئ السيادة وعدم التدخل في الشؤون الداخلية".

منذ عام ١٩٥٦ حتى عام ١٩٩٠ اشرفت الامم المتحدة على ثلاثين استفتاءا وانتخابا في بلدان ليست مستقلة، وذلك من اجل تقرير مصيرها. والجانب الآخر، وما يمكن ان نسميه بيت القصيد في الفقرة الثانية في القرار ٦٨٨، هو الحوار لكفالة حقوق الانسان والحقوق السياسية، ومن بين اهمها اجراء الانتخابات ودور الامم المتحدة في الاشراف عليها. هذا الدور الذي يستند الى طلب دولة مستقلة ذات سيادة. وعلى هذا الاساس اضطلعت الامم المتحدة فعلا بمثل هذا الدور واشرفت على انتخابات بعد حروب اهلية عديدة ونظمت حوارات ومحادثات بين السلطات الحاكمة وقوى المعارضة.

قدمت حكومة الساندنيستا في نيكاراغوا المثال الاول كدولة مستقلة تطلب من الامم المتحدة مراقبة انتخابات تجريها هي (الحكومة)، بعد ان وصلت الى طريق مسدود لحل ازمة البلد بسبب الحرب الاهلية ضد الكونترا، والضغوط الاقتصادية والسياسية عليه من جانب الولايات المتحدة وبعض دول امريكا اللاتينية. وكذا الحال بالنسبة لانغولا وكمبوديا...

ولعل الوضع في السلفادور يثير الاهتمام. فنتيجة للحرب الاهلية المديدة بين الحكومة وجبهة فارابوندو مارتي للتحرر الوطني، انتهى الطرفان الى الحوار في ايار ١٩٩٠ في فنزويلا. وتم الاتفاق بينهما برعاية الامم المتحدة في ٢٦ تموز على صيغة سميت: "الاتفاق حول حقوق الانسان". وتضمنت الاتفاقية وصول بعثة مراقبة من الامم المتحدة، والاحترام الكامل لحقوق الانسان وكفالة ذلك. وبدأت اللجنة عملها في ٢٦ تموز ١٩٩١، وحققت في قضايا حقوق الانسان منذ عام ١٩٨١، وتوصل الطرفان، في جنيف في ٤ نيسان ١٩٩٢، بحضور الامين العام للامم المتحدة الى ما يلي:

- انهاء النزاع المسلح بالوسائل السلمية.
- دمقرطة الحياة في البلاد.
- الضمان غير المحدود لحقوق الانسان.

- وحدة المجتمع السلفادوري.

- تنفيذ العملية برعاية الامين العام للامم المتحدة.

- والالية لذلك هي مواصلة المفاوضات وبمساهمة فعالة من الامين العام او ممثله الشخصي، وكذلك بمشاروارت منفصلة مع كل طرف يجريها ممثل الامين العام.

واخيرا وليس آخرا نذكر انتخابات جنوب افريقيا وظروفها المعروفة ودور الامم المتحدة فيها ومداه كحالة خاصة.

تلك كانت امثلة متنوعة وقرارات مختلفة لحل ازمات سياسية واجتماعية. وليس القصد من الاشارة اليها محاكاتها والتماثل معها، وانما الاسترشاد بها والدراسة الملموسة لكل حالة، وتحليل العوامل الداخلية والخارجية، الضاغطة او المقررة، التي ادت في نهاية المطاف الى هذا الحل او ذاك، والقصد ايضا هو التمعن في القرار ٦٨٨، والهدف من ورائه ومغزى الفقرة التي تعبر عن امل مجلس الامن في حوار يكفل حقوق الانسان والحقوق السياسية.

٤

وعندما ندرس الموقف العراقي من القرار ٦٨٨، نجد الصورة التالية: ان الحكومة، اذا ترك الخيار لها، ترفضه رفضا قاطعا. ولا تنطلق، في الجوهر، في رفضها من الحرص على السيادة ومنع التطاول عليها او من الاصرار على عدم التدخل في الشؤون الداخلية، اذ انها تجاهلت في السابق، مثلما هي اليوم، السيادة الوطنية وفرطت بها، ما دام هذا التجاهل والتفريط يساعدان صدام حسين (ومجموعته) على التشبث بكرسي الحكم والبقاء على رأس السلطة. ولهذا السبب قبل قرارات مجلس الامن كلها واستجاب بنعم لكل ما طلب منه من قبل قوات التحالف. ولم يتصرف كحاكم مهزوم ينبغي عليه ان يرحل.

وقبل هذا بسنوات سمح للقوات التركية، البرية والجوية، بالتوغل في الاراضي والاجواء العراقية، بحجة ملاحقة مقاتلي حزب العمال الكردي (ب ك ك) في حين ان الهدف الحقيقي لذلك كان مساعدته في ضرب حركة الانصار في كردستان وتصفية الحركة القومية الكردية.

كذلك فعل الشئ نفسه مع شاه ايران وتنازل في اتفاقية ١٩٧٥ عن سيادة العراق في شط العرب والمناطق الحدودية مقابل ضرب الحركة القومية الكردية.

ومنح بعض الاراضي العراقية للاردن والسعودية لقاء مساعدته في حربه العدوانية ضد الجمهورية الاسلامية الايرانية حين اصبحت هزيمته العسكرية متوقعة.

ان صدام حسين، اذن، يرفض قرار ٦٨٨ لانه يرى في تطبيقه تطبيقا حقيقيا بداية النهاية لحكمه ونظامه. وهو محق في ذلك من وجهة رؤيته هذه.

ومن الناحية الاخرى يحق لنا ان نسأل عن موقف المعارضة العراقية حين تطالب وتكرر مطالبتها بتنفيذ القرار، وحين تنتقد المجتمع الدولي ومجلس الامن في تردده في الزام الحكومة العراقية به،وتصف

موقف المجتمع الدولي بعدم الجدية، وباهتمامه بالقرارات الاخرى لتدمير تسليح العراق، وباهمال القرارات الخاصة بدعم الشعب العراقي.

وفي هذا الشأن تواجه المعارضة العراقية مهمة التوسع في تفسير روح ونص القرار ليشمل في اهدافه، بالاضافة الى الحقوق السياسية والمدنية والاغاثة والمساعدات الانسانية، ليشمل الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، على عكس ما يحاول البعض حصره في الجهود الضيقة لاعانة المحتاجين. واذا احتكمنا الى واقع اقتراف صدام حسين جرائم ضد الانسانية وخرقه القوانين الدولية ولوائح حقوق الانسان وميثاق الامم المتحدة وبسبب هزيمته العسكرية، فاننا لا نتوقع ولا ندعو الى مبادرة منه ومن مجموعته ومن نظامه لحوار تحت اشراف الامم المتحدة لكفالة حقوق الانسان والحقوق السياسية، وانما المطلوب الآن هو الزامه بتنفيذ قرار ٦٨٨، وقيام الامم المتحدة بدور فعال باجراء انتخابات لجمعية تأسيسية في العراق على اساس الاقتراع الشامل المتساوي المباشر والحر وبالتصويت السري. ويتضمن هذا الاجراء توفير الحريات العامة والتعددية السياسية وسيادة القانون والغاء كل القوانين والتشريعات المنافية لحقوق الانسان والمقيدة للحريات وتصفية كل المؤسسات التشريعية غير المنتخبة. ان ذلك يعني قيام الامم المتحدة بالاعداد للانتخابات، وتسجيل قوائم المصوتين، وتنظيم الح ملة الانتخابية، والرقابة على عملية التصويت، وفرز الاصوات واعلان النتائج واصدار بلاغ عن العملية كلها. كما انه يعني التشاور والتنسيق مع قوى المعارضة العراقية وضمان حرية نشاطها. وبمعنى آخر ان هذه العملية تؤدي الى تجميد سلطة النظام وتحرير الشعب من الخوف والارهاب. ومن جانب آخر على قوى المعارضة ان تبادر لان تكون حاضرة على الارض، ومقنعة في عملها وبرامجها للشعب وللقوى الاقليمية والدولية، لكي تكون جزءا من هذه العملية الانتخابية وطرفا رئيسيا في المؤسسات المشكلة لادارتها.

٥

ان ظروفا مساعدة تتوفر لالزام العراق الرسمي بتطبيق قرار ٦٨٨ بمفهومه الواسع الذي اشرنا اليه وفصلنا فيه.

فالحكومة العراقية الحالية فقدت، او بالاحرى لا تمتلك، مصداقية تمثيل الشعب العراقي، لا داخليا ولا اقليميا ولا عالميا.

وسجلها، قبل غزو الكويت وقبل صدور قرار ٦٨٨، مشين في قضايا حقوق الانسان، ومدان من قبل المجتمع الدولي، الحكومي وغير الحكومي، ومن قبل الشخصيات الاجتماعية والعلمية والسياسية والبرلمانية ووسائل الاعلام.

وحين نستعرض هذه الادانة وعينات منها فسنعثر على التنوع فيها. يقول تقرير مقدم الى لجنة الشؤون الخارجية لدى مجلس الشيوخ الامريكي عام ١٩٨٧، "يجلس صدام حسين على قمة جهاز سياسي امني كفوء، ودوام سيطرة حزبه السياسية يتم عبر قانون عقوبات قاس، ينزل احكام الموت بجرائم عديدة...". وفي مجتمع قمعي مثل العراق تستحيل معرفة موقف الجمهور من النظام. (تقول

ميدل ايست ووج ان عدد افراد جهاز الامن عام ١٩٧٨ هو ١٥١٣٠١ فرد أي ١،٠٥٪ من سكان العراق. ويتكون مكتب شؤون الرئاسة- الامن الخاص من ٥٧٧٦٨ فرد).

وكان للمنظمات العالمية والمحلية المعنية بحقوق الانسان دور متميز في فضح ممارسات النظام العراقي في تقاريرها المفصلة، مثل منظمة العفو الدولية وميدل ايست ووج وكاردري واللجنة الفرنسية ضد الأرهاب ومن اجل الحريات الديمقراطية في العراق واللجنة الايطالية واليونانية للتضامن مع الشعب العراقي، ولجان التضامن مع الشعب الكردي. كل ذلك جعل من قضايا حقوق الانسان والحريات السياسية وحق تعرير المصير للشعب الكردي قضايا ملتهبة تتطلب تدخل المجتمع الدولي.

ان الرأي العام العالمي معبأ ضد الدكتاتورية بسبب استخدامها الاسلحة الكيمياوية وحملات الانفال، الامر الذي اثار احتجاج حكومات وبرلمانيين في بلدان عديدة والبرلمان الاوروبي ومجلس الكونغرس الأمريكي والمؤتمر العالمي للتضامن مع الكرد. وبادرت شخصيات عالمية الى المساهمة في هذه الحملة، مثل مدام ميتران، جيمي كارتر، ادوارد كنيدي وزخاروف. وقال رتشارد مورفي، الشخصية السياسية الامريكية، في ندوة حول العراق، عقدت في لندن في آذار ١٩٩٠: "الرأي العام الامريكي يدين بشكل واسع استخدام الاسلحة الكيمياوية من قبل صدام حسين في الحرب العراقية الايرانية وفي عام ١٩٨٨ (حملات الانفال) ويعيد الى ذاكرته غرف الغاز النازية".

ومن الاوساط العلمية كتب الاستاذ فريدهاليدي (جامعة لندن) في تموز ١٩٩٠: " ان سجلا بخرق حقوق الانسان داخليا، كما هو واقع في العراق يسبب قلقا واسعا في المنطقة. وان دولة يمكنها ان تعدم مواطنيها عشوائيا وتستخدم الاسلحة الكيمياوية ضد سكانها الكرد، تثير مخاوف كبيرة. وسلوك حكومة العراق الاجرامي لا ينحصر داخل حدوده. فعلى مدى سنوات عديدة تم تهديد واغتيال العديد من اللاجئين العراقيين في الخارج باوامر من بغداد. اما تعيين برزان التكريتي، مسؤول الاستخبارات العسكرية والامن القومي، سفيرا لدى لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة، فانه جعل عيونا عديدة ترتجف".

اما بعد غزو الكويت وهزيمة العراق والجرائم التي اقترفها صدام حسين في الكويت وضد انتفاضة الشعب في آذار ١٩٩١، فقد اتسعت الادانة على مستوى الحكومات والبرلمانات والاحزاب السياسية والمنظمات غير الحكومية، وشددت وسائل الاعلام حملاتها، وعدلت حكومات عديدة مواقفها بعد ان اغمضت اعينها عن جرائم النظام لفترة طويلة.

وجاء في تقرير انتقادي لسياسة الولايات المتحدة حول الحرب الاهلية والانتفاضة في العراق، مقدم الى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في ايار ١٩٩١: "ان خلاص الشعب العراقي يكمن في الخلاص من صدام حسين وبغير ذلك ستجد الولايات المتحدة وشركاؤها في التحالف انفسهم منغرسين في المستنقع العراقي...".

واكد باتريك لوكلير، رئيس قسم الشرق الأوسط في الخارجية الفرنسية، عند لقائه وفد لجنة العمل

المشترك في باريس في ايار ١٩٩١، اكد تعاطف اوروبا مع قضية الشعب الكردي والتطور الديمقراطي في العراق وتمسك الاتحاد الاوروبي ومبادرته بطلب محاكمة صدام حسين كمجرم حرب.

وكان ديفيد ماك المسؤول عن قسم العراق في وزارة الخارجية الامريكية، قد تحدث في اجتماع لمعارضين عراقيين في فرجينيا في الولايات المتحدة في آب ١٩٩١، وقدم تفصيلا للسياسة الامريكية حول العراق، وقال:

"منذ ان استلم صدام حسين السلطة اقام دكتاتورية وحشية سببت للشعب العراقي معاناة هائلة، وكدس سجلا مشينا في خرق حقوق الانسان وخنق كل نشاط سياسي ونهب الثروات النفطية (...) وتفضل الولايات المتحدة قيادة جديدة تستجيب لاماني الشعب العراقي وترغب في العيش بسلام مع جيران العراق (...) وصدام حسين لا يملك اية مصداقية، ولا يمكن اصلاحه، وقيادته لن تقبل في المجتمع الدولي (...) وسنساعد على قيادة الاسرة الدولية لمواصلة الضغط على النظام العراقي الحالي وحرمانه من اي مكان في علاقات طبيعية بين الحكومات (...) وتتطلع الولايات المتحدة الى احترام قواعد حكومة ديمقراطية بقيادة يختارها الشعب العراقي وتقدم الحساب له، وبشكل خاص احترام حقوق كل المجموعات الاثنية والدينية في العراق، وعدم حرمان اية مجموعة من حق المواطنة، والمساهمة الكاملة في مؤسسات الدولة واحترام التراث الديني والثقافي".

وهنا نود ان نذكر ان التقرير المقدم الى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ في ايار ١٩٩١، الذي اشرنا اليه آنفا يؤكد ان الادارة الامريكية غير ملتزمة بالاهداف التي جاءت في كلام ديفيد ماك. فالتقرير يقول:

"ان الهدف كما اكده مسؤولون في الادارة الامريكية هو التطلع الى بديل عسكري لصدام حسين وليس الى بديل شعبي، وان سياستنا هي التخلص من صدام حسين وليس من نظامه".

حينما نورد هذه المواقف كعينات، لا ندعو الى اعتبارها مسلمات نهائية غير قابلة للتغيير او التجاهل او النسيان. فهي محكومة بظروفها وبضغوط مراكز القوى المختلفة. لكنها تبقى عوامل مساعدة للتحرك واحداث التغير المطلوب في العراق. وفي الوقت نفسه لا تفوتنا المعوقات والصعوبات امام تطبيق القرار بمفهومه الواسع.

٦

الصعوبة الرئيسية في ان ياخذ قرار ٦٨٨ طريقه للتنفيذ بآلية مناسبة تكمن في غياب حركة معارضة جماهيرية منظمة من اجل الديمقراطية بامكانها فرض حلولها او تجعل من غير الممكن استمرار النظام حتى بوسائل الارهاب الدموي والقوة المسلحة. فالانتكاسة بعد انتفاضة اذار ١٩٩١ ما زالت مستمرة في جنوب ووسط العراق وغربه وفي محافظة نينوى. وتواصل الاجهزة الامنية نشاطها، والدكتاتورية لا تسمح باية بادرة نشاط سياسي معارض، او انتقاد الحكم او اي جانب من سياسته، مهما كان مصدر هذا الانتقاد، من داخل السلطة او خارجها، ولا تسمح بتنظيم اي حركة من اجل حقوق الانسان، وتمد

اية بذرة او جنين لها. فالحركة الجماهيرية المنظمة ، وهي التجسيد للعامل الداخلي الذي نعول عليه في التغيير، غائبة ولم تنضج بعد، ولاسيما بعد ان فقدنا فرصة الانتفاضة، بسبب عوامل داخلية واقليمية ودولية، ولان ازمة الحركة الشعبية اشد من ازمة النظام، وتوازن القوى تبعا لذلك لصالحه. ويساعد في استمرار ذلك العلاقات السلبية بين اطراف المعارضة العراقية، وبشكل خاص الاقتتال الاخير في كردستان بين الحزب الديمقراطي الكردستاني الموحد والاتحاد الوطني الكردستاني، الذي سيكون له ان عكاس سلبي على استنهاض الحركة الشعبية بما يشيعه من مشاعر الاحباط، اذا لم تجر معالجة الوضع بصورة جذرية. ويزداد هذا الوضع صعوبة اذا تخلف العامل الخارجي او تردد، كمجلس امن، او دول كبرى، عن الاضطلاع بدور هام، وقد يكون مقررا، في صياغة مستقبل النظام الحالي والنظام الذي يليه. ونقصد هنا تردده عن الزام العراق بتنفيذ قرارات ٦٨٨ و ٧٠٦ و ٧١٢. والصعوبة الثانية التي تعترضنا نجدها في عدم حسم الموقف فيما اذا كان خرق حقوق الانسان في دولة ما شأنا داخليا لا يجيز تدخل المجتمع الدولي ومؤسساته لوقفه، حتى وان وصل هذا الخرق الى مستويات الابادة الجماعية بالاسلحة الكيمياوية، وحرق القرى، والاعدامات والمقابر الجماعية، وتهجير وتشريد مئات الالوف وابادة مواطني الاهوار، والاعتراف بقتل ١٠٠ ألف كردي من مهجري الانفال، كما اعترف مسؤولون في بغداد للوفد الكردي المفاوض بعد انتفاضة اذار.

لقد صمتت الامم المتحدة على هذه الخروقات الوحشية، بمعنى انها لم تصدر قرارات عقابية، اذا استثنينا جنوب افريقيا كحالة خاصة، حيث علقت عضويتها في الامم المتحدة وفرضت عليها عقوبات اقتصادية بسبب سياسة التمييز العنصري.

فالاتجاه الغالب حتى الان يعتبر احترام حقوق الانسان او انتهاكها شأنا داخليا، ويدور صراع حول ذلك من منطلقات متباينة. والظاهر اننا نمر اليوم في مرحلة انتقالية نحو اعتبار خرق العهد الدولي للحقوق السياسية والمدنية وحقوق الانسان الاخرى شأنا يهم الاسرة الدولية ويتطلب التدخل، لاسيما اذا اقترن بصراع داخلي يهدد السلم والامن اقليميا ودوليا. وامامنا امثلة البوسنة والصومال ورواندا...

وفي سياق تحديد الموقف من حقوق الانسان، تجدر الاشارة الى المواجهة الصينية الامريكية وانعكاساتها على المجتمع الدولي، وما تثيره من تناقضات داخل الولايات المتحدة، هذا الصراع الذي انتهى الى تخلي الولايات المتحدة عن ربط قضايا حقوق الانسان بعلاقاتها الاقتصادية مع الصين، الامر الذي قد يجد له انعكاسا على الموقف من قرار ٦٨٨. وارتباطا بذلك ينبغي ان نذكر ما نص عليه القرار في التاكيد على السيادة، الامر الذي يربطه البعض بعدم التدخل لفرض احترام حقوق الانسان من قوى خارجية.

كما ان الاتجاه الضاغط في مجلس الامن يشدد على الاكتفاء بالنجاح الذي تحقق في تطبيق قرارات الامم المتحدة على العراق ويدعو الى تطبيع العلاقات مع الحكومة العراقية ورفع الصعوبات التجارية ومثلما هو معروف ارادت فرنسا وروسيا والصين الحصول على موقف من مجلس الامن يمهد

لاستعادة النظام العراقي موقعه في المجتمع الدولي. لكن ذلك اصطدم بمعارضة الولايات المتحدة وبريطانيا، وطالبتا بتنفيذ كل قرارات مجلس الامن. واكدت ذلك رسائل الرئيس الامريكي الى مجلس الكونغرس التي شددت على القرار ٦٨٨. ثمة حقيقة يحسن عدم نسيانها. ذلك انه ليست هناك ضمانات لمواصلة التمسك بالقرار او العمل على فرضه وتطبيقه، ولا سيما في حالة غياب حركة جماهيرية منظمة ضاغطة تستفيد من العوامل الخارجية المتزايدة الاهمية، فمن المحتمل ان تركز الولايات المتحدة على توطيد النجاحات التي حققتها: وهي كما لخصها رونالد نيومن في كانون الثاني ١٩٩٤:

- تدمير ترسانة السلاح الكيمياوي والصواريخ.
- تدمير القسم الاكبر من البرنامج النووي.
- سوف لا يستطيع العراق اعادة بناء سلاحه المدمر، ما دامت اللجنة المختصة تتمتع بامكانيات غير محدودة لتنفيذ صلاحياتها المتضمنة رقابة دولية غير محدودة.
- الكويت تحرر وتم رسم حدوده باعتراف دولي وكفالة مجلس الامن.

السكان الذين ساعدنا في اعادة اسكانهم في شمال العراق ما يزالون امنين.

- التحالف الاقليمي الذي مكننا من العمل لاحتواء العراق ما يزال متماسكا.
- التحالف الدولي في مجلس الامن ما يزال قوة قوية في مطالبة العراق بالتقيد بقرارات الامم المتحدة.
- الاكثر اهمية هو استمرار احتواء خطر العراق على جيرانه وعلى مصالحنا.

كذا لخص نيومن الوضع. ولا يغيب عنا ان امن اسرائيل ودورها في المنطقة قائم بين السطور.

وفي التحليل الاخير ستقرر المصالح الاقتصادية، او ما يطلق عليه الامن القومي او المصالح الحيوية، موقف هذه الدولة او تلك في مجلس الامن وفي علاقاتها مع النظام العراقي. فالنظام العراقي يساوم اليوم على حقول البترول الغنية في جنوب العراق، وعلى منح الامتيازات وعقد الصفقات مع الشركات البترولية واحتكاراتها المختلفة لقاء فك العزلة ورفع الحصار التجاري، الامر الذي اثار خلافا بين الدول دائمة العضوية في مجلس الامن وغيرها من البلدان الصناعية التي تتطلع شركاتها الى الفوز بنصيب كبير من عوائد النفط العراقية المتوقعة وكلف اعادة بناء العراق وحتى اعادة تسليحه، والذي سيستغرق اجلا طويلا.

ولا ننسى ان موقف الحكومات الاقليمية من الوضع في العراق يشكل ثقلا سياسيا هاما في تنفيذ قرارات مجلس الامن والاولويات فيها. فهي تضع في الاعتبار المخاوف من شيوع مطالب حقوق الانسان والديمقراطية السياسية، وكذلك مصالحها الاقتصادية، وكون العراق منتجا ومصدرا كامنا كبيرا للنفط، وتأثير رفع الحصار عن تصدير النفط على حركة اسعار النفط العالمية.

وتعير بعض الدول الاقليمية اهتماما خاصا للقضية الكردية وموقف الشعب الكردي في بلدانها،

ولاختلال موازين القوى لصالح ايران في الخليج. كل ذلك تضعه الدول الاقليمية في حساباتها، بقدر ما يتعلق بتأثيراته السلبية او الايجابية على اوضاعها الداخلية، عندما يحين الوقت لحسم موقفها من قرارات مجلس الامن، لكي تمارس ضغوطها على مجلس الامن والدول الكبرى.

٧

تنص الفقرة الثامنة من القرار على ابقائه مدرجا قيد النظر، اي انه يتطلب من المعارضة العراقية المبادرة والعمل والتحرك لتنفيذه، آخذين بنظر الاعتبار الملابسات والتعقيدات المحيطة به.

وساعدنا كثيرا في ذلك تنسيب مقرر خاص لحقوق الانسان في العراق، هو ماكس فان دير شتويل من قبل الامم المتحدة. وواصلت لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة بحث الموضوع في اجتماعاتها الدورية واصدار قرارات مفصلة بشأن العراق والقرارات بشأنه. وتشكل توصيات المقرر الخاص التي قدمها الى اجتماع الجمعية العمومية لحقوق الانسان في اذار ١٩٩٤ والقرار الصادر عنها في ضوء تقريره، والموسوم: وضع حقوق الانسان في العراق، تشكل جانبا رئيسيا من برنامج عمل للمعارضة العراقية، ومحركا فعالا للمنظمات المتخصصة في هذا المجال.

فالوثيقتان، التوصيات والقرار، تشكلان معالجة ملموسة وغنية. وتقدمان مقترحات باجراءات لتصفية الخروقات للاعلان العالمي لحقوق الانسان والعهدين الدوليين للحقوق السياسية والمدنية والحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، كما تصران على تنفيذ قراري ٧٠٦ و٧١٢ لبيع كميات من النفط العراقي، ورفع الحصار عن كردستان وحماية سكان الاهوار. وطالبتا باقامة لجان مراقبة دائمة حول حقوق الانسان. وتناولتا القوانين والتشريعات والمطالبة باعادة النظر فيها وباستجابتها للمواثيق والتعهدات الدولية، وعالجتا قضايا السجناء السياسيين والمعتقلين والمختطفين...

ن جهدا منسقا، ان لم ننجح في جعله موحدا، مطلوب من كل العاملين، افرادا، وتنظيمات ومعارضة عراقية، من اجل تعبئة الراي العام العالمي والمؤسسات والشخصيات الاجتماعية والبرلمانية والعلمية والمنظمات والاتحادات غير الحكومية للضغط على الامم المتحدة ومجلس الامن والامين العام والدول الاعضاء، ولاسيما الدول الكبرى المقررة والمؤثرة لحمل العراق على تنفيذ توصيات المقرر الخاص وقرار لجنة حقوق الانسان، وتنفيذ قرار ٦٨٨ بمفهومه الواسع الذي طرحناه.

كذلك يتطلب الوضع الضغط على الجامعة العربية ودولها لاتخاذ موقف معلن وصريح يتطابق مع قرار ٦٨٨ و ٧٠٦ و ٧١٢، وهذا يكتسب اهمية استثنائية ليس فقط للشعب العراقي، وانما ايضا لبقاء الجامعة العربية كأداة فعالة تثق بها الشعوب العربية.

ويتيح لنا سلوك الحكومة العراقية وطبيعة السلطة الفاشية امكانية تعبئة راي عالمي ضاغط لتعليق عضوية الحكومة الحالية في الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة وفي الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الاسلامي.

ولا نغفل ايضا المطالبة المتزايدة الصادرة من شخصيات ومؤسسات عديدة بمحاكمة صدام حسين

وشركائه الرئيسيين كمجرمين ضد الانسانية، لجرائمهم ضد الشعب العراقي، بكل قومياته وطوائفه، وضدالشعوب المجاورة، بالاستناد الى اعمال الحكومة العراقية والوثائق المتوفرة عن جرائمها.

فهل سننجح في ان نجعل من النظام العراقي سابقة خاضعة لمحاسبة المجتمع الدولي عن طريق تشكيل محكمة دولية بقرار من الامم المتحدة، تنظر في جرائم الحكومة العراقية وتصدر حكما في قضايا حقوق الانسان؟

وهل سننجح في انقاذ العراق من محنته الكارثية بالديمقراطية ام بالعنف؟ وما هو دور العامل الخارجي؟

ليست لدي اجابات قاطعة. فالامر مرهون بعوامل عديدة. لكن الاهم ان نتهيأ للعمل وان نكون مستعدين للتحول والانتقال من اسلوب الى آخر ومن حالة الى اخرى، وقادرين على ذلك.

• محاضرة القيت في قاعة هامر سمث في لندن في ٣ حزيران ١٩٩٤

أفكار للمناقشة

الدولة ومجتمعات مابعد الاستعمار

د. عبد المجيد الهيتي

مقدمة:

يكمن أحد أهم المفاتيح لفهم التطور في مجتمعات مرحلة مابعد الاستعمار، وهي عمليا مجتمعاتنا كما سنسميها للاختصار، في دراسة طبيعة دولتها، والخصائص التي اكتسبتها منذ نشوئها بشكلها الحديث، والدور الذي لعبته حيال البناء الاقتصادي - الاجتماعي، والعلاقة بين الدولة والمجتمع.

وتنبع أهمية هذا الفهم من واقع التجارب التي مرت بها المجتمعات العربية منذ الاستقلال، وهي تجارب كشفت عن اخفاق ذريع في تحقيق الآمال والأهداف التي تطلع إليها، وناضل من أجلها، الكثيرون. ولم يقتصر الاخفاق على بلد عربي دون غيره. ولكنه اتخذ أشكالاً أكثر مأساوية في البلدان التي ازدهرت فيها الآمال، وخصوصاً في تلك التي لعبت الدولة فيها دوراً أكبر في عملية "التنمية" الاقتصادية والاجتماعية.

على الصعيد الاقتصادي، كانت الحصيلة حالة مشوهة بعيدة عن التنمية الحقيقية تجلت، رغم وفرة الموارد المتاحة، في خلل خطير في التوازن القطاعي وفي تخلف انتاجي مزمن وفي اعتماد كلي على الخارج سواء في توليد الفائض أم في تلبية متطلبات الاستهلاك. وعلى الصعيد الاجتماعي، هناك تفاوت صارخ في توزيع الدخول، ونهب للثروات العامة ونشوء فئات طفيلية تستأثر بجزء كبير الفائض تنفقه من خلال عادات وأنماط استهلاكية باذخة، مقابل فقر تعاني منه الأغلبية الساحقة. أما على الصعيد

السياسي، فقد تبددت الأحلام التي راودت الأجيال السابقة بتحقيق الحرية والديمقراطية وذلك أمام استفحال الدكتاتورية والاضطهاد بشكل لم يسبق له مثيل، لتحلَ مكانها طموحات لا تتطلع إلى أبعد من تحقيق الحدود الدنيا لحقوق الانسان.

كُتبت مؤخراً دراسات عديدة عن الدولة من منطلقات تبدو متباينة. وقد أجمع أكثر هذه الدراسات على تشخيص الدور المهيمن للدولة في تطور وقولبة مجتمعات مابعد الاستعمار باعتبارها قد اكتسبت كياناً أشبه مايكون مستقلاً عن الطبقات والفئات التي كان يفترض أن تمثلها هذه الدولة.

هذه المقالة لا تخرج في الواقع عن هذا التشخيص بل تنطلق منه وتستند إليه. ولكن هدفها يتمثل في طرح بعض الأسئلة والملاحظات عما يمكن أن تولده هذه الاستقلالية من آثار أرى أن الفكر الاشتراكي قد أهملها لأسباب قد تعود إلى التوجه العام لتبسيط النظرة الماركسية عن الدولة واختزال الأخيرة إلى كونها "أداة بيد الطبقة المهيمنة" تنشأ وتتطور لخدمة مصالحها.

ماركس والدولة:

ليس شكلياً الرجوع إلى فكر ماركس عن الدولة بغية فهم طبيعتها فهماً أعمق. فلماركس يعود الفضل في إزالة الغموض الذي اكتنف مفهوم الدولة، بل شكلت نظرته المصدر الأساسي لأغلب الدراسات الجدية التي حاولت إلقاء الضوء على طبيعة الدولة في مجتمعات العالم الثالث.

يتفق الباحثون الذين تتبعوا تطور مفهوم الدولة عند ماركس على أن هذا المفهوم قد مثّل القاعدة التي انطلق منها ليخرج عن إطار الفكر الهيجلي المثالي الذي استحوذ على كتاباته المبكرة، ورغم ذلك فإن ماركس لم يحاول صياغة نظرية موحدة وشاملة ومتماسكة عن الدولة، بل يتمثل تراثه بشأن الدولة في مجموعة غير منظمة، من تحليلاته الفلسفية ومعالجاته لأوضاع سياسية محددة، كثورة ١٨٤٨ في فرنسا أو دكتاتورية لويس بونابارت أو تجربة كومونة باريس في عام ١٨٧١[1].

إن الشروط المادية للمجتمع البشري تشكل عند ماركس الأساس والمحدّد للبناء وللوعي الاجتماعيين. والدولة، باعتبارها جزءاً من البناء الفوقي، هي نتاج لتطور تلك الشروط. فهي ليست من إبداع العقل البشري، مثلما لم تكن تعبيراً عن إرادة بشرية عامة. كما انها لا تقف فوق المجتمع لتعبر عن المصالح الجماعية للأفراد داخله، بل، على العكس، نشأت وتحددت بتطور الشروط المادية للمجتمع. وتجد هذه الفكرة أوضح تعبير لها في فقرات من مقدمة كتابه "نقد الاقتصاد السياسي" غالباً مااقتبست كدليل على وجود نظرية عند ماركس عن الدولة. يقول ماركس:

"إن العلاقات القانونية، إلى جانب اشكال الدولة لا يتم إدراكها من خلالها هي أو من خلال مايسمى التطور العام للعقل البشري، بل تجد جذورها في الشروط المادية للحياة (أو تلك التي يجمعها هيجل...) تحت اسم "المجتمع المدني". النتيجة العامة التي توصلت إليها... يمكن صياغتها باختصار كما يلي: في التاجهم الاجتماعي لحياتهم، يدخل البشر في علاقات محددة وضرورية ومستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات انتاج تنسجم مع مرحلة محددة من تطور قواهم الانتاجية. ومجموع علاقات الانتاج هذه

تشكل البناء الاقتصادي للمجتمع، وهو الأساس الحقيقي، الذي ينشأ عليه البناء الفوقي القانوني والسياسي، ومعه تتطابق أشكال محددة من الوعي الاجتماعي. ويحدد نمط انتاج الحياة المادية عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية بشكل عام. فليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي، بل على العكس، وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم"(٢).

من هنا فإن مفهوم الدولة لدى ماركس هو، من الناحية النظرية، محصلة لفلسفته التي ترى ان الشروط المادية للمجتمع هي التي تحدد قيام وتطور الدولة باعتبارها جزء من البناء الفوقي. وعليه فإن ظهور الدولة يرتبط بنمط انتاجي محدد، انقسم في ظله المجتمع، بسبب نشوء الملكية الخاصة، إلى طبقات متصارعة. والدولة هي نتاج وتعبير عن هذا الصراع لكونها أداة بيد الطبقة المهيمنة اقتصادياً تستعملها لغرض اخضاع الطبقات المستغَلة.

غير أن تطور أفكار ماركس عن الدولة، بعيداً عن إطارها الهيجلي المبكر، ينبع بالدرجة الاولى من دراسته لمنعطفات وتطورات سياسية محددة في فرنسا كما أسلفنا، وفي ألمانيا. بشكل عام، يعتبر ماركس الدولة في المجتمع الرأسمالي أداة بيد الطبقة البرجوازية لأنها المهيمنة اقتصادياً. ويعزو تطورها إلى حاجة البرجوازية إلى "شكل من التنظيم تتبناه لأهداف داخلية وخارجية، ويضمن ملكيتها ومصالحها". ويذهب ماركس إلى التأكيد أن أجهزة الدولة الحديثة ماهي إلا "لجنة لإدارة الشؤون العامة للبرجوازية كمجموع". وان السلطة السياسية "ليست إلا السلطة المنظمة لطبقة بهدف اخضاع طبقة أخرى". وأخيراً يلاحظ ماركس أن الدولة البرجوازية قد نشأت من صميم عملية داخلية مرتبطة بتطور حصل داخل المجتمع ولم يتم فرضها عليه. فهي، رغم انحيازها ودورها القمعي في حماية الملكية الخاصة، نتاج عضوي لمرحلة من التطور أفرزها تطور الرأسمالية.

هذه في الواقع هي فكرة ماركس الكلاسيكية عن الدولة، وهي فكرة تكررت في كتابات اتباع الفكر "الماركسي - اللينيني" فيما بعد. غير أن رالف ميليباند، أحد أبرز المتتبعين المعاصرين لتطور فكرة الدولة عند ماركس، يميل إلى اعتبارها الفكرة الأولية لماركس عن الدولة، ذلك انه يرى هناك فكرة ثانوية، تختلف جوهرياً عن الاولى، ولكنها لا تقل أهمية، قد تطورت من خلال معالجاته لأزمات سياسية محددة. وتتلخص هذه الفكرة في اعتبار الدولة جهازاً مستقلاً يعلو على الطبقات فتصبح القوة المهيمنة في المجتمع، لا مجرد أداة لخدمة مصالح الطبقة المهيمنة.

وقبل أن نوجز الشكل الأخير للدولة، من المفيد الإشارة إلى أن ماركس قد لاحظ، حتى ضمن فكرته الأولية التي استمدها من الأوضاع الخاصة بالبلدان الرأسمالية المتقدمة آنذاك، وعلى الأخص في انجلترا وفرنسا، انه ليس من المحتم أن تكون الدولة خاضعة لسيطرة مجموع الطبقة المهيمنة، بل قد تخضع لمصالح شريحة معينة منها. إضافة إلى ذلك، يؤكد ماركس أن اولئك الذين يديرون جهاز الدولة لا ينتمون دوماً إلى الطبقة المهيمنة اقتصادياً. وذلك، في رأيه، لا يغير كثيراً من الطبيعة الطبقية للدولة أو من دورها كحارس لحقوق ومصالح الملكية. لكن ميليباند يرى ان التأكيد على تلك الخصائص "يضفي

عنصراً من المرونة" على فكرة ماركس حول وظيفة الدولة وانحيازها، وخصوصاً ان ذلك ينطوي على احتمال نشوب منافسة بين شرائح الطبقة المهيمنة حول السيطرة على جهاز الدولة. وعند اشتداد تلك المنافسة تسنح الفرصة أمام تأثير طبقات أخرى من خارج الطبقة المهيمنة على البعض من السياسات التي تتبناها الدولة بشكل عام.

فالطبقات المتصارعة تصل أحياناً، في خضم تطورات اجتماعية وسياسية معينة، إلى درجة من الضعف أو من القوة تجعل من الصعب على طبقة واحدة الانفراد بسلطة الدولة وتوجيهها لخدمة مصالحها هي. في مثل هذه الحالة تكتسب الدولة دوراً مستقلاً وتنزع عن نفسها وظيفة الأداة لخدمة طبقة معينة وتثبيت سيطرتها.

تناول ماركس هذا الصنف من الدولة في تحليله لامبراطورية لويس نابليون بونابارت (١٨٥٢ ـ ١٨٧٠). فقد وصف طبيعة الحكم الذي ميز الامبراطورية بالقول انها تمثل "انتصاراً لبونابارت على البرلمان. أي للسلطة التنفيذية على السلطة التشريعية... وبالتالي فإن فرنسا قد تخلصت من استبدادية الطبقة لتقع تحت استبدادية الفرد"[٣]. في مثل هذه الحالة لاحظ ماركس ان السلطة البرجوازية وقوانينها يمكن أن تتطور لتشكل تهديداً لمصالح البرجوازية وسلطتها، فيصبح من الصعب عليها الحفاظ على النظام الاجتماعي البرجوازي. في هذا السياق كتب ماركس يقول؛ ان البرجوازية "تعترف بان مصالحها الخاصة تقتضي ان يتم انقاذها من حكمها؛ فمن أجل إعادة الهدوء إلى البلاد، يجب قبل كل شيء أن تخمد حركة برلمانها البرجوازي، ومن أجل الحفاظ على سلامة النظام الاجتماعي، يجب تحطيم سلطتها السياسية". غير ان ماركس يرى انه مهما كانت درجة استقلالية الدولة، وبصرف النظر عن تمثيلها المزعوم لكل فئات المجتمع، فإن وظيفتها الأساسية تبقى منصبّة، بالتحليل الأخير، على حماية النظام الاجتماعي القائم على أساس الملكية الخاصة. وعليه فإن الدولة البونبارتية في فرنسا قد جاءت عام ١٨٤٨ لدعم وحماية النظام الاجتماعي القائم على سيطرة رأس المال على العمل.

وأخيراً لقد ركز ماركس جل اهتمامه على دراسة المجتمع الرأسمالي في أوروبا، إلا انه خصص جزءاً من أعماله لدراسة المجتمعات التي سماها "مجتمعات نمط الانتاج الاسيوي". فقد وجد فيها صفة هامة هي غياب الملكية الخاصة للأرض. ففي هذا النمط من الانتاج لاحظ ماركس انه "ليس هناك ملكية خاصة بل حيازة شخصية" اذ ان المجتمع هو المالك الحقيقي". كما ان المنتجين المباشرين "لا يواجهون المالكين الخواص للأرض، بل، كما هو الحال في آسيا، يخضعون بشكل مباشر إلى الدولة التي تقف فوقهم باعتبارها المالك والسيد... وبالتالي فإن الدولة هنا هي المالك الأسمى[٤]. ويعزو معاركس هيمنة الدولة هنا إلى عوامل مادية مختلفة منها خصوصية الأحوال المناخية والجغرافية التي قد تتطلب قوة تفوق كثيراً قوة الطبقات القائمة تستطيع تنظيم الأعمال العامة بشكل مركزي وخصوصاً في المجتمعات الزراعية الاروائية.

تلك هي باختصار الجوانب الأساسية التي تشكل مااصطلح على تسميته فيما بعد نظرية ماركس

عن الدولة. ويبدو واضحاً من خلال هذا العرض ان في نظرته قدراً من المرونة يتجاوز بكثير اختزال دور الدولة إلى جهاز خاضع إلى الطبقة المهيمنة، ذلك الاختزال الذي غلب على أدبيات الفكر الاشتراكي بشكل عام.

الفكر الاشتراكي والدولة في مجتمعات مابعد الاستعمار:

لئن كان هناك إدراك وبحث لأهمية الجوانب الأخرى في آراء ماركس عن الدولة، وخصوصاً مايتعلق منها بنمط الانتاج الآسيوي على يد أفراد أو أكاديميين عموماً، إلا أن ذلك لم يجد انعكاسا يستحقه على الفهم العام للدولة في أدبيات الحركات والأحزاب الماركسية في مجتمعاتنا.

ومن ناحية أخرى لم تثر مسألة الدولة والخصوصيات التي ميز دورها في البناء الاقتصادي - الاجتماعي لمجتمعاتنا عن الدور الذي تلعبه نظيرتها في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة لم تثر نقاشاً بين الأوساط الأكاديمية والسياسية الماركسية حتى نهاية السبعينات.

لقد أتاحت "نظرية ماركس" عن الدولة امكانية واسعة لتعميق ادراك خصوصيات الدولة في مجتمعاتنا. ولكن أسباباً عديدة، لا يتسع المجال لذكرها، غيّبت عند الحركات الماركسية، والسياسية منها بوجه خاص، هذا الإدراك لأنها ظلت أسيرة نظرة فلسفية ضيقة وتبسيطية تنبع من اسقاط أوضاع البلدان الرأسمالية المتقدمة على واقعنا الاقتصادي - الاجتماعي تبعاً لتبسيط ستاليني للفلسفة الماركسية. فقد اعتبرت الدولة، أية دولة، مجرد أداة بيد الطبقة المهيمنة خاضعة لامرتها وملبية لمصالحها.

ولئن أخذت بعض الكتابات مايميز الدولة في مجتمعاتنا عنها في البلدان الرأسمالية المتقدمة من خصائص جوهرية، كظاهرة سيطرة الطغم العسكرية في مرحلة مابعد الاستعمار، ومايمثله ذلك من اختلاف جوهري عن منطلقات ماركس "الأولية" عن الدولة، فغالباً مافسر ذلك، في أحسن الأحوال، تفسيراً تبسيطياً يستند إلى موضوعة "التوازن الطبقي"، تفسيراً مفاده ان الطبقات المتصارعة قد اصبحت متساوية القوة بشكل يحتم نهوض الدولة بمهمة ادارة المجتمع بهذه الدرجة أو تلك من الاستقلالية عن تلك الطبقات.

وحتى في حالة هيمنة الطغم العسكرية على جهاز الدولة، أُضيفت على تلك الطغم صفة التمثيل الطبقي قسراً، اما على أساس انتماء عناصر عسكرية قائدة إلى هذه لطبقة أو تلك أو على أساس السياسات الاقتصادية والاجتماعية التي انتهجها تلك العناصر أو الطغم. وهذان التفسيران لهما من المرونة والمطاطية مايطلق العنان لشتى الآراء بشأن الدولة والطبقة أو الطبقات التي يمكن أن تمثلها.

فنجد في الواقع تواصيف متباينة ومتناقضة لطبيعة ولتمثيل الدولة في نفس المجتمع وفي آن واحد. فالبعض يعتبر الدولة ممثلة للبرجوازية الوطنية إذا مادخلت في صراع مع الغرب، أو كان قادتها عناصر جاءت على أنقاض الحكم الاستعماري، في حين يعتبرها البعض الآخر ممثلة للبرجوازية الصغيرة، إذا ماتبنت سياسات اعتبرت "جذرية" على صعيد الاقتصاد والمجتمع والعلاقات الخارجية.

لقد نجم عن ذلك كله قصور حقيقي وسطحية طاغية في الفهم الاشتراكي لطبيعة الدولة ولدورها

الخطير في مجتمعاتنا. وبالتالي غاب تشخيصها باعتبارها كياناً أهم بكثير مما جرى تصوره.

استقلالية ومركزية الدولة:

نظراً لعجز الفكر الاشتراكي في مجتمعاتنا عن تقديم إجابات معمقة على العديد من القضايا الأساسية وركونه إلى صيغ ومفاهيم جاهزة تعكس هيمنة الفكر السياسي السوفياتي الستاليني، لم يكن من قبيل الصدفة أن تشهد الجامعات الغربية وأقسام الدراسات التنموية فيها أولى المحاولات الجدية للوصول إلى فهم أعمق لطبيعة الدولة في مجتمعاتنا من الفهم التبسيطيّ الذي يتعكز على فكرة ماركس الأولية التي تعتبر الدولة أداة بيد الطبقة المهيمنة.

ان "مدرسة التبعية"، التي ركزت في مضمونها على ان فهم مجتمعات مابعد الاستعمار وآليات تطورها (أو تخلفها) ينبع بالأساس من ارتباط هذه المجتمعات لبرجوازية المركز (المتروبول) وتبعيتها لها، قد شكلت الإطار النظري لاولى محاولات دراسة الدولة بعيداً عن فكرة ماركس الأولية. ومن أهم هذه المحاولات دراسة حمزة علوي عام ١٩٧٢ بعنوان "الدولة في مجتمعات مابعد الاستعمار: الباكستان والهند"(٥).

حلل علوي الدولة في هذه الدراسة مجتمعاتنا وسلط، رغم استناده على واقع الهند والباكستان وأندونسيا، ضوء على أسباب استقلاليتها ومركزيتها. فهو يرى أن خواص الدولة هنا "نشأت أولاً من التغيرات البنيوية التي أفرزتها التجربة الاستعمارية والاصطفاف الطبقي، ومن مؤسسات البناء الفوقي السياسية والإدارية التي أقيمت في ذلك السياق، وكذلك من عملية إعادة اصطفاف جذرية للطبقات أفرزتها أوضاع مابعد الاستعمار". والى ذلك يرجع، حسب رأي علوي، اكتساب دولة المستعمرة منذ نشأتها بشكلها الحديث دور المهيمن على المجتمع ومؤسساته وطبقاته.

وتتجلى هيمنة الدولة أولاً في توليها مهام جديدة أملتها ضرورة ربط المستعمرات بالمركز أثناء الحكم الاستعماري، وهو مايسميه بـ"الثورة البرجوازية" في المستعمرات. فهو يقول:

"في معرض تنفيذ مهام الثورة البرجوازية في المستعمرة، وجب على برجوازية المركز انجاز مهمة اضافية كانت خاصة للحالة الاستعمارية. فمهمتها في المستعمرة لا تكمن في تكرار البناء الفوقي للدولة التي أنشأتها في بلد المركز نفسه، بل كان عليها، إضافة إلى ذلك، خلق جهاز تستطيع من خلاله أن تمارس الهيمنة على جميع الطبقات الاجتماعية المحلية. ويمكن القول ان "البناء الفوقي" للمستعمرة هو بالتالي "مفرط التطور" (overdeveloped) قياسا إلى "بنيتها"، وذلك لأن أساس هذا البناء يكمن في بنية المتروبول نفسها، التي انفصلت عنها فيما بعد"(٦).

ويرى علوي ان هذه الخاصية قد كانت وراء تمتع الدولة في البلد المستعمَر بجهاز بيروقراطي - عسكري قوي وبآليات للسلطة تمكنها عبر قيامها بعملياتها العادية من اخضاع الطبقات الاجتماعية المحلية.

وتظهر هذه الهيمنة ثانياً في طبيعة العملية الانتاجية التي نشأت مع الحاق المستعمرات بالمركز وماتبع ذلك من تطورات بعد الاستقلال. إذ يذكر علوي ان جهاز الدولة ينهض بدور اقتصادي مستقل نسبياً، ليس له مثيل في دولة البرجوازية الكلاسيكية عند ماركس فالدولة في مجتمعاتنا تستحوذ، بصورة مباشرة، على جزء كبير من الفائض الاقتصادي يمكنها، عبر توزيعه، من دعم استقلاليتها عن المجتمع ومؤسساته.

بسبب هذين العاملين اكتسبت الدولة في مجتمعاتنا قدراً كبيراً من المركزية والاستقلالية مكّنتها، في البلدان التي درسها علوي، من القيام "بدور الوسيط والحكَم بين الطبقات المتنازعة على الهيمنة"، وهي في الباكستان تتمثل في ثلاث طبقات هي: "برجوازية المتروبول والبرجوازية المحلية وطبقة ملاكي الأرض". في الوقت ذاته تنوب الدولة عن مصالح تلك الطبقات بحفاظها على النظام الاجتماعي القائم، الذي يجمع مصالحها المشتركة في تثبيت وحماية الملكية الخاصة وهيمنة نظام انتاجي محدد.

وقد نالت دراسة علوي اهتماماً أكاديمياً واسع النطاق تجلى في صدور دراسات مماثلة ساهمت في بلورة تحليل للدولة في العالم الثالث أكثر صلة بواقع مجتمعاتنا، انطلاقاً من الخصوصية التي أضفتها عملية دمج المستعمرات بالنظام الرأسمالي على جهاز الدولة في تلك المجتمعات(٧).

تتمثل هذه الخصوصية في ان الدولة في مجتمعاتنا تتمتع بسمة الاستقلالية والمركزية حيال المجتمع الذي فرضت عليه وحيال مؤسساته التقليدية، (أو مايندرج تحت مفهوم "المجتمع المدني" الذي بات استعماله شائعاً في الفترة الأخيرة). فهي ليست أداة بيد طبقة محددة أو مجموعة طبقات، وإنما هي قادرة، بسبب "تطورها المفرط" قياساً إلى البنية الاجتماعية، وبسبب الدور الاقتصادي المستقل الذي نهضت به، باعتبارها أكبر منتج ومستهلك للفائض الاقتصادي، وبسبب المهام الوطنية التي تولتها، قادرة على التأثير بشكل فعلي ومباشر في صياغة البنية الاجتماعية والاقتصادية وتوجهات تطورها.

غير انه، لأسباب قد تعود بالدرجة الاولى إلى الظرف التاريخي والسياسي الذي تمت فيه تلك الدراسات، فإنها غرقت من جديد في متاهة البحث عن التمثيل الطبقي للدولة انطلاقاً، هذه المرة، من أصول ومصالح وتوجهات الفئات السياسية التي تقود هذا الجهاز الحساس.

فقد ركزت غالبية الدراسات، انطلاقاً من مركزية واستقلالية الدولة، على ان النخب السياسية والبيروقراطية التي تشغل المراكز العليا من جهاز الدولة تتمتع، بفضل سيطرتها على هذا الجهاز وإدارتها له، باستقلالية مماثلة عن المجتمع، وبالتالي بقدرات غير محدودة على التأثير في مسار التطور اللاحق وفي توزيع الفائض الاقتصادي وتوجيهه. وبذلك أضفت هذه الدراسات على الدولة "تمثيلاً طبقياً غير مباشر" تبعاً لأصول النخب الحاكمة، أي بخلاف البلدان الرأسمالية المتقدمة حيث تمثل الدولة، بشكل مباشر، مصالح البرجوازية بصرف النظر عن هوية السلطة.

بتعبير آخر، إن الفئات الحاكمة، إذ تسيطر على جهاز الدولة وتهيمن على مجتمع مفكك البنية، ستكسب قوة الدولة، مما يجعل مهمتها تتجاوز عملية تسيير جهاز الدولة إلى أن توجه هذا التسيير لخدمة

مصالحها بالدرجة الاولى ومصالح الفئات الاجتماعية المرتبطة بها والتي تشكلت من بين أوساطها.

وتميل أغلب الدراسات إلى التأكيد ان أصول النخب السياسية والبيروقراطية الحاكمة تعود إلى الطبقات العليا والوسطى بفضل تمتعها بمزايا التعليم والمكانة الاجتماعية الضروريين لتسنم مهام إدارة الدولة. غير ان بعض الدراسات انطلق من نفس هذا التشخيص للاستنتاج بتعدد الخيارات الاجتماعية والاقتصادية أمام النخب الحاكمة، وهو ماشكل القاعدة التي بنيت عليها فكرة "التطور اللارأسمالي" التي شاعت خلال الستينات والسبعينات والتي علقت آمالها، على "اهتداء" الفئات الحاكمة إلى نهج طريق للتطور يقود إلى الاشتراكية.

الدولة والمجتمع: من يمثل الآخر؟

في أوروبا ارتبط تكون الدولة القومية (state - nation) الحديثة بتطور الرأسمالية، وذلك ضمن عملية ساهمت في أن تكتسب الدولة سماتها الحديثة مع مايرافقها من اشكال لممارسة سلطاتها. فقد أدى انتزاع الفلاحين من الأرض وانتقالهم إلى الصناعة إلى القضاء على المجتمعات الزراعية المبعثرة وما رافقها من اشكال التضامن داخل الجماعات. كما ساهم تراكم وتركز الثروات في تمركز سلطة الدولة واتساع نفوذها على حساب السلطات المحلية والاقليمية. وتطلب تطور الرأسمالية أيضاً بناء شبكات حديثة من البنية التحتية ساهمت بدورها في توحيد السوق وفي دعم وتوسيع نفوذ الدولة الحديثة.

غير ان ذلك كله اتخذ شكل تطور تدريجي انسجم مع تطور للقوى المنتجة وبلوغها مستويات أكثر تقدماً. أما في مجتمعاتنا فقد جاء نشوء الدولة الحديثة ضمن عوامل خارجية ودخيلة، كما أسلفنا. اذ قادت عملية الاستعمار وما أعقبها من تشكيل للأمم الحديثة الى قيام جهاز للدولة لم يكن نابعاً من داخل المجتمع بل مفروضاً عليه من قبل قوى وتأثيرات خارجية ويستمد قوته ويحافظ على وجوده بفضل دعم خارجي(٨). كما ان قيام الدولة هنا، وخلافاً للحالة في أوروبا، قد سبق، وساهم في، نشوء عمليات وتحولات اجتماعية كبيرة تمثلت في انطلاق حركة تمدين متعاظمة أفضت إلى اضعاف التشكيلات الاجتماعية القديمة، الريفية منها والمدنية، وفي خلق سوق حديثة للعمل، الامر الذي ضاعف من الامكانات المتاحة للدولة في التأثير المباشر على مؤسسات المجتمع.

وعليه فإن الدولة في مجتمعاتنا لا تحتفظ بنفس العلاقة القائمة بينها وبين المجتمع والسائدة في بلدان الرأسمالية المتقدمة. فهي نشأت بمعنى ما "متقدمة" بمراحل عن الحاجات الحقيقية للمجتمع وبناه الاجتماعية والانتاجية. وبذلك فهي تجابه المجتمع باعتباره نقيضاً لها محاولة القضاء على كل مايعترض فرض هيمنتها عليه أو كل مايشكل منافس لسطوتها وتغلغلها. وبصرف النظر عن التغيرات والتقلبات التي شهدتها مجتمعاتنا منذ بداية فترة الاستعمار، وعن بقاء أو زوال التبعية لدول المركز، فإن جوهر هذه العلاقة وطبيعتها لم يتغير، متمثلاً بسيادة الدولة على المجتمع وهيمنتها عليه.

فعند نشوئها، وجدت الدولة ان عليها أن تقوم بجميع مهام بناء المجتمع الحديث وثيق الصلة بالعالم الخارجي، وهي في الواقع مهام لم يكن التطور الطبيعي الداخلي قد أفرز حاجة لها، بل كانت الحاجة

تقع بالدرجة الاولى خارج مجتمعاتنا. فقد كان عليها أولاً تحديد معالم "شعب" تمت "لملمته" (أو تفتيته) بشكل اعتباطي في الغالب، خضع لاعتبارات ومصالح خارجية كثيرة. ويشمل ذلك رسم حدود مصطنعة وتأسيس جيوش للدفاع عنها وإقامة أطر إدارية وقانونية "حديثة" تواكب متطلبات إقامة "الدولة الوطنية" المستحدثة.

ويجري تغليف تلك المهام بغطاء ايديولوجي يستهدف لم شتات اجتماعية وانتاجية مبعثرة، مما يضفي الشرعية على الدولة كرمز للوحدة الوطنية الجديدة تقف فوق جميع الاعتبارات الأخرى. فإذا ماكانت الوظيفة الايديولوجية للدولة في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة قد تطورت ببطء شديد يتناسب مع تطور التشكيلات الاقتصادية في تلك المجتمعات، فإن تشكيل مجتمعاتنا الذي تم في الغالب ضمن حدود جغرافية مصطنعة ضمت كيانات لم تكن متجانسة قد أملى على الدولة ضرورة النهوض بدور ايديولوجي هام يتجاوز التقسيمات الاثنية والطائفية ويمنحها أهمية إضافية كقيّمة على "بناء الوطن" والتصدي لكل مايعترض هذا البناء من عقبات.

إلا ان الأهم من ذلك كله هو ماأفرزته ضرورة تثبيت أركان الدولة من مهمة حل وتفتيت وإعادة تنظيم البنى الاجتماعية القديمة، بمديات تختلف حسب اختلاف القدرات والوسائل التي بحوزة الدولة. وفي هذه العملية تبرز أهمية الدور الاقتصادي المهيمن الذي يأتي في العادة تحت شعار "التنمية الاقتصادية" لتصبح أكبر منتج ومستهلك وموزع للفائض الاقتصادي.

وضمن هذه المهمة تقوم الدولة ببناء قاعدة اقتصادية حديثة مرتبطة بالاقتصاد العالمي عن طريق استحواذها على الموارد الطبيعية التي تخلق السوق العالمية حاجة إليها أو بحصولها على المساعدات المالية الخارجية. ويؤدي ذلك إلى تهميش اشكال الانتاج التقليدية وما يرتبط بها من مؤسسات وفي ظهور قطاع حديث للانتاج، مع توسع تدريجي في ملكية الدولة اعتماداً على حجم الفائض تحت تصرفها.

ويأخذ توسع قطاع الدولة الاقتصادي في العادة شكل التأميم أو انشاء المصانع في قطاع الصناعة وتشريع الاصلاحات و"الثورات" في قطاع الزراعة وإقامة المرافق العامة في قطاع الخدمات. وسواء جرى تغليف تلك الاجراءات بخطاب سياسي وايديولوجي "اشتراكي" أو وصمت بأنها عملية تهدف أصلاً إلى إشاعة العلاقات الرأسمالية في الاقتصاد، فإنها في الواقع لا تعدو أن تكون انعكاساً لشكل علاقة الهيمنة بين الدولة الحديثة والمجتمع.

يمكن القول ان هذا الشكل من العلاقة كان القاسم المشترك للبلدان العربية، وإليه ترجع سمات مشتركة في تطور هذه البلدان منذ نشأتها. ولئن تموهت هذه السمات لبعض الوقت باختلاف في الطروحات الايديولوجية والمواقف السياسية والتمايز في اشكال ومسارات التطور الاقتصادي، فإنها تجمع مابين تجارب التطور في المجتمعات العربية أكثر مما تفرقها الاختلافات المذكورة، بل يمكن القول انه مهما بلغت حدة الفوارق في التطور الاقتصادي والاجتماعي في كل بلد أو مجموعة بلدان عربية، وبصرف النظر عن التفاوت السياسي والايديولوجي من أقصى يمينه حتى أقصى يساره، فإن المجتمعات العربية تمتلك

الآن، بسبب شكل العلاقة القائمة بين الدولة والمجتمع، سمات تطور اجتماعي واقتصادي وسياسي متشابهة وعامة لا تميزها سوى الاختلافات القائمة في أنظمة الحكم وخطابها السياسي والايديولوجي.

ويمكن اجمال تلك السمات المشتركة وما ترتب ويترتب عليها من نتائج تحت ظاهرتين طالما تم إهمالهما:

** استقلالية الدولة عن المجتمع وتناقض العلاقة بينهما:

تعني استقلالية الدولة هنا انها تستمد قوتها وشرعيتها ومواردها من خارج البنى الاجتماعية التي تحكمها. فالدولة هنا لم تنشأ استجابة لتطور ذاتي في المجتمع، أو لانقسام طبقي حصل داخله، بل تم اقحامها عليه لخدمة مصالح تقع خارجه. كما لم تعد هذه الدولة تعتمد على المجتمع ومؤسساته الانتاجية للحصول على مواردها المالية، بل ان هذه الايرادات قد أصبحت تنبع من مصدرين أساسيين: تصدير بعض المواد الأولية التي أوجد الاقتصاد العالمي الحديث سوقاً متسعة لها، والمساعدات الدولية التي تقدم إليها لأغراض مختلفة.

بالتالي، فبدلاً من اعتماد الدولة في مواردها على العملية الانتاجية التي تتم داخل المجتمع، أصبح المجتمع وبناه ومؤسساته معتمداً على الدولة، أي على ماستحوذ عليه وتوزعه من فائض اقتصادي، بل ان أي تغير حاد، زيادة أو نقصاناً، قد يطرأ على إيرادات الدولة أو طريقة توزيعها قد بات مصدراً لتغيرات وإعادة اصطفاف اجتماعية كبيرة.

لقد ترتب على استقلالية الدولة ان اكتسبت النخب السياسية التي تسيطر على جهاز الحكومة، أو الجهاز العصبي لصنع القرارات في الدولة، درجة موازية من استقلالية عن البنى الاقتصادية ـ الاجتماعية تمكنها من التحكم، بدرجة خطيرة، في توجهات التطور اللاحق. فسيطرة هذه النخب على جهاز متنفذ ومستقل، إلى حد كبير، عن المجتمع يمنحها درجة مماثلة من الاستقلالية عن الفئات والطبقات الاجتماعية. وغالبا ما يختلط الحديث، بعض الأحيان، عن الدولة بالحديث عن النظام أو النخب الحاكمة وذلك لتداخل الحدود بين الاثنين بسبب استقلالية كليهما عن المجتمع.

كما ترتب على استقلالية الدولة أن أصبحت علاقتها بالمجتمع تقوم على اخضاع الاخير والسيطرة على مؤسساته. وعليه فقد كانت هذه العلاقة منذ البداية متناقضة وعكسية، سارت في الغالب باتجاه واحد، وهو اتجاه تثبيت أركان الدولة ومد نطاق هيمنتها مقابل تفتيت البنى والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية القديمة وخلق بنى بديلة خاضعة إلى سيطرة الدولة. وبسبب فرضها على مجتمع "متخلف" عن مستوى وطبيعة المهام الموكلة اليها، فان بقاء الدولة وتحقيق مهامها مرتبطان في إعادة صياغة وقولبة البنى الاجتماعية والاقتصادية واخضاعها. ولهذا تتجه إلى القضاء على أي مصدر قد ينافسها في القوة، الأمر الذي يقتضي زحزحة وتهميش الوحدات والبنى الاجتماعية والاقتصادية المستقلة باتجاه جعلها أكثر خضوعاً لهيمنة الدولة وأكثر استعداداً لقبول التحكم في تطورها.

وفي سياق ذلك، واعتماداً على قوى خارجية، تتغلغل الدولة في جميع جوانب الاقتصاد والمجتمع

والدين والتعليم، وحتى العائلة، محاولة السيطرة على، بل واحتكار، المهام التي تنهض بها المؤسسات المستقلة عنها لتصبح مهمتها هي. كما تقوض شيئاً فشيئاً شرعية التشكيلات الاجتماعية التقليدية وتضعف دورها. حيث يتم تهميش الدور الذي كانت تلعبه المؤسسات الاجتماعية التقليدية من عشيرة وطائفة وحي أو اتحاد مهني لصالح التشكيلات الادارية والعسكرية والمؤسسات الجديدة التي يجري باستمرار انشاؤها مع توسع نفوذ الدولة.

وبفعل احتكارها لمصادر القوة والسلطة، تتجه الدولة، حيثما استطاعت، إلى الغاء تلك المؤسسات والاستعاضة عنها بأخرى تمثل امتداداً لسطوتها وهيمنتها. فهي تعارض أي نشاط مستقل عن إرادتها. وفي خضم هذه العملية تمسخ التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاعلامية ومؤسسات مثل النقابات والاتحادات والجمعيات المهنية والعمالية فتغدو أدوات لتكريس هيمنة الدولة، وتعتمد في وجودها على دعم الدولة. وهكذا استطاعت أن تضرب حصاراً على العمل السياسي المستقل لتنزع عنه إمكانية التأثير الحقيقي ولتفرغه من محتواه الايجابي.

ولئن اختلفت مديات واشكال تلك العلاقة، وما أفرزته من تناقض واصطدام وعنف، من مجتمع عربي إلى آخر ومن وقت إلى آخر، فإن ذلك يعود إلى اختلاف الظروف التاريخية لنشأة الدول وتجذر مؤسسات المجتمع الذي فُرضت عليه. كما يعود مدى تغلغل الدولة وامتداد نفوذها في مؤسسات المجتمع إلى درجة فعالية الأدوات المتاحة أمامها لدعم استقلاليتها عن المجتمع، وبالأخص أداة التحكم بالفائض الاقتصادي. ويعود أيضاً إلى قوة وتجذر مؤسسات المجتمع وامكانية مجابهتها لتدخل الدولة الحديثة وسطوتها. ومع ان شكل العلاقة المذكور هو شكل واحد في أغلب المجتمعات العربية، النفطية منها وغير النفطية، فإن تصرف الدولة بقدر أكبر من الفائض الاقتصادي يجعلها أكثر قدرة على توسيع نطاق هيمنتها على مؤسسات المجتمع وخلال فترة أقصر.

وفي هذا الصدد، فإن بعض البلدان العربية، والخليجية منها بشكل خاص، لم تكن، على الضد مما هو شائع، تختلف في الجوهر عن البلدان "الثورية" من زاوية هيمنة الدولة على مؤسسات المجتمع، رغم اعتبار الاولى من البلدان ذات التطور الاقتصادي والاجتماعي المحافظ (أو حتى الرجعي)، وذلك اعتماداً على ماانتهجته من سياسات اقتصادية تتيح هامشاً أكبر للنشاط الخاص وتنطوي على قدر أكبر من الانفتاح على الاقتصاد العالمي.

وإذا ماسارت العلاقة بين الدولة والمجتمع باتجاه تقليص نفوذ الدولة لصالح مؤسسات من خارجها، اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية، مثلما هو جارٍ الآن وبوتائر متفاوتة في بعض البلدان العربية، فإن ذلك هو نتيجة دخول هيمنة الدولة مرحلة الأزمة، أو تعبير عن بداية عجزها، لأسباب أهمها اقتصادية، عن مواكبة وتحمل أعباء أفرزتها علاقتها بالمجتمع. وتنعكس هذه الأزمة بتزايد ضرورة تحجيم سيطرة الدولة على العديد من المجالات والدعوة إلى تقليصها، تحت صيغ وشعارات مثل "إشاعة الحريات السياسية والاقتصادية"، أو "تحسين مستويات الكفاءة" أو "التخصيص" (Privatisation).

وقد يتخذ تأزم العلاقة بين الدولة والمجتمع شكل الصراع والمجابهة المباشرة، والتصدع الحاد في شرعية الدولة واستمرار هيمنتها، والتدهور السريع في قدرة النظام السياسي على مواصلة الحكم، فيتخذ انفجار الأزمة شكل "ثورات شعبية" تستهدف الإطاحة بالسلطة واستبدالها بأخرى من "صفوف الجماهير". ولا تقتصر تلك الثورات على مهاجمة رموز الدولة السياسية بل تمتد إلى جميع المظاهر التي تعكس هيمنة وجبروت الدولة، بما في ذلك الممتلكات العامة.

وبسبب وهن مؤسسات المجتمع المدني كنقيض مباشر للدولة ولسيطرتها، وذلك بعد عقود من التفتت ومن الاخضاع، وفي ظل غياب الوعي بحقيقة ان الشكل الذي اتخذته العلاقة بين الدولة والمجتمع هو السبب الرئيسي وراء ماآلت إليه تلك المجتمعات من أوضاع، فإن تلك "الثورات" سرعان ماتؤول إلى استبدال نظام حكم بآخر مع ثبات جوهر العلاقة بين الدولة والمجتمع. إذ ستمارس السلطة الجديدة، بهدف تثبيت أركانها، ذات الصيغ والآليات السابقة النابعة من قوة الدولة الاقتصادية وجبروت أجهزتها العسكرية والمدنية أساساً، وذلك رغم تبدل الخطاب الايديولوجي والسياسي أو السياسات الاقتصادية والاجتماعية المعتمدة.

** خضوع البنى الاجتماعية إلى الدولة:

لم يقتصر دور الدولة على تفتيت البنى القديمة وإزاحة مارافقها من طبقات وفئات اجتماعية فقط، بل امتد إلى خلق فئات جديدة، كانت في الغالب صنيعة ونتاجاً لهيمنة الدولة، أو انها، وفي أحسن الأحوال، قد كيفت أوضاعها واعتمدت على الفائض الذي توزعه الدولة.

وقد لعبت عوامل، مثل الولاء السياسي والروابط العائلية والعشائرية مع النخب الحاكمة دوراً هاماً في خلق الفئات المستفيدة وتمكينها من الاستحواذ على جزء كبير من الفائض الاقتصادي الذي توزعه الدولة. إن جهود الدولة لاخضاع المجتمع ومؤسساته لهيمنتها، وما يعترض ذلك من صعوبات تتفاقم مع تسارع حدة العمليات الاجتماعية المصاحبة لتشكيل الأمم الحديثة، تؤدي إلى غياب الاستقرار السياسي والاجتماعي. وهذا يدفع النخب الحاكمة للبحث باستمرار عن وسائل تثبيت مواقعها في قيادة جهاز الدولة. ويتجلى هذا في تشكيل شبكات للولاء ونمو فئات جديدة تعتمد على الدولة ويتوسع نفوذها باتساع هيمنة الدولة.

ويعني ذلك ان الفئات الاجتماعية الجديدة تدين بوجودها إلى جوهر العلاقة بين الدولة والمجتمع، أي إلى هيمنة الدولة على المجتمع. فهي نتاج سيطرة الدولة على الفائض الاقتصادي واشكال توزيعه. وبقدر مااستهدفت اشكال توزيع الفائض تثبيت هيمنة الدولة وترسيخ قبضة السلطة السياسية، فانها افضت الى تبلور الفئات المرتبطة بجهاز الدولة والمعتمدة عليها. بعبارة أخرى، لم تنبثق تلك الفئات من علاقاتها بوسائل الانتاج، بل كانت نتاجاً لقربها من السلطة ولموقعها في شبكات الولاء.

وتختلف أنشطة هذه الفئات عن سابقتها التي همشها توسع هيمنة الدولة. فهي تعتمد في تراكمها على امتداد القطاع العام وزيادة انفاقه. كما تتميز بالحركة والانتقال من مجال إلى آخر حسب حاجات

قطاعات الدولة، ولكنها تتركز بالأساس في مجالات المقاولات والتجارة الداخلية والخارجية، لما تدره من أرباح سريعة ومضمونة لا يتطلب تحقيقها سوى القرب من النخب السياسية الحاكمة.

غير ان خلق تلك الفئات، التي جرى وصفها بالبيروقراطية والطفيلية، لا يعني ان الدولة قد اصبحت ممثلة لها أو أداة طيعة بيدها، حتى إذا مالبث سياسات الدولة مصالح تلك الفئات، وحتى اذا ما تمازجت هذه الفئات مع النخب السياسية الحاكمة. إذ يمكن القول ان الطبقات، في ظل علاقة مثل هذه، هي التي تخضع إلى هيمنة الدولة. فكثيراً ماقادت قرارات سياسية إلى تغيير جذري في موازين القوى الاجتماعية والاقتصادية. ومن هذه الزاوية يمكن النظر إلى اجراءات التأميم أو اجراء التحول إلى القطاع الخاص باعتبارها انطلقت من مقتضيات حاجة الدولة والنخب الحاكمة إلى تعزيز مواقعها.

خاتمة:

لعل اهمال هاتين الظاهرتين من أهم عوامل الخلط الكبير في العديد من التفسيرات المنطلقة من القناعة المسبقة بان الدولة أداة بيد الطبقات المهيمنة، فأخذت تنقب عن "طبقات اجتماعية" هي في حقيقة الأمر عرضية وغير مؤثرة بالشكل الذي تم تصويره. وقد دأبت هذه التفسيرات على اعتبار كل خطوة تقدم عليها الدولة انعكاساً لمصالح طبقية معينة بالضرورة. وعلى أساس ذلك بالغت تلك التفسيرات في تقييم طبيعة الدولة اعتماداً على طبيعة مالرتأته من فئات مستفيدة، كالقول ان الدولة هي دولة البرجوازية الوطنية أو الصغيرة أو البرجوازية البيروقراطية أو الطفيلية... الخ، اعتماداً على توافق سياسات الدولة مع مصالح هذه أو تلك.

مقابل ذلك يمكن القول ان فهماً أقرب لواقع الدولة في مجتمعات مابعد الاستعمار وتوجهاتها والسياسات التي تتبعها لا ينطلق من مصالح الطبقات، التي لم تكن سوى نتاج لتوسع هيمنة الدولة، بل من ادراك واقع السيطرة التي تفرضها الدولة على المجتمع وصياغتها له. فقد أعاقت العلاقة بين الدولة والمجتمع من ظهور وتبلور طبقات اجتماعية تتحدد طبيعة مصالحها حسب الموقع من ملكية وسائل الانتاج، بل، على العكس من ذلك، افضت هذه العلاقة إلى تشويه البنية الطبقية وماقد يرافقها من علاقات أو تضامنات.

كما مرت علاقة الدولة مع الطبقات والفئات الاجتماعية والمصالح الطبقية بتغيرات وانعطافات حادة لم تأت استجابة لمصالح محددة أملتها الفئات الاجتماعية المستفيدة بقدر ماكانت إفرازاً لتوسع دور الدولة في المجتمع. أي ان خلق الفئات المستفيدة لم يأت بسبب تمثيل الدولة لها، بل كان تعبيراً عن توسع الدولة أولاً، وعن استئثار النخب الحاكمة ومواليها بجزء كبير من الفائض الاقتصادي ثانياً. فمن غير الممكن إذن أن تكون الدولة أداة بيد فئات كانت هي المسؤولة عن خلقها وصعودها، وهي القادرة على تدميرها وإزاحتها حينما يقتضي تثبيت هيمنتها ذلك. غير ان ذلك لا يعني ان الدولة والنخب الحاكمة متحررة بالكامل من تأثير الفئات والطبقات الاجتماعية القائمة. على العكس من ذلك، تبقى شرعية الدولة، وقدرة النخب الحاكمة على البقاء، مرهونتين بمدى خدمة تلك المصالح. ولكن ذلك لا

يفترض بدوره أن تكون الدولة تابعة وممثلة لهذه المصالح بل هي، في كثير من الحالات، خالقة لها.

كذلك لم تنهض الدولة في مجتمعاتنا بدور الوسيط بين الطبقات المهيمنة بعد أن أفضت هيمنتها إلى تهميش وتدمير الفئات القديمة المتمثلة بملاكي الأرض والصناعيين مقابل خلق فئات جديدة على انقاضها تختلف عنها سواء في أصولها الاجتماعية أو في طبيعة أنشطتها. فقد أظهرت تجارب الانفتاح التي تمت في عدد من البلدان العربية ان الفئات المستفيدة لم تنبع من صفوف القديمة دوماً بل كانت تدين في نموها إلى تغلغل الدولة في الاقتصاد وإلى قربها من النخب الحاكمة.

وعلى ضوء ذلك يمكن الكلام إذن عن تداخل الحدود، كبديل عن الصراع، بين مصالح "الطبقات" والفئات التي اعتبرتها التفسيرات التقليدية متعارضة وعدائية. إذ قد تجد الفئات الاجتماعية، عدا تلك المستفيدة من هيمنة الدولة، ان مايجمع بين مصالحها في الوقوف بوجه الدولة هو أهم بكثير مما يولده التصارع على الفائض الاقتصادي. كما قد تجد أيضاً ان تقويض استقلالية ومصالح فئات مالكة لوسائل الانتاج من قبل الدولة لا يخدم بالضرورة مصالح الفئات غير المالكة بقدر ماينبع من حاجة الدولة إلى القضاء على أي مصدر قد يعارض هيمنتها. من هنا فإن افتراض العداء الطبقي والصراع بين الطبقات الاجتماعية قد لا يساعد في تشخيص الحالة الراهنة لمجتمعاتنا في ظل هيمنة الدولة والتشوهات الطبقية التي تفرزها.

من جهة أخرى، فإن مصادرة الدولة لاستقلالية مؤسسات المجتمع وتهميشها لفئاته واحتكارها لأهم مصادر السلطة والثروة قد أفضى إلى اضعاف الأحزاب والمنظمات السياسية المستقلة وصولاً إلى تحريم نشاطها واحتكار ساحة العمل السياسي من قبل الدولة. وقد رافق ذلك أيضاً تضاؤل في قدرة المجتمع على بلورة مؤسسات مستقلة تستطيع مجابهة الدولة. وهذا يعني تقويض والغاء المؤسسات الديمقراطية في المجتمع، بل وانتفاء الحاجة إليها بعد أن قضت الدولة شيئاً فشيئاً على القوى والمراكز ذات المصلحة بقيام واستمرار هذه المؤسسات. فبدلاً من البرلمان وسيادة القانون لتنظيم العلاقة بين الدولة والمجتمع يصبح الاغراء والترغيب بالمنح والعطايا، من جهة، واستخدام العنف ومصادرة الحريات، من جهة أخرى، أهم أساليب تعامل الدولة مع المجتمع. وفي ظل هذه الأوضاع، تستحوذ النخب الحاكمة على صلاحيات مطلقة ليس لها حسيب في إدارة المجتمع وتوجيه موارده بالقوة. كما يصبح بقاؤها في الحكم وضمان الولاء لها المحرك الأساسي للسياسات والخطوات التي تتبعها.

أخيراً وأمام التأزم الراهن في العلاقة بين الدولة والمجتمع في عدد من البلدان، بسبب عجز الدولة عن تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية وعن حل العديد من القضايا المعلقة، فقد تجد بعض الدول أن عليها، خصوصاً في ظل انحسار الموارد، إزاحة شيء من العبء عن كاهلها بالتخلص من إدارة بعض المؤسسات الاقتصادية في عدد من القطاعات. وقد يأتي ذلك ضمن استراتيجية تزعم إشاعة الحريات العامة، السياسية منها والاقتصادية، تنعكس في إفساح هامش أكبر أمام القطاع الاقتصادي الخاص وفي تحويل ملكية بعض مؤسسات الدولة وبيعها إلى القطاع الخاص. كما قد يرافقه اطلاق قدر من الحريات السياسية ومنح هامش أوسع للعمل أمام المؤسسات غير الحكومية والتنظيمات والاتحادات النقابية والمهنية.

رغم أهمية مثل هذه التطورات، إلا أن من السابق لأوانه التفاؤل بأن تحولاً حقيقياً قد طرأ أو يطرأ على جوهر العلاقة بين الدولة والمجتمع باتجاه تقليص هيمنة الدولة وإرساء أسس مجتمع مدني ناضج. فبالدرجة الاولى، لم تنبع هذه التطورات، على اختلاف مداها بين بلد وآخر، من قوة مؤسسات المجتمع وقدرتها على ممارسة تأثير يحد من هيمنة الدولة، بل جاءت انطلاقاً من مصالح النخب الحاكمة نفسها وحاجتها إلى نهج سياسات جديدة تأخذ بنظر الاعتبار القدرات المتاحة أمامها. إضافة إلى ذلك فإن الكيانات التي يشار إليها كمؤسسات للمجتمع المدني، بسبب كونها كيانات غير حكومية، وعلى الأخص منها التنظيمات السياسية .والجمعيات المهنية، ماتزال ضعيفة بنيوياً، بحكم نشأتها ضمن علاقة الهيمنة المذكورة. فهي لاتزال تعتمد في استمرارها على الدولة أو تمثل ساحة للصراع السياسي بين النخب الحاكمة ومنافسيها، ولم تمثل بعد قوة واعية تجابه سطوة الدولة وتغلغلها في المجتمع.

إن احداث تغير جذري في صيغة التعامل بين الدولة والمجتمع وصولاً إلى تحقيق الديمقراطية والتنمية الاقتصادية الحقيقية التي تضمن مصالح الكادحين والفئات المنتجة هو في الواقع مرهون بقيام وتطور تنظيمات ومؤسسات اقتصادية واجتماعية وسياسية مستقلة عن الدولة ومتحررة من سيطرتها وتعي ان مصلحتها الأساسية تكمن في اشاعة حرية العمل والتنافس، وتمارس أنشطتها على هذا الأساس. ويستلزم ذلك بالمقام الأول توسيع مساحة أي عمل أو نشاط خارج هيمنة الدولة، وعلى رأسه حرية النشاط الاقتصادي الخاص، وذلك ضمن ضوابط دائمة تقلص دور الدولة الاقتصادي إلى تنظيم التنافس والتحفيز للنشاط المنتج. إذ سيشكل ذلك أساساً مادياً ليس فقط لنشوء تنظيمات وجمعيات متعددة الأغراض تهدف تلبية مصالح متنوعة، بل ولاشاعة معايير للتعامل تتحمل، ان لم تقبل، وجود الآخر وتفترض الالتزام بحل الخلافات بطرق سلمية. ففي ظل هذه الحالة سيؤدي وجود المصالح المتنافسة أو حتى المتنازعة داخل المجتمع إلى تطور أسلوب للحكم يعتمد تدريجياً على المشاركة أو الديمقراطية بدلاً من الاحتكار والدكتاتورية.

هوامش:

(١) انظر: Miliband, R,. Class Power and State Power, Verso, London, 1988 Chapter One, PP 25-1, Carnoy, M,. The State and Political Theory, Princeton University Press, New Jersey1984, P, 45.

(٢)Marx. K. and Engels, F,. Selected Works, Progress Publishers1969, Voll,. PP 4-503. Marx, K,. The Eighteen Brumaire of Louis Napoleon Bonapart, International Publishers, New York 1972.

(٤) Miliband، مصدر سابق.

(٥)Alavi, H,. "The State in Post - Colonial Societies: Pakistan and Bangladesh, "The New Left Review, No 74 ,.July - August 1972 .

(٦) نفس المصدر

(٧) انظر على سبيل المثال:

Saul, J. "The State in Post - Colonial Socities, Tanzania" The Socialist register 1974 .

Zeiman, W. and Lanzendorfer, M,. "The State in Peripheral Socities, "The Socialist Register 1977.

Leys, C,. "The Overdeveloped" Post - Colonial State: A Re-Evaluation" Review of African Political Economy, 1976 (5).

Frehold, M,. "The Post - Colonial State and its Tanzanian Version, "Review of African Political Economy 1977 (8).

(٨) في كتاب "العراق منذ عام ١٩٥٨ : من الثورة إلى الدكتاتورية"، كتب الباحثان ماريون وبيتر سلغليت، يقولان:

"أنشئت الدولة العراقية (من الأعلى) ضمن التسوية السلمية التي تمت بعد الحرب العالمية الاولى. فالمبادىء التي على أساسها نُظمت الدولة قد استوردت من بريطانيا. كما تم توجيه البنية الجديدة بصورة أساسية لتأمين حماية وتحقيق مصالح بريطانيا ومعها الملكية".

Farouk - Sluglett, M,. and Sluglett, P,. Iraq Since 1958: From Revolution to Dictatorship. Kegan Paul Int,. London 1987 , P,216.

المجتمع المدني في العراق بين ١٩٢١ - ١٩٣١

ماريون فاروق سلكليت

اثار انهيار الاتحاد السوفيتي والانظمة المرتبطة به خلال الثمانينات، واشتداد ضعف انظمة التسلط والدكتاتورية العسكرية في بلدان عديدة من العالم الثالث، اثار بين المختصين بالعلوم السياسية نقاشا حاميا، رغم انه مبعثر، وذلك حول امكانية نشوء انظمة اقرب الى الديمقراطية على انقاض تلك الانظمة في المستقبل. وسواء في العالم العربي، ام في مناطق اخرى، فان تلك الانظمة قد ظهرت في اوقات مختلفة، وفي ظروف اقليمية وعالمية شديدة الاختلاف. زد على ذلك ان العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتجاربها مع السيطرة الاجنبية والكولونيالية ومع الاستقلال هي عواقب شديدة التباين من حيث الزمن والامتداد.

وعليه، رغم ان بين تلك الانظمة سمات مشتركة، فان البنى المؤسسية والاسس الاجتماعية، والصلات الخارجية للبلدان المعنية تختلف اختلافا كبيرا، وهي نتاج لعمليات تاريخية معقدة وملموسة لا يمكن تعميمها، لكن نظرة سريعة الى اي من هذه البلدان تكشف بجلاء ان عمليات بناء الدولة فيها، شأن مثيلاتها في تاريخ اوربا، هي عمليات تتميز بتنوع الخلاف والصراع بين مختلف المصالح الاجتماعية والسياسية للجماعات من اجل الاستحواذ على سلطة الدولة وكذلك من اجل تحديد طبيعة النظام السياسي للدولة.

منذ نشوء دول الشرق الاوسط العربية، فان العمليات الاجتماعية او الصراعات بين مختلف

جماعات المصالح تشكلت وتأثرت بمساعي الدول الاجنبية (بريطانيا وفرنسا اول الامر ومن ثم الولايات المتحدة) الرامية الى بقاء وادامة سيطرتها ونفوذهاعلى هذه الدول. وباستثناء اليمن الشمالي، ليس هناك دولة من هذه الدول لم تعان من التدخل الخارجي في عملية بناء الدولة، للهيمنة على سلطتها وطريقة تطور نظامها السياسي. واذ اؤكد ذلك، فلست ارمي الى توجيه الاهتمام فقط الى ما لهذه العلاقة من طابع واضح الاجحاف والاستغلال، بل كذلك الى تاكيد ان عملية بناء الدولة في هذه البلدان، تحت وصاية او "ارشاد" الغرب، قد جرت على حساب تطور المؤسسات الليبرالية والديمقراطية.

ومع ذلك، لا يمكن الزعم ان بنى الدولة التي اقيمت انما هي مصطنعة تماما او تفتقر كليا الى اسس محلية الاصل.ومن جهة اخرى، لم تتطور هذه الدول تطورا "طبيعيا"من عمليات محلية للصراع او من التنافس الحر بين القوى الاجتماعية والسياسية المحلية. فمن الواضح ان الظروف التي تشكلت في ظلها هذه الدول ومؤسساتها في اعقاب الحرب العالمية الاولى قد اثرت، في التحليل الاخير، تاثيرا جوهريا على تطور الحياة السياسية والمجتمع، وبالتالي على العلاقة الحالية بين الدولة والمجتمع في بلدان الشرق الاوسط العربية. فضلا عن ذلك، وكما هي الحالة في عملية بناء الدولة الحديثة، فان اقامة مؤسسات الادارة المركزية بحد ذاتها، مقرونة بتحديث البنى التحتية وشبكات المواصلات، وتطور مؤسسات حفظ القانون والنظام (اي وسائل الدولة للقهر) قد اثرت على الحياة برمتها. وبمضي الوقت، ابتلعت الدولة الجديدة او ضربت حصارا شديدا على اغلب المؤسسات والاشكال المستقلة للتعبير الاصيل عن الرأي التي يمكنها ان تمارس بعض التاثير على القرارات الحكومية، مثل نقابات الحرف، والمساجد، والاعيان، والاحياء، بالاضافة الى الاشكال الحديثة، كالاجزاب والصحافة. وبالنتيجة فقد تضا ءل بصورة متزايدة المجال السياسي للتعبير عن الراي المستقل القادر على التاثير في عملية صنع القرار. وفي الآونة الاخيرة، خنقت جميع وسائل التعبير هذه بلا هوادة في اغلب الدول العربية.

وعليه، فليس ثمة مبالغة في القول ان الطابع التسلطي لكثير من دول الشرق الاوسط لا يمكن اعتباره عميق التجذر في ماض اصيل، سواء كان "عربيا" ام "اسلاميا"، وكذلك لان هذه الدول هي، الى حد كبير، نتاج ماض غير بعيد، ماض بوسعي القول انه "علماني" لا جدال فيه. ورغم ذلك، تميل تحليلات عديدة للمجتمع العربي المعاصر الى المبالغة في اعتبار العوامل الثقافية، والاثنية، والدينية عوامل حاسمة في خلق المسارات الخاصة للتطور السياسي في المنطقة: ان مثل هذه التأويلات "الثقافوية" للعالم العربي المعاصر لا تصدر عن "المستشرقين" الغربيين فقط بل كذلك عن بعض الكتاب العرب المعاصرين. فعلى سبيل المثال يتحدث مصطفى السيد، في بحث عن مصر يتميز بحسن الادراك في غالبه، وذلك في فصل عن "الدولة والمجتمع في عهد مبارك"يقول فيه "ان الدولة المصرية، جريا على تقاليد السلطة المركزية منذ خمسة آلاف سنة، لا تريد السماح بحياة منظمة بلا قيود"،[١] وثمة من زعم ان الاحزاب والايديولوجيات السياسية في المنطقة ليست سوى الاعيب يمارسها المثقفون (ان لم تكن ستارا لا يموه الا قليلا مصالح اثنية وغيرها من المصالح الضيقة)" وهي لا تعني وبعيدة عن "تفكير ومصالح ا غلبية الشعب الذي يمثل الاسلام مصدره الاصيل الوحيد للتفكير والثقافة الشعبيين".[٢]

زد على ذلك، مما يميز الكثير من المؤلفات الاخيرة حول امكانيات قيام انظمة اقرب الى الديمقراطية في المنطقة هو الميل لاعتبار الظروف الحالية "معطاة" وليس حصيلة عملية تاريخية مديدة ومعقدة. فالبحوث الراهنة حول الدور الممكن للمجتمع المدني، بل حتى وجوده، في الشرق الاوسط، نادرا ما تتطرق بصورة وافية الى الطريقة التي ظهرت بها تلك الانظمة السياسية. وتميل هذه البحوث الى تجاهل القوى والسياقات الاجتماعية- الاقتصادية، والسياسية والدولية التي كانت وما زالت عوامل رئيسية في تحديد الشكل الحالي لتلك الانظمة. وقد يحاجج البعض بان الغاية الرئيسية لمثل هذه البحوث هي تتبع السبل الفعلية والممكنة لاقامة انظمة سياسية اقل ارهابا واستبدادا، ولذلك ليس لطريقة وظروف قيام تلك الانظمة سوى اهمية ثانوية. ولكن مثل هذه المقاربة "البرغماتية" تميل، لسوء الحظ، الى التأويلات "الثقافوية" و "الاستشراقية" و "الحتمية-الاجتماعية"للمجتمع والحياة السياسية العربية، وهي تميل، دونما قصد في كثير من الاحيان، الى ادامة النظرة الخاطئة الى العالم العربي باعتباره عالما "شاذا" من حيث الاساس، تتحكم فيه عوامل تختلف كليا عن تلك التي تفعل فعلها في المناطق الاخرى.

وفيما يخص العراق، قد لا يكون من المجدي ان يحاول المرء تقدير الامكانات الراهنة لتطوير او بعث المجتمع المدني من جديد. فقبل كل شئ لم تجر دراسة ميدانية جادة حول اي جانب من جوانب المجتمع العراقي منذ اوائل السبعينات (وربما منذ اواخر الخمسينات) وليس ثمة افق لتلافي هذا القصور. ثانيا، تزداد المهمة تعقيدا بفعل التدمير الذي تعرض اليه هذا البلد نتيجة للحرب مع ايران وغزو الكويت، بالاضافة الى الخراب الناجم عن نظام وحشي القمع. حسبنا القول ان حكومة العراق قد حطمت او احتوت واخضعت بالتدريج، منذ اواسط السبعينات، جميع المنظمات المستقلة وحولتها الى ادوات لسطوة الدولة. فحتى تلك المجالات التي كانت تعتبر بعيدة عن يد الدولة، مثل شتى المؤسسات الاسلامية، لم تسلم من رقابة النظام. فقد استخدم بعض "الاسلاميين" المستعدين للتعاون معه كواجهة متى ارتأى جدوى في ارتداء مسوح الاسلام فقد قام بخنق وازالة كل مراكز المعارضة الفعلية والمحتملة، الى حد ربما يفوق ما جرى في اي بلد عربي آخر. فلم يبق مجالا لتطور بنى تتمتع بشئ من الاستقلال، كالتي نجدها في بلدان عربية اخرى[٥]. وعليه، تفاديا لشتى مزاعم الحتمية، التي اشرت اليها، قررت م عاينة بعض جوانب المجتمع المدني في العراق خلال السنوات الاولى لبناء دولته المعاصرة.

المجتمع المدني في العراق في زمن الاحتلال البريطاني

خلال السنوات الاخيرة تولد عن فكرة "المجتمع المدني" كتابات غنية ولكنها مبعثرة. غير ان هذه الكتابات هي محاولات لتطوير وتفسير مفهوم المجتمع المدني ضمن السياق الفلسفي والتاريخي الاوربي او الغربي، وهي تثير اسئلة اساسية في المجتمعات الغربية او الاوربية المتقدمة، لذلك يصعب اسقاط نموذج او اطار مفيد لتحليل جوانب المجتمع المدني في العالم الثالث. وهنا يبدو التعريف الذي صاغه (ادوارد شيل) شاملا ومباشرا بما يكفي لتطبيقه بصورة عامة:

"ان فكرة المجتمع المدني تعني ان قسما من المجتمع له حياته الخاصة التي تختلف اختلافا جليا عن الدولة، وهو مستقل عنها الى حد بعيد".

وحسب تعريف شيل هذا، فان للمجتمع المدني ثلاثة مكونات. اولها، قسم من المجتمع يتألف من مؤسسات (اقتصادية، دينية، ثقافية، وسياسية) يمكن تمييزها عن الاسرة، العشيرة، المنطقة، والدولة. والثاني يتألف من علاقات معقدة خاصة بين المجتمع والدولة ومجموعة متميزة من المؤسسات التي تحمي وتحافظ على الفصل بين الدولة والمجتمع المدني، وتبقي روابط فعالة بينهما. اما الثالث فهو نمط واسع من السلوك المهذب او المتمدن.[٣]

واذا عاينا العراق في اوائل القرن العشرين حسب هذه المعايير، فانه كان، كما يبدو، ذا "مجتمع مدني" حيوي قادر على تاكيد نفسه والصمود في وجه التحديات رغم ان الرأسمالية لم تكن الا في اوائل مراحل تطورها. ومهما كان قصور الدولة الجديدة، التي اقيمت بعد الحرب العالمية الاولى، فان وجودها، بحد ذاته، قد خلق مجالا متميزا للنشاطات العامة القادرة على التأثير على عملية صنع القرار السياسي وعلى بناء الدولة بالذات. وكانت هذه النشاطات تميل الى الاستناد على الجماعات والتمركز في البلدات والمدن، وكانت "السياسة التي يمارسها الاعيان" و "السياسة التي تمارسها الاحزاب الاقرب الى الاستناد الى قاعدة ايديولوجية" سياسات متداخلة وغير متمايزة بعد. وعلى ذلك لم يكن المجتمع المدني في تلك السنوات المبكرة قد "تلاشى وراء ظهر الدولة"[٤] اذا شئنا استعارة الكلمات التي استخدمها (تورين) في سياق آخر، بل كان ذلك المجتمع ماثلا للعيان في نطاق "الجماعات المحلية" وكذلك في الاطر المنظمة "الاحدث". وعملت طبقتا المتعلمين والمهنيين المتوسطتان وافراد من "البرجوازية" مثل محمد حديد وكامل الجادرجي من اجل اقامة مؤسسات اكثر تحررا وديمقراطية، فكان ت توجهاتهم السياسية تقدمية في الغالب وتنطوي على افكار اشتراكية-ديمقراطية حول اصلاح التعليم، والرعاية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية.

ومنذ البداية كان واضحا ان بناء نظام تمثيلي (نيابي) اصيل، او اصلاح البرلمان سيكون لصالح القوى الاكثر تحررا وديمقراطية، ولذلك كان من المنطقي ان ترفض بريطانيا وحلفاؤها المحليون تلبية المطامح "العادلة" للمعارضة وان تقطع الطريق على اية محاولة جادة لاقامة دولة ديمقراطية ومتحررة حقا.ومع ذلك، فان الطابع غير التمثيلي وغير الديمقراطي للدولة العراقية، لم يؤد الى الغاء المجتمع المدني كليا. فالدولة الجديدة كانت في ايادي مجموعة تفتقر جدا الى التجانس وتنحدر من الفئات العليا للمجتمع، واذا استثنينا بعض كبار الضباط، فان المجموعة الحاكمة لم تكن جسما موحدا او ذا مصالح مشتركة. زد على ذلك ان التنظيمات السياسية (سواء المستندة على الجماعات المحلية، او الروابط السياسية او على كلتيهما) كانت قادرة على تعبئة الرأي العام وتؤثر وتضغط على مختلف الحكومات بطرق شتى من خلال النشاط غير البرلماني.

المجتمع العراقي بين ١٩٠٠ - ١٩٣٥

سأحاول فيما يلي معاينة بعض اهم سمات المجتمع "العراقي" في مطلع القرن ومتابعة تأثير وتأثرمختلف مكوناته بالاحداث اللاحقة، لاسيما الاحتلال البريطاني في اثناء الحرب العالمية الاولى واقامة النظام شبه الكولونيالي.

ولا يعرف الكثير عن التفاعل اليومي بين الدولة والمجتمع المدني، خاصة ما يتعلق بالطريقة التي كانت متبعة في بلورة المطاليب والتعبير عنها من جانب شتى الجماعات والممثلين الفاعلين داخل وخارج "الميدان السياسي المتاح" في "العراق" وفي هذا الشأن، فان سير حياة ومذكرات الشخصيات السياسية، ودراسة محاضر جلسات مختلف البرلمانات وصحافة تلك الحقبة، تشكل اكثر مصادر معلوماتنا فائدة. وبالاعتماد، الى حد كبير، على تلك المصادر، ساحاول معاينة الطريقة والمدى اللذين استطاعت بهما جماعات واحزاب المعارضة استخدام شبكات المجتمع المدني القديمة والجديدة وكذلك الصحافة للتأثير على بناء الدولة وصنع القرارات. وابدأ بوضع هذه التطورات في سياقها التاريخي وتقديم وصف للمجتمع العراقي في تلك الحقبة.

قبل كل شيئ، كان اغلب السكان، ربما ٧٥٪ منهم، يعيشون في الريف اما كقبائل من الرحل او من الفلاحين المتوطنين (او في مرحلة انتقالية بين الحالتين). وكان المجتمع الريفي ما يزال منظما على اساس عشائري او بطرياركي. وكان استيطان الرحل قد تسارع منذ افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ مما شجع على توسيع الرقعة المزروعة الى عشرة امثالها بين اوائل سبعينات القرن الماضي واندلاع الحرب العالمية الاولى وما رافق ذلك من ارتفاع انتاج الحبوب وصادراتها وتسليع الزراعة. ونظرا لعدم وضوح طبيعة ملكية الارض واضطرار العشيرة الى حماية "اراضيها" من تجاوز العشائر الاخرى واجراءات السلطة العثمانية لجباية الضرائب، فان تحلل التضامن داخل العشيرة قد تباطأ نوعا ما، فاستمر الاعتماد المتبادل بين رئيس العشيرة وافرادها.

ومن العواقب الجوهرية للاحتلال البريطاني ان "الدولة" متمثلة بسلطة الاحتلال، حررت، بصورة فعالة، العديد من اقوى الشيوخ من ضرورة الاعتماد على الامكانات القتالية لابناء العشيرة وذلك بمنح الشيوخ ما يعادل حق الملكية الكاملة للارض "العائدة" الى العشيرة ككل. وتسارعت هذه العملية طيلة فترة الاحتلال والعهد الملكي، فعززتها اجراءات مثل قانون فض النزاعات العشائريه الذي خول السلطة القضائية على الفلاحين "التابعين لهم". وقد ساعدت هذه السياسة الحكومية تجاه العشائر على زيادة قوة العديد من الشيوخ الذين اغتنوا وتحول بعضهم الى ملاكين يقيمون في المدن متمتعين بالاعفاء من الضرائب الى حد بعيد. وشكل هؤلاء الملاكين كتلة يعتمد عليها لتأييد الحكومة خلال الفترة بين الحربين العالميتين وحتى قيام الجمهورية، فصاروا من اركان الرأي المحافظ والمناهض للتحرر. ترى كيف كانت الامور ستتطور لو اعتمدت بريطانيا شكلا آخر انسب من ملكية الارض وذلك انطلاقا من روح قانون الاراضي العثماني لعام ١٨٥٨ الذي كان محاولة لخلق نظام زراعي يقوم على ملكية الفلاحين للارض؟ ومع ذلك، تباينت الاوضاع في الريف تباينا شديدا ورافق الاستيلاء على الارض صراعات عنيفة بين المتزاحمين على امتلاكها. وكما اظهرت الانتفاضات الريفية خلال العشرينات والثلاثينات لم يكن شيوخ العشائر يركن اليهم جميعا في مساندة الحكم الذي رعته بريطانيا.

كانت المدن، وخاصة بغداد، مراكز النشاط السياسي. في كتابه "دراسات في طبيعة المجتمع

العراقي" يصف المؤرخ الاجتماعي الدكتور علي الوردي اوضاع بغداد وغيرها من المدن التي كانت، في اواخر العهد العثماني، تعاني من انفلات النظام ومن عدم الامان، وكانت منقسمة الى احياء متنازعة، ونجد صورة مشابهة لبغداد، خلال العقد الاول من القرن الحالي في سيرة حياة مزاحم الباجچي التي كتبها ولده عدنان وكذلك في وصف القنصل البريطاني (ويلكي يونغ) لاحوال الموصل في كانون الثاني ١٩٠٩. وتفيد مثل هذه التقارير ان احياء المدن كانت تحت هيمنة عوائل معينة من الاعيان يتمثل نفوذها عموما بشبكة من علاقات الراعي- بالرعية، وافقيا بتحالفات بين اسر وشخصيات من الاعيان. فعلى سبيل المثال، لعب السادة، دورا بارزا في المدن المقدسة وبين العشائر الشيعية معا. وتعطينا هذه التقارير انطباعا عاما مفاده ان الدولة العثمانية كانت لا تمس اغلب جوانب الحياة اليومية الا قليلا (باستثناء جباية الضرائب والتجنيد). فلم تكن لديها بنى راسخة للدولة ولم تكن في الريف ارستقراطية او علاقات اقطاعية عميقة الجذور (على غرار ما كانت عليه الحال في المانيا بعد توحيدها عام ١٨٧١). وهكذا فان بناء الدولة الجديدة في العراق لم يعان من "اثقال" بنى سابقة للسلطة.

لا توجد احصائيات موثوقة لسكان المدن العراقية الرئيسية الثلاث في العهد العهماني، ولكن يمكن، على اساس ارقام سنة ١٩٢٢، تخمين سكان بغداد عهد ذلك بحوالي ١٥٠ ألف نسمة، والموصل بحوالي ٦٠ ألفا والبصرة بحوالي ٥٠ ألفا[٥]. ولم يكن في مطلع القرن الحالي، في اي من المدن الثلاث قطاع صناعي او حرفي نشيط، رغم ان تقارير سابقة تشير الى وجود صناعة نسيج مزدهرة في اواسط القرن التاسع عشر، ولا بد انها تضررت من مزاحمة الاقمشة الرخيصة المستوردة من الغرب ومن الهند. ويصف (كوتلوف) الصناعة الحرفية بالقول: "كان عماد الصناعة الحرفي الذي ينتج للسوق مباشرة ولم يكن اغلب الحرفيين على صلة بالانتاج الصناعي او بالمانيفاكتورات، وكانوا، بطبيعة الحال، يبيعون منتجاتهم دونما وسيط. ففي المدن حيث تطورت الحرف كانت الاسواق مكان صنع المنتجات وبيعها في آن معا.. وكان الحرفيون منظمين في نقابات الاصناف التي كثيرا ما انقسمت حسب اختلاف الدين والقومية".[٦]

في اواخر العهد العثماني كانت شؤون التجارة والادارة قد آل تصريفها الى مجالس ادارية محلية تتالف من موظفين محليين وعلماء دين وتجار كبار وممثلين عن الاقليات. وليس هناك بحوث عن مثل هذه المجالس في العراق. اما في غيره من اجزاء الامبراطورية العثمانية، فان هذه المجالس كان بوسعها عموما ان تتساوم بفعالية من اجل مصالح من تنوب عنهم.

اخذت الدولة الجديدة في العراق شكلها بصورة تدريجية خلال العشرينات. وكانت السلطات البريطانية هي التي ترسم التوجهات لهذه الدولة وهدفها الرئيسي حماية خطوط مواصلات الامبراطورية والحصول على امتيازات النفط المتوقع في العراق قبل ان يتأكد وجوده. وجرى تنظيم العلاقات بين الطرفين بادئ الامر بمعاهدة ١٩٢٢، التي صادق عليها البرلمان العراقي باغلبية ضئيلة، وبعدئذ بمعاهدة ١٩٣٠ التي تقرر وضعها موضع التطبيق عند قبول العراق عضوا في عصبة الامم عام ١٩٣٢. وقد

اقيمت ملكية دستورية نوعا ما، فيتولى الملك تعيين رئيس الوزراء والوزراء. وكان البرلمان بمجلسين: مجلس الاعيان الذي يعين الملك اعضاءه، ومجلس النواب الذي يتم انتخابه بصورة غير مباشرة، اي على مرحلتين، فيجري اولا انتخاب المنتخبين الثانويين الذين ينتخبون النواب. وكانت هذه الترتيبات مثبتة في الدستور الذي اصبح ساري المفعول عام ١٩٢٥. وفي السنوات الاولى من عمر الدولة العراقية، كانت ايراداتها تأتي بالدرجة الاولى من الضرائب الزراعية والرسوم الكمركية. ثم اخذت "شركة نفط العراق" التي حصلت على احتكار استثمار النفط عام ١٩٢٥ تدفع سلفا للدولة على عوائد النفط في المستقبل، وهي تبلغ حوالي ربع مجموع ايرادات الدولة طوال الثلاثينات.[٧] واستمر الانتاج الحرفي في المدن الى ما بعد الانتداب، لكن بعض المصانع الحديثة اقيمت في الثلاثينات. وعلى غرار ما حصل في دول الشرق الاوسط الاخرى، ادت شحة السلع المستوردة بعد عام ١٩٤١ الى ما يشبه الازدهار الاقتصادي لاصحاب الصناعة والاعمال. الا ان موارد الدولة الجديدة ظلت، بوجه عام، محدودة، وغالبية السكان في فقر مدقع، وقد تضرر مستوى المعيشة كثيرا نتيجة الازمة الاقتصادية العالمية منذ ١٩٢٩، ونتيجة الحرب العالمية الثانية فيما بعد.

الاوضاع السياسية في العشرينات والثلاثينات

دار صراع مرير حول شكل الدولة العراقية منذ ولادتها، ومن اهم جوانب هذا الصراع طبيعة العلاقة مع بريطانيا. فنظرا لتفوق بريطانيا لم يكن الصراع معها متكافئا، لكنه شمل كل النشطين سياسيا، ابتداء من المعارضين الالداء لاي هيمنة بريطانية الى اولئك الذين ارادت بريطانيا الاعتماد عليهم لتطبيق آلية الانتداب.

عند توقيع معاهدة سان ريمو، التي منحت بريطانيا وفرنسا سلطة الانتداب على الشرق الاوسط، كان قد مضى اكثر من خمسة اعوام على احتلال بريطانيا للجزء الاكبر من العراق. ولان تنظيم الاحتلال قد تم من الهند، ولان اكثر الاداريين الذين انتدبوا للعمل في العراق، قد بدأوا حياتهم الوظيفية في ادارة الهند، فقد جنحوا الى الحكم المباشر على غرار اسلوبهم في الهند. وعند انتهاء الحرب العالمية اتضح للحكومة البريطانية ان الضغوط الدولية وغيرها تستلزم تغيير هذا الاسلوب. وتوصل الحلفاء المنتصرون في الحرب خلال مؤتمر السلام في باريس الى اعتماد اسلوب الانتداب. غير ان هذا التغيير لم يصل بغداد بسرعة، فادى تشدد الاداريين البريطانيين ودنو انهيار المملكة الفيصلية في سوريا واستياء العديد من اوساط السكان من اسلوب الحكم البريطاني، الى ثورة شملت البلاد في صيف ١٩٢٠. وكلف اخماد الثورة في اواخر الخريف ضحايا بشرية كثيرة. وبات واضحا ان من الضروري اعادة تقييم الاسلوب البريطاني.

وفي مؤتمر القاهرة الذي انعقد في حزيران ١٩٢٠ جرت صياغة السياسة البريطانية في الشرق الاوسط. فتقرر اولا، دعم ترشيح فيصل ملكا للعراق، بعد ان طرد من سوريا في حزيران ١٩٢٠ واستقبل في بريطانيا خلال الخريف التالي. ثانيا، انيط الدفاع عن العراق بالقوة الجوية البريطانية. ثالثا، تقرر تلطيف الانتداب على العراق بمعاهدة بريطانية- عراقية يقرها الملك الجديد، وشكل من اشكال

البرلمان او المجلس التأسيسي تعبيرا عن "موافقة الشعب". واخيرا تقرر تقليص عدد الموظفين البريطانيين العاملين لدى الحكومة العراقية تقليصا كبيرا ليكونوا مستشارين في الوزارات الاساسية، بشرط غير مكتوب ان يلجأ "رؤساؤهم" الى مشورتهم.

في ربيع ١٩٢١ وصل فيصل الى العراق بصحبة عدد من الضباط العراقيين الذين قاتلوا في الثورة العربية. ثم نظمت تمثيلية متقنة لاعلانه ملكا على الدولة الجديدة. وخلال السنوات الثلاث التالية دارت مفاوضات لاقناع الجانب العراقي بقبول البنود التي اصرت بريطانيا عليها في المعاهدة التي اقرها المجلس التأسيسي سنة ١٩٢٤. ولابد من القول انه بالرغم من عدم تكافؤ الطرفين فان فيصل وبطانته استطاعا المناورة بحجة انهما سيفقدان الصدقية لو اضطرا الى التصرف بشكل فاضح جدا كصنيعة لبريطانيا. ومن جهة اخرى، فان المسائل المطروحة كانت من الاهمية والوضوح ما جعلها موضوعا للتعليقات والجدل في الصحف وفي الاوساط الواعية سياسيا بين السكان. وعليه فان الترتيبات التي تم التوصل اليها كانت تعبر عن المطالب التي لم تكن بريطانيا مستعدة للتساوم حولها، غير ان شكلها وطابعها السياسيين ظلا موضع معارضة الجانب العراقي وموضوعا للجدل العام والمشاركة النشيطين، مما ادى الى ظهور تحالفات دائمة التغير ومساومات بين القريبين من مركز السلطة.

ورغم ان من الضروري عدم المبالغة بشأن المدى الذي بلغه ذلك، كان من الواضح انه بالرغم من حداثة فكرة "الدولة الوطنية العراقية" فان النزوع الى الاستقلال الوطني والنظام البرلماني الحر قد تطور بسرعة ملحوظة. ورغم ان النظام الذي انبثق عن ذلك بالفعل لم يكن ديمقراطيا ولا تمثيليا، فان مجرد وجود الشكل الديمقراطي في ظاهر الامر، مع مقدار معين من التأييد، قد خلقا مظلة شرعية ومجالا لنشاط السياسيين وطرح مطالبهم. هذا يعني ان الدولة الجديدة قد قامت سلطتها على فكرة الديمقراطية السياسية والحكم التمثيلي، وان بامكان معارضيها استخدام هذه الفكرة في النشاط خارج البرلمان من اجل مثلهم السياسية والاجتماعية اعتمادا على علاقاتهم المحلية والشخصية اضافة الى الاشكال الاحدث للتنظيم السياسي.[٨]

ولا يمكن الفصل بين مسألة الشكل الذي ينبغي ان يتخذه العراق الجديد ومسألة الدولة الوطنية العراقية. فهل ينبغي ان تكون مستقلة ام تابعة لبريطانيا؟ وقد بدت المسألتان للكثيرين مترابطتين ولا يمكن الفصل بينهما. فكانت الدولة الوطنية مثار الحديث الدائم. وهكذا انبثق "ميدان سياسي وطني" اصبح يستقطب النشاط السياسي. وباستثناء جماعة ضيقة، تبلورت فيما بعد حول نادي المثنى وبعض ضباط الجيش، لم تكن فكرة القومية العربية كثيرة التداول في ذلك الحين، بل كان الاهتمام منصبا على الدولة العراقية بحدودها، وكانت المطامح القومية ذات طابع عراقي واضح.

مظاهر المجتمع المدني خلال العشرينات

كان التعبير الحر عن الراي العام ظاهرة جديدة في العراق، رغم ذلك تزايد كثيرا عدد الصحف والمجلات عقب ثورة تركيا الفتاة بين ١٩٠٨ - ١٩٠٩ حتى بلغ عددها ٣٦ صحيفة عربية عام

١٩١١.[٩] بطبيعة الحال، كانت تلك الصحف محدودة التوزيع، واساسا بين الفئة الجديدة من متعلمي المدن. وكان اهتمام الكثير منها ينصب على الادب والنقد الادبي، ولكنها كانت، الى جانب ذلك، تثير بعض المسائل العامة مثل الحاجة الى تطوير التعليم والى التقدم الاجتماعي والاقتصادي. وقد ظهرت مطبوعات جديدة تحت ظل الحكومة المؤقتة عام ١٩٢٠. وباستثناء بعض الصحف المحلية الموالية للحكومة (مثل جريدة العراق) فان اغلب الصحف (مثل الاستقلال والفرات وغيرهما) كانت تنتقد الحكومة. وكانت اغلب الصحف قصيرة العمر، اما لتوقفها او لمنعها من الصدور. غير ان اصحابها كانوا يلجأون الى اصدارها باسم جديد، وهو ما كانوا يفعلونه في ظل العثمانيين، ولا يمكن المبالغة في تاثير تلك الصحف على تكوين الرأي العام آنذاك!

وحين اتسع النشاط المناهض للاحتلال البريطاني، عقب الحرب العالمية الاولى، كانت تعبئة وتنظيم المقاومة يجريان بالدرجة الاولى في اطار الروابط والآليات التقليدية لاحياء المدن والمناطق والجوامع والاضرحة، وذلك بالاستناد، قبل كل شئ، الى العلاقات الشخصية والعائلية والعشائرية. فقد كان المجتمع العراقي نسبيا غير متمايز بعد، والدولة العراقية ما تزال في طور التكوين من حيث المؤسسات والحدود معا. وبمعنى هام كانت الدولة ما تزال غير منفصلة كثيرا عن المجتمع، ولم تكن الفردية قد تبلورت في هذا المجتمع، ولم تكن عرى التضامن ضمن جماعاته التقليدية قد انحلت بعد. وكان السياسيون النشطون يستمدون القوة من ذلك التضامن ويعبئونه في النشاط السياسي الذي اخذ بالتدريج يتجاوز المصالح الضيقة للجماعات على انفراد.[١٠]

اول المنظمات عقب الحرب الاولى

وهكذا فان الضعف النسبي للتمايز الاجتماعي، والعلاقات الوثيقة والمتشابكة بين النخب الفعلية والمحتملة بالاستناد، الى حد كبير، على مشاعر القرابة والالفة او اعتبارات الثقة، كثيرا ما تخطت الجماعات والتحالفات السياسية. وكثيرا ما منحت المكانة الاجتماعية لهؤلاء الافراد نفوذا كبيرا ضمن الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها او التي انبثقوا منها. وتجلى كل ذلك في عضوية "رابطة الدفاع عن الاستقلال". وهي من اهم المنظمات المعارضة التي انبثقت عام ١٩١٩. وتألفت قيادتها من شخصيات بارزة، سنية وشيعية مثل محمد الصدر، يوسف السويدي، ناجي شوكت، بهجت زينل، الشيخ محمد باقر الشبيبي، د. سامي شوكت، الحاج رامز بك، عبد الغفور البدري، عبد المجيد كنة، شاكر قنبر، علي جلال بابان، جعفر ابو التمن وعبد الحسين شلاش.[١١]

وشكلت الرابطة فروعها في مناطق مختلفة من البلاد. ولما كان للتعليم اسبقية كبيرة، فقد فتحت الرابطة مدرسة خاصة لنشر مبادئها. واستطاع قادتها الحصول على تايد واسع باستخدام نفوذهم الشخصي وشبكة العلاقات ضمن الجماعات التي عاشوا وسطها او التي انبثقوا منها.[١٢] وقد تمكنوا من تعبئة جماعاتهم ليس فقط بفضل ما كانوا يعملون لاجله، رغم اهمية ذلك، بل بفضل النفوذ والثقة التي تمتعوا بهما ضمن تلك الجماعات وبين منتسبي الرابطة. كان بوسعهم اقامة الصلات مع الطبقات "الدنيا" اضافة الى علماء الدين وشيوخ العشائر.

ورغم ان عضوية الرابطة كانت على الاغلب متواضعة، فان قادتها كان بوسعهم التحرك بسرعة تحركا لا يتناسب حجمه مع عدد الاعضاء وذلك حين وصلت العراق قرارات مؤتمر سان ريمو. ولان مراكز التعبير عن الرأي العام المستقل كانت ما تزال في المساجد والحضرات فقد بدأت الرابطة حملتها بالموالد النبوية كل اسبوع في مسجدي الاعظمية والكاظمية. ورغم الشكل الديني لهذه الفعالية فان مضامينها السياسية كانت دنيوية بكل وضوح، وكان يحضرها كبار الشخصيات الدينية والسياسية، وكانت الخطب والمدائح ذات الصياغة الدينية تعبر عن المطامح والمشاعر العميقة للجمهور، وبذلك حولوا الموالد النبوية الى نشاط سياسي كبير التأثير. وبلغ تأثيرهم درجة بدأت معها السلطات تنظر اليهم باعتبارهم تهديدا لها. وبدأ المندوب السامي البريطاني، عندما لم يعد بامكانه تجاهلهم، باتخاذ اجراءات قمعية ضد نشاطات الرابطة.

من بين الحوادث التي اثارت استياء شديدا، في ذلك الوقت، اعتقال احد الشعراء ونفيه الى البصرة بعد القاء قصيدة مؤثرة في اجتماع حاشد بجامع الحيدرخانة. فقد اندلعت تظاهرات في عموم بغداد كرد فعل على الاعتقال، قادت الى اغلاق السوق والخانات. نتيجة لذلك استدعي ثلاثة من قادة الرابطة، بمن فيهم جعفر ابو التمن،[١٣] الى القائم باعمال المفوض المدني. وقررت الرابطة فيما بعد ارسال وفد مؤلف من ١٥ مندوبا رفيعا الى مقر المندوب السامي البريطاني لشرح اهدافها. وضم الوفد كلا من محمد الصدر ويوسف السويدي وفؤاد الدفتري وعبد الكريم الحيدري ورفعت الجادرجي وجعفر ابو التمن وآخرين. وكانت المجموعة متنوعة من السنة والشيعة ومن مختلف القناعات السياسية. ومع ذلك، وايمانا منهم بحقهم وبمكانتهم السياسية والقناعة العامة بالحاجة الى حكومة وطنية، عبر المندوبون عن ذلك امام القائم باعمال المفوض المدني، وحاولوا انتزاع وعد بان يبذل كل ما في وسعه للتعجيل بالمفاوضات في سبيل اقامة الحكومة الوطنية.[١٤] كما اوضحوا ان حركة المعارضة سلمية وليس في نيتها اشاعة الاضطراب، رغم شعورهم بالقلق حيال المستقبل. ومن القضايا الاخرى، التي نوقشت، قضية حرية الصحافة والعرقلة التي تواجهها الخدمات البريدية التي جعلت الاتصالات داخل البلاد عملية صعبة. وبشكل عام، كانت مطالب المندوبين معتدلة وغير ثورية باي معنى. رغم ذلك، لم يتخذ اي اجراء حول اي من تلك المقترحات، وكان الاخفاق في تشكيل اي شكل من اشكال الحكومة التمثيلية سببا هاما في الثورة التي هزت البلاد خلال صيف عام ١٩٢٠.

العلاقات العراقية- البريطانية خلال السنوات الاولى من الملكية

ظلت القضية المركزية في الحياة السياسية العراقية، بعد تتويج فيصل في آب ١٩٢١، تدور حول علاقات البلاد مع بريطانيا وطبيعة النظام السياسي الذي شرعت بريطانيا في اقامته. ورغم القبول بفكرة الملكية الدستورية، فان البلاد ظلت تفتقر الى الدستور او القوانين الانتخابية، وظلت بحاجة الى تحديد سلطات الملك ازاء البرلمان والسلطة التشريعية، وبقيت حدود العراق الشمالية معلقة (حيث ظلت القضية الاخيرة، بالطبع قائمة لعدة سنوات اخرى). في نفس الوقت بدأت التحالفات السياسية بالتغير، اذ بات

العديد من الاعضاء والمؤيدين السابقين للرابطة يحتلون مواقع هامة في الادارة الجديدة. واصبحت اجهزة الدولة نفسها (مجلس النواب ومجلس الاعيان والبلاط) ميادين هامة للنقاشات التي استمرت تتركز على قضية المعاهدة العراقية-البريطانية طوال الفترة ١٩٢١-١٩٢٤. وشهدت هذه الفترة ايضا تشكيل احزاب المعارضة، وعلى الاخص الحزب الوطني وحزب النهضة، فقد تأسس كلاهما عام ١٩٢٤. ولأن طبيعة الاتفاقات المقبلة كانت ستتأثر على الأرجح تأثرا خطيرا بالسلطات المخولة الى الملك، فان تركيبة الوزارة وطريقة انتخاب البرلمان، ومسألة نموذج وطبيعة النظام السياسي الجديد، قد اعتبرت مسائل مركزية في الجدل السياسي واثرت على انواع التحالفات التي اقامتها الجماعات المختلفة. ويمكن توضيح ذلك من خلال النظر الى الموقف الذي اتخذه الحزبان الجديدان. فبعد ان قررا تنسيق نشاطاتهما، توصلا، خلال اجتماع انعقد في آب ١٩٩٢ الى بيان يعبر عن موقفهما. وقد عقد هذا الاجتماع برئاسة سيد محمد الصدر، وهو شيعي ذو منزلة رفيعة، تربطه بالدولة صلات عديدة -اذ يتمتع بحرية الدخول الى البلاط الملكي، الى جانب كونه عضوا بارزا في "رابطة الدفاع عن الاستقلال". وعبر البيان عن رفض الحزبين لبنود المعاهدة، وعن مطالبتهما بقيام حكوكة وطنية على الفور. وقد تم تعليق المفاوضات حول المعاهدة، التي استمرت منذ كانون الاول ١٩٢٢، حتى انتخاب مجلس تأسيسي يعد ويصوغ دستورا ونظاما انتخابيا.

اوبما يوحي بضبابية الخطوط الفاصلة بين المعارضة والمؤسسات المركزية للدولة، ومدى امكانية قيام الاتصال المباشر بين الطرفين، انه وبعد ايام قلائل، القي البيان من شرفة القصر الملكي على جمهور حاشد متحمس. وهناك قضايا مماثلة تبنتها الصحافة المعارضة (الاستقلال ولسان العرب والمفيد وغيرها) التي اعلنت وشرحت اسباب رفضها لبنود المعاهدة، ودعت الى اقامة حكومة مستقلة بحلول نهاية العام.[١٥] وواضح ان احزاب المعارضة، شأنها شأن الرابطة التي انبثقت عنها، لم تكن، بأي شكل من الاشكال، تنظيمات قوية، بل تجمعت بالدرجة الاولى حول شخصيات بارزة، ظلت، الى حد كبير، تستند في نشاطها الى شبكاتها المحلية والاجتماعية الاخرى. اضافة الى ذلك، وكما تظهر اكثر سير القادة السياسيين العراقيين، لم يقتصر النشاط السياسي على الاحزاب، رغم كون مقراتها مراكز اجتماع هامة، بل كان ايضا انعكاسا للصلات الشخصية الوثيقة بين افراد كان لهم آراء سياسية ومصالح متباينة في الغالب. وعليه فالشبكات السياسية لم تكن مغلقة، بل قد تتألف من اشخاص وثيقي الصلة بالنخبة السياسية المتشكلة حديثا، ومن آخرين ميالين الى المساومة والى استغلال الفرص الجديدة، ومن رجال ذوي مبادئ سامية وغير مستعدين للمساومة.

وبالطبع ليس القصد هنا باي حال من الاحوال ان هذا النوع من الحياة السياسية هو لصيق بالعالم العربي او بالعراق. فكما يقول سامي زبيدة، "ان تعبئة التأييد السياسي من خلال شبكات القرابة ومصالح الولاء المحلي (Communal) او المناطقي، هي ظاهرة معروفة في انحاء العالم."[١٦] وبالوسع القول ان هذه الممارسة ليست مجرد انعكاس سواء "للتقاليد" او لـ "سياسة المؤامرة". اذ تشير ليزا اندرسون الى نقطة مماثلة ضمن نقاش اعم حول تشكيل الدولة في الشرق الاوسط، بالقول:

"تواجه الامتيازات القديمة التحدي في وقت ما تزال فيه الحقوق الجديدة غير مضمونة، وهناك تجاهل للمؤسسات القديمة في حين لم يتم بعد تحديد الاجراءات الجديدة، ان الاعتماد على العلاقات الشخصية، على الاصدقاء والعائلة، الذي غالبا ما يلاحظ في الحياة السياسية في الشرق الأوسط، هو اقل انعكاسا للتقاليد مما هو نتيجة لحداثة وعدم استقرار المؤسسات والعلاقات الرسمية غير الشخصية".[١٧]

من هنا فان الصراع المعقد حول النظام السياسي المزمع اقامته (والذي هو، بالتحليل الاخير، صراع من اجل النفوذ والسيطرة على الدولة) لم يكن محصلة لعوامل متأصلة في "التقاليد العراقية" او في "السمة الوطنية" بل انعكاسا لحداثة تجربة تشكيل الدولة برمتها.

اقرار المعاهدة العراقية- البريطانية لعام ١٩٢٢ وانتخابات المجلس التاسيسي

لنرجع الى الوضع في بداية العشرينات. فقد اعقب صدور البيان العام للحزبين المعارضين في آب ١٩٢٢ اندلاع مظاهرات واسعة، في بغداد والنجف ومدن الفرات الاوسط، رددت شعار المفاوضة برفض المعاهدة ودعوا الى حرية الصحافة والى اجراء انتخابات ديمقراطية والى اقالة الوزراة "غير الشرعية". ونظمت مظاهرات مماثلة في الموصل شارك فيها نحو خمسة آلاف شخص. ونسق قادة المعارضة العلمانيون والصحفيون نشاطهم مع مجتهدين بارزين، من الكاضمية ، وقادة دينيين آخرين، حيث تم عقد اجتماعات اخرى في المساجد. ومرة اخرى، اصبح جامع الحيدرخانة مركزا رئيسيا للعمل السياسي في بغداد، حيث عقدت فيه اجتماعات حضرتها جماهير غفيرة في الغالب. اضافة الى ذلك، ارسلت وفود وبرقيات بشكل منتظم الى السلطات، وخصوصا الى الملك والمندوب السامي البريطاني.

ويذكر العكام، ان هذه التظاهرات قد انتشرت في اغلب المدن العراقية، وانها لاقت تأييد جميع الطبقات الاجتماعية، بما فيها الطبقات التي يسميها باصحاب المقاهي والحرفيين والباعة المتجولين والتجار اضافة الى المتعلمين وذوي المهن.[١٨] كما يشرح بالتفصيل الطريقة التي تم بواسطتها التغلب على صعوبات الاتصال، وذلك من خلال ارسال البرقيات وايصال الرسائل بشكل شخصي وارسال الوفود الى مختلف انحاء البلاد.

واستمرت المعارضة للمعاهدة بالتصاعد بشكل "ينذر بالخطر" طوال صيف ١٩٢٢، ولكن تم تجنب الازمة مؤقتا عندما ألم مرض التهاب الزائدة الدودية بالملك فيصل في اواخر خريف ذلك العام. وتولى السير بيرسي كوكس جميع المهام، ليوقع على المعاهدة نيابة عن الملك، كما عمد الى نفي ابرز القادة الدينيين الى هينجام، والى حظر احزاب وصحف المعارضة، والى قصف ونزع سلاح ومعاقبة القبائل الثائرة.[١٩] وجرى لفترة من الوقت حظر جميع اشكال النشاط المعارض. وطلب من النقيب ان يشكل حزبه الخاص الموالي للحكومة (الحزب الحر)، حيث شجع رؤساء القبائل الموالون لبريطانيا للانظمام اليه. وفي تشرين الثاني ١٩٢٢، تم تشكيل وزارة جديدة قبلت بالمعاهدة، بشرط ان تتم المصادقة عليها من قبل المجلس التاسيسي (الذي لم يعقد جلسته بعد). وهذا يعني ان مسألة المعاهدة قد بقيت على جدول

الاعمال، ليتركز الجزء الاكبر من الصراع، على مدى العامين المقبلين، حول الطريقة التي يتم بواسطتها انتخاب المجلس، وخصوصا وانه كان واضحا ان تركيبته ستؤثر بشكل كبير على اتجاه التطورات السياسية في المستقبل. فالمجلس سوف لن يقرر فقط اي بنود المعاهدة سيتم قبولها، بل ومعها ايضا الدستور و النظام الانتخابي في البلاد.

من هنا، وفي الوقت الذي ناضلت فيه المعارضة في سبيل انتخاب المجلس التاسيس، فانها ارادت ايضا تأمين جعل المجلس ممثلا بقدر الامكان. فقد كان من المعتقد وعلى نطاق واسع ان بامكان الحكومة التدخل في الانتخابات وان من الواجب الحصول على ضمانات تؤمن حرية التعبير وباقي الحريات السياسية. كما ساد شعور يرى انه اذا ما ساهمت احزاب المعارضة في انتخابات يخاطر بخسارتها، فان ذلك سيتمخض ليس فقط عن هزيمتها بل وعن اعطاء الشرعية الى ممجلس منتخب بصورة غير ديمقراطية.

كانت الآراء منقسمة بشكل جلي حول هذه القضية. فبعض المجموعات، من بينها اشخاص بارزون مثل جعفر او التمن وحمدي الباجه جي، اتخذوا موقفا غير تساومي، عندما جعلوا مشاركتهم في الانتخابات مشروطة بضمان حرية الصحافة وحق الانتماء السياسي الحر. وعندما لم تلب هذه الانتخابات الشروط، قاطع بعض القادة (خصوصا من الحزب الوطني) الانتخابات واعلنوا انها غير شرعية. ووجدوا في موقفهم هذا تأييد من قبل العلماء والمجتهدين البارزين في النجف وكربلاء، الذين اصدروا فتاو ضد المشاركة في الانتخابات.[٢٠]

كان تأثير هذه الفتاوي جديا جدا قارب من وقف العملية الانتخابية في الشمال وفي الجنوب الشيعي. وحاول الملك واعضاء في الوزارة استخدام تأثيرهم الشخصي لاقناع القادة السياسيين المؤثرين وعدد من رؤساء العشائر المرتبطين مع المعارضة بالتخلي عن موقفهم. وعندما تبين عقم هذه المحاولات، بدأت الحكومة بقمع المعارضة، حيث نفت القادة الاسلاميين الاكثر جهرا بآرائهم، بمن فيهم الشيخ مهدي الخالصي واولاده، الى ايران، وهي خطوة لم تؤد سوى الى المزيد من التوتر. فقامت مظاهرات احتجاجا على هذا الاجراء، واعلنت النجف وكربلاء "اضرابا عاما"، اغلقت اثناءه الاسواق والورش. وقد انتهت هذه الاحداث مع الهجرة المثيرة لتسعة من ابرز مجتهدي الشيعة الى ايران تعبيرا عن تضامنهم مع المنفيين. ومع ذلك، اجريت الانتخابات في بداية عام ١٩٢٤، ولم يكن من قبيل المفاجأة ان يأتي المجلس، الذي انعقد فيما بعد، باغلبية من المعتدلين. وبذلك تكون المعارضة قد اخفقت في تحقيق اهدافها. وتحول مركز الاهتمام بعد ذلك الى الجلسات اليومية للمجلس. واستمرت التظاهرات والتقارير الصحفية وغيرها من نشاطات المعارضة، حيث اثرت بوضوح على سير المنافشات والمواقف التي اتخذها، في و قت لاحق العديد من النواب.

عمل المجلس التاسيسي واول برلمان عراقي

يمكن تلمس الاثر المباشر للاحداث "غير البرلمانية" على الجو داخل المجلس من خلال نشاطات

جمعية المحامين التي اعتزمت عقد اجتماع عام في احد فنادق بغداد لشرح انعكاسات شروط الاتفاقية للناس. وعندما منعت السلطات عقد الاجتماع، تحول المنع نفسه الى نقطة نزاع، تبناها اعضاء من رجال القانون داخل المجلس. ومن بين ابرز الخطباء المفوهين، نائب المحلة، وكان نفسه عضوا نشطا في جمعية المحامين. وسرعان ما انتشرت موجة الاحتجاج في عموم البلاد لتصل الى الموصل ومدن الفرات. وتصاعدت حدة الاهتياج حول هذه القضية وحول شروط المعاهدة بعد صدامات بين المتظاهرين وقوات الشرطة في بغداد في نهاية شهر مايس ١٩٢٤، اثرت على الجلسات داخل المجلس الى الحد الذي اجبرها على تأجيل دورتها.

وبلغت الاوضاع ذروتها عندما حاولت السلطات البريطانية التغلب على المأزق عن طريق توجيه انذار يستوجب مصادقة المجلس على المعاهدة بحلول ١١ حزيران. وكان تأثير الرأي العام على الوضع جليا للغاية، فخلال الجلسة الهامة التي عقدت للتصويت على المعاهدة، تغيب ٣٢ عضوا ولم يحضرها سوى ٦٨ عضوا.امتنع ثمانية منهم عن التصويت وصوت ٢٤ من الباقين ضد المعاهدة، لتفوز فيما بعد باصوات ٣٧ عضوا. واذا اخذنا بنظر الاعتبار تركيبة الجمعية، فان اولئك الذين عارضواالمعاهدة لم يكونوا في النهاية قادرين على منع التوقيع، ولكنهم استطاعوا ان يجعلوا من تواجدهم محسوسا امام صعوبات جمة، ليحولوا المفاوضات الى قضية عامة جدا، وتركزت مهام المجلس الاخرى على الدستور (او القانون الاساسي) وعلى النظام الانتخابي، حيث نشبت نقاشات حامية حول المسألتين. واذا اخذنا بنظر الاعتبار كون التجربة غير مألوفة وحقيقة ان تركيبة المجلس كانت، على اقل تقدير نتيجة عملية غير ديمقراطية نوعا ما، استبعدت العديد من اعضاء المعارضة التقدميين والاكثر حنكة، وحشرت في المجلس رؤساء العشائر وافراد خانعين، فان القضايا التي تداولتها هذه النقاشات كانت معقدة بشكل يلفت النظر ود لت على ادراك واضح للمبادئ الليبرالية.

وبالرغم من ان تغييرات اساسية قليلة قد اجريت فيما بعد سواء على مسودة الدستور او على قانون الانتخاب، فقد جرت نقاشات حيوية في المجلس بخصوص مختلف القضايا. فعلى سبيل المثال، وبعد النقاش الذي دار حول اذا ما كان على الحكومة العراقية ان تسيطر على شؤونها المالية الخاصة (وهي قضية ربطت ببعض بنود المعاهدة)، نشب جدل حام وطويل حول سلطات الملك التي، رأى بعض الاعضاء وجوب تقييدها. وبشكل خاص، اثيرت اعتراضات على حق الملك في تعيين اعضاء مجلس الاعيان، بسبب الشعور ان ذلك سيمنح التاج سيطرة كبيرة عليه. ورغم ان اغلبية اعضاء المجلس كانوا محافظين ومذعنين وقادرين، في المطاف الاخير، على دحر مشاريع المعارضة، فان الشعور السائد لم يكن ينم عن رضا عام. من هنا فان تصريح بعض النواب (مثل الشيخ عمر العلوان واحمد الداؤد) ان مجلس اعيان غير منتخب سيكون عقبة امام الامة وامام الحكومة، قد قوبل بالتصفيق. ومما يشير الى اصالة الجدل، اللهجة التي استخدمها نواب المعارضة. فعلى سبيل المثال، عندما حاول بعض النواب المحاججة بأن سلطات الملك تنبع من الثقة الممنوحة اليه، لاحظ داؤد الجلبي ان تلك ليست هي القضية، فاعتمادا على الدستور، تعود ال سيادة للشعب وليس للملك.[٢٣]

وبصورة مماثلة طلب تقديم توضيح حول سلطة الملك في المصادقة على تعيين رئيس الوزراء، الذي ينتخبه البرلمان. ومن الطريف ان النظام البرلماني البريطاني، الذي كان قدوة المعارضة، يجعل المصادقة على تعيين رئيس الوزراء مجرد اجراء شكلي. ومن القضايا التي نوقشت باسهاب، السلطة التشريعية للبرلمان، والحصانة البرلمانية وخضوع الوزارة والوزراء للمساءلة، والعلاقات بين السلطتين التنفيذية والتشريعية، وضمان حرية التعبير خلال الجلسات البرلمانية، وحقوق الاقليات الدينية والاثنية. وجرت محاولة غير ناجحة لتقييد حق الحكومة في اعلان الاحكام العرفية خلال فترات الاضطراب السياسي، على اعتبار انه من اشد اشكال تقييد الحرية الشخصية. وفي سياق القانون الانتخابي، جرت مناقشات حول عدد ممثلي الاقليات الدينية، والطريقة التي يتم خلالها تشكيل المناطق الانتخابية، وفيما اذا كان على اعضاء البرلمان ان يكونوا من المنطقة الانتخابية التي يرومون تمثيلها. واختتم المجلس عمله في ٢٣ تموز ١٩٢٤ ليتم حله في ذلك اليوم، وشكلت حكومة جديدة ضمت قادة معارضين بارزين من اعضاء المجلس، ففي الوزارة الاولى، التي استمرت حتى حزيران ١٩٢٥، عين ياسين الهاشمي رئيس ا للوزراء ووزيرا للدفاع، ورشيد عالي الكيلاني وزيرا للعدل، ومزاحم الباجةجي وزيرا للنقل. وابقيت وزارة الداخلية بيد مؤتمن هو عبد المحسن السعدون، الذي تولى بعد اشهر قليلة رئاسة الوزارة كنتيجة للمناورات التي قام بها الملك.[٢٤] وفي حين كان الهدف من وراء ضم هؤلاء الاشخاص احتواء، وبالتالي اضعاف، المعارضة، فان ضمهم قد ادى، مع ذلك، الى توسيع تركيبة الحكومة.

الصحافة وبيئة الجمعيات في العشرينات

واجهت الوزارة الجديدة مباشرة سلسلة من المفاوضات الصعبة مع شركة نفط العراق. وبالنتيجة تم قبول شروط امتياز الشركة بالاجماع تقريبا، وذلك بسبب بقاء تسوية الموصل مغلقة، والشعور السائد ان مقاومة شروط الشركة قد لا يخدم مصالح العراق الوطنية. وحالما سويت قضية الموصل عام ١٩٢٥. اصبح توقيع معاهدة جديدة مع بريطانيا موضع اهتمام الحياة السياسية العراقية حتى عام ١٩٢٧. اذ واجهت المعاهدة الجديدة مرة اخرى معارضة قوية من قبل مجلس النواب والصحافة واحزاب المعارضة، لتندلع حملة قوية ضد المعاهدة على مدى السنوات اللاحقة.[٢٥]

من جديد، تناولت الحملة المناهضة للمعاهدة وتأثرت بعدد من القضايا الاخرى. فعندما منعت صحيفة الاستقلال من الصدور عام ١٩٢٦، بحجة الاخلال بالامن (حين انتقدت الزيادات في الضرائب)، بات الجو السياسي مشحونا يسوده الترقب والحساسية نتيجة مطالبة تكررت في عدة جلسات من اعضاء البرلمان الحكومة ان توضح كيف يمكن لمثل تلك الانتقادات ان تخل بامن البلد. وعلى غرار ذلك اندلعت موجة من الاحتجاجات عندما اوقفت صحيفتا النهضة والزمان مؤقتا عن الصدور عام ١٩٢٧، اذ تلقت الحكومة رسائل وبرقيات احتجاجية من مختلف انحاء البلاد وقدم ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني استقالتهما من الوزارة احتجاجا على ذلك.

بلغت الاوضاع ذروتها عندما وصلت بغداد انباء عن توصل الملك فيصل الى اتفاق حول المعاهدة

خلال اجتماع عقده في لندن. فقد اضطر رئيس الوزارة جعفر العسكري ووزير الدفاع نوري السعيد الى الاستقالة، مما دفع الى استقالة جميع اعضاء الوزارة. وساد خلال الاشهر اللاحقة "شعور بعجز الحكومة العراقية امام رفض بريطانيا المساومة" حول نقاط اساسية في المعاهدة. ولم يكف تشكيل الحكومة الجديدة لاحتواء الوضع، بل استمرت المعارضة الشعبية للمعاهدة الى درجة دفعت بالوزارة الى الاستقالة مرة اخرى في كانون الاول ١٩٢٩. ولفترة دامت ثلاثة اشهر، لم يكن هناك من هو مستعد لقبول منصب رئيس الوزراء، ثم قبل توفيق السويدي ذلك المنصب بشرط ان لا يتضمن برنامجه المعاهدة. والواقع ان الجدال حول المعاهدة امتد الى ان غطت عليه ١لاحداث اللاحقة، فبحلول عام ١٩٢٩ وافق البريطانيون على وضع نهاية الانتداب في عام ١٩٣٢ ضمن بنود ما عرف فيما بعد باسم معاهدة ١٩٣٠ العراقية -البريطانية.

رغم إن الصحف كانت على الدوام تواجه التعطيل المؤقت، وفي الغالب، الغرامات الباهضة، فان عدد المطبوعات زداد زيادة كبيرة منذ اواسط العشرينات، ربما لان اصحابها قد ادركوا "بحق حرية الصحافة" ولانهم استطاعوا فرض الحرية (التي طالبوا بها الحكومة). فخلال تلك السنوات، استمرت الصحف في تركيز الجزء الاكبر من اهتمامها على العلاقات العراقية- البريطانية، ولكنها تبنت قضايا يومية عامة اخرى كزيادات الضرائب ورسوم الهاتف والكهرباء...الخ. وحصل ذلك امام واقع يتميز بحياة سياسية نشطة ملؤها الحماسة، تركزت حول عدد من النوادي والمقاهي وديوانيات في المجتمع. ففي هذه الامكنة التقت النخبة المثقفة والسياسية وناقشت القضايا السياسية وقضايا الفن والادب.وتمثل المنبر الآخر في المقالات والقصص القصيرة التي صدرت خلال الفترة ١٩٢٧-١٩٣٢ عن موسى الشابندر، تحت اسم "علوان ابو شرارة". فقد لاقت كتاباته ترحيبا كبيرا لاسلوبه الساخر ولانتقاداته الموجهة الى الاحداث السياسية اليومية والى المواقف العامة.

مهما كانت نواقص النظام البرلماني، فقد انتعشت، بحلول اوائل الثلاثينات الجمعيات التي شملت ثلاث فرق مسرحية ونادياً موسيقيا وعدة جمعيات لمكافحة الامية وعددا من الجمعيات الخيرية الاسلامية والمسيحية واليهودية. وجرى تاسيس جمعية للمحامين في بغداد عام ١٩٣٠ واخرى طبية عام ١٩٣٤بالاضافة الى عدد من نوادي المعلمين والموظفين. كما تشكل عدد من الجمعيات التجارية وجمعيات العمال، من ضمنها:

جمعية اصحاب المقاهي ١٩٣٣، جمعية البقالين ١٩٢٩، جمعية تجار السمن والفواكه والخضر ١٩٣٣، الجمعية التعاونية للحلاقين ١٩٣٤، جمعية السواق ١٩٢٩، جمعية عمال المطابع العراقيين ١٩٣٠، جمعية الخياطين ١٩٢٩، جمعية الدباغين ١٩٣٠، جمعية عمال ورش السكك الحديدية، جمعية الحرفيين.

اضافة الى ذلك، تم في عام ١٩٢٩ تأسيس جمعية تشجيع المنتجات المحلية بفروع لها في بغداد والديوانية وكربلاء والنجف، ولعل تاثير غالبية هذه الجمعيات كان محدودا في ظل حداثة الدولة العراقية، الا انها، مع ذلك مثلت اول اشكال التعبير الحديثة للتنظيمات المدنية الاصيلة والمستقلة في العراق.

نشاط المعارضة بين ١٩٢٦-١٩٣٤

على صعيد الحياة السياسية العامة، شهدت فترة اواخر العشرينات اعادة تاسيس الحزب الوطني، بقيادة جعفر ابو التمن، ان الحزب الذي تطور ليصبح من جديد مركزا فعالا للمعارضة السياسية. ولم ير ابو التمن ان يكون لحزبه دور المعارضة والموالاة للحكومة في آن واحد. غير ان العديد من قادته الاخرين كانوا اكثر استعدادا للمساومة وللانظمام الى الحكومة اذا ما بدت الاوضاع ملائمة للقيام بذلك. ومثل العديد من الاحزاب الاخرى في ذلك الوقت، كان الحزب الوطني يدين بجزء كبير من شعبيته الى القدرات الشخصية لقائده. اذ كان ابو التمن قادرا على كسب تأييد عدد كبير من الشخصيات البارزة، بمن فيهم قوميون انظموا فيما بعد الى نادي المثنى، وافراد آمنوا بمبادئ الفكر الفابي والاشتراكية الديمقراطية، من امثال محمد حديد، الذين شكلوا جماعة الاهالي عام ١٩٣٢ (من بين اوساط المتعاطفين مع الشيوعية الذين انظموا فيما بعد الى الحزب الشيوعي العراقي) شملت قيادة الحزب الوطني كلا من فائق السامرائي وعبد القادر اسماعيل وعاصم فليح وغازي زويد،[٢٩] واصبح مقره في بغداد مكانا لاجتماع العديد من السياسيين العراقيين واعضاء الجمعيات الجديدة. من هنا، حقق الحزب، رغم بقائه مؤسسة صغيرة، مكاسب هامة من ناحية المكانة السياسية والجماهيرية. يؤكد محمد مهدي كبة، ان الحزب لم يمثل طبقات او فئات اجتماعية محددة، بل كان قادرا على جذب "الشعب العراقي بمجموعه"، من تجار وملاكين وصناعيين وعمال وفلاحين وباعة وحرفيين. واعتبر الحزب مسائل الاصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتعليمي في غاية الحيوية، الا ان اهمية ذلك تبقى ثانوية طالما استمر الوضع السياسي الشاذ موجها لخدمة المصالح البريطانية بدلا من المصالح العراقية. ونتيجة لذلك، اعتبر الحزب ان المعارضة لاي حكومة خاضعة لبريطانيا مسألة جوهرية، وان تحقيق الاستقلال الوطني يجب ان يكون الهدف الاساسي.

عندما دعي للانتخابات الجديدة في تشرين الاول ١٩٣٠، كان الاعتقاد السائد ان ذلك يمثل محاولة اخرى من قبل الحكومة لتجميع مجلس خاضع بما يكفي لامرار المعاهدة الجديدة، الامر الذي جعل، مرة اخرى، من مسألة المعاهدة ونزاهة الانتخابات والقضايا الاوسع الاخرى، كحرية الصحافة والحريات المدنية، جوانب غير منفصلة. وجعل ابو التمن مشاركته في الانتخابات مشروطة بصدور تعهدات بعدم التدخل من قبل السلطات لصالح حزب التقدم الموالي للحكومة برئاسة عبد المحسن السعدون. وعليه، عندما بدأت السلطات بقمع صحافة المعارضة (بما فيها الوطن والبلاد والزمان والاستقلال) القى ابو التمن خطابا في اجتماع عام دعا فيه الى مقاطعة الانتخابات باعتبار ان المشاركة فيها ستضفي شرعية على الحكومة والمعاهدة. كما عبر عن احتجاجه ضد القيود المستمرة المفروضة على الصحافة، وهي قضية اثيرت ايضا في مجلس النواب.[٣٠]

بالرغم من ان المجتهدين والعديد من العلماء قد اصبحوا في ذلك الوقت اقرب الى الاذعان وكفوا عن لعب دور رائد في المعارضة، الا ان الجوامع استمرت تمثل مراكز للاجتماعات العامة. اذ يصف

العكام حادثة حصلت في ٢١ اذار ١٩٣٠ تجمع فيها عشرة آلاف متظاهر داخل وحول جامع الحيدرخانة، وخطب بعضهم من على المنبر منددين بفشل الحكومات المتعاقبة في التغلب على العناد البريطاني في المفاوضات. وشملت الحملة عموم مدينة بغداد، حيث اقفلت الاسواق وتقاطرت الوفود الى مكان الاجتماع. وبعد خطاب مؤثر لياسين الهاشمي، سار المتظاهرون في شوارع بغداد حاملين اللافتات والشعارات، مثل "الاستقلال يؤخذ ولا يعطى" و "عاش العراق حرا مستقلا" و "نحيا ونموت من اجل الوطن"، في حين ارسلت برقيات احتجاج الى الملك والمندوب السامي. ومن المساهمين في المظاهرة اعضاء جمعيات الباعة والحرفيين والحلاقين وعمال المطابع.

وعمت مدينة الموصل مظاهرة مماثلة واستمع جمهور غفير في الجامع الكبير لخطب قادة بارزين مثل احمد الجليلي وابراهيم عطار باشي والدكتور يحيى نزهت وسعدي الدين المحامي. وارسلت برقيات الى السلطات العراقية والبريطانية تضامنا مع المتظاهرين في بغداد. ووصلت الحملة الى البصرة والنجف وكربلاء. وغطت الصحافة اخبارها بشكل واسع. وفي ٣٠ آذار ١٩٣٠ أرسل عبد القادر اسماعيل برقية تأييد الى جماهير النجف بواسطة حجة الاسلام عبد الكريم الجزائري، والى رؤساء العشائر في الفرات. ورافق ذلك حملة نشطة في صحف الجهاد، صوت العراق، العالم العربي، الشعب، البلاد، والرافدين.[٣١]

وسرعان ما التفتت احزاب المعارضة والصحافة الى تلاعب الحكومة في الانتخابات. فقد ارسلت عدة رسائل احتجاج الى الملك شرحت بالتفصيل التدخل في الانتخابات. ومن جديد، اسندت هذه الاحتجاجات الى عدم دستورية وقانونية ذلك التدخل في العملية الديمقراطية. ورغم كل تلك الاحتجاجات والحملة الواسعة الرامية الى مقاطعة جديدة، صودق على المعاهدة في نهاية العام نفسه. وفي حين نجح نوري السعيد في التلاعب بالانتخابات، بحيث لم يفز فيها سوى عدد صغير من نواب لمعارضة في البرلمان، الا ان هذه المجموعة تألفت من رجال "ذوي نفوذ كبير وخبرة في الحياة العامة".

رغم اخفاقاتها الكبيرة، بقي موقف المعارضة هجوميا، حيث اعلنت عدم شرعية الحكومة ودعت الى اقالتها واجراء انتخابات جديدة نزيهة والى اعادة التفاوض بشأن المعاهدة. وعمد ياسين الهاشمي، الذي كان اقل رفضا للمساومة من ابي التمن واكثر ميلا للمشاركة في النظام السياسي القائم، عمد الى تشكيل حزبه الخاص حزب الاخاء الوطني، حيث حضر اجتماعه التاسيسي ما ينوف على الفي شخص.[٣٢] ومثل احزاب المعارضة الاخرى، اثار حزب الاخاء مباشرة قضية شرعية الحكومة. وشكل الحزبان (حزب الاخاء الوطني والحزب الوطني) تحالفا واصدرا صحيفة تعبر عن ارائهما، ونجحا مرة اخرى في تعبئة ضغط شعبي خارج البرلمان بهدف التعويض عن ضعفهما العددي داخله. وفي الوقت الذي استمرت فيه قضية شرعية الحكومة والمعاهدة باعتبارها القضية المركزية، فان المعارضة اولت اهتمامها القضايا الاخرى الاكثر الحاحا، كالجولة الجديدة من المفاوضات مع شركات النفط التي بدأت في آذار ١٩٣١.

الاضراب ضد قانون الرسوم البلدية

من اهم الاحدث التي شهدتها فترة اوائل الثلاثينات، الاضراب العام الذي استمر ١٤ يوما احتجاجا على قانون الرسوم البلدية (استهدف فرض الضرائب على اصحاب المهن والحرف) واجتاح البلاد في تموز ١٩٣١. وحاولت المعارضة، مرة اخرى، توسيع القضية واستغلال الاستياء العام الذي اثارته الضريبة من اجل تاكيد موقفها الخاص واضعاف الحكومة. ويعطينا العكام، معتمدا بدرجة كبيرة على ملفات الشرطة السرية والصحافة الوطنية، وصفا حيا ومفصلا للاضراب وطريقة انتشاره في عموم البلد. فقد اثرت الضرائب على الحرفيين واصحاب المهن والباعة واثارت مقاومة عامة. وبدأ ذلك بتنظيم اجتماع عام لاستنكار الضريبة مع توجيه عدة رسائل احتجاج ارسلت الى نائب الملك (اذ كان فيصل ونوري السعيد خارج العراق). وعندما لم يفض ذلك الى نتيجة، دعا الحرفيون والباعة في بغداد وضواحيها الى اضراب عام. وكانت الاستجابة فورية، اذ اقفلت جميع الدكاكين والورش والخانات والمقاهي ودور السينما وتوقفت المواصلات حتى "تعطل كل شئ في بغداد بشكل فعلي"، مثلما يقول العكام.[٣٣]

ورافق الاضراب اجتماعات عامة ورسائل احتجاج ومظاهرات قادت الى حدوث مصادمات مع قوات الشرطة. وحاول وزير الداخلية مزاحم الباجه جي احتواء الوضع بتخفيض بعض الضرائب والتهديد بتغريم المشاركين في الاضراب، الا ان ذلك لم يجد نفعا، بل ان اعتقاله لوفد العمال الذي قدم عريضة اليه في ٨ تموز ١٩٣١ ادى الى زيادة حدة الهيجان الشعبي، وبدأت الاوضاع تاخذ منحاها الخاص، مع تعمق المحتوى السياسي للمطالب الشعبية: اذ احتلت قضايا اجتماعية اوسع، كظروف العمل والبطالة وزيادات الضرائب لعام ١٩٢٧ واطلاق سراح السجناء السياسيين الى جانب حرية التنظيم وعقد الاجتماعات العامة، احتلت صدارة المطالب. وبلغ التوتر في بغداد ذروته في ١١ و١٢ تموز عندما دعا المتظاهرون الى اقامة الجمهورية[٣٤] وحدثت مصادمات خطيرة مع الشرطة، وطلب من الملك فيصل ونوري السعيد العودة الى العراق فورا.

عندما عاد نوري السعيد بعد ايام قليلة شرع مباشرة بمقابلة قادة لجنة العمال والحرفيين، وعلى الاخص منهم محمد صالح القزاز، الذي كان رهن الاعتقال. وطلب القزاز خلال المقابلة اعادة اجازة جمعيتين (الحلاقين والصفافير)، كانتا قد اغلقتا، وباطلاق سراح جميع السجناء السياسيين. وبعد ايام قليلة، استطاع نوري السعيد ان يضع نهاية للاضراب بعد ان اصدر قوانين شبيهة بالاحكام العرفية الى جانب الغاء الضرائب البلدية وقوانين زيادة الضرائب لعام ١٩٢٧. ومن نواح عديدة كان الاضراب ناجحا بارغام الحكومة على الرضوخ لاكثر مطالبه الحاحا، رغم ما اعقبه من قمع شديد واعتقال للعديد من قادة العمال.[٣٥]

ساند الحزبان الرئيسيان الاضراب وقاداه طوال فترته، وعبرا عن احتجاجهما للعائلة المالكة حول معاملة المتظاهرين، وعقدا اجتماعات عامة في مقراتهما وفي اماكن اخرى القيت فيها خطابات حماسية. ولم تعد القضية مقتصرة على الضرائب فقط، بل اصبحت القسوة في قمع المتظاهرين قضية

بحد ذاتها ساعدت في توسيع المحتوى السياسي للمظاهرات. واعلن قادة الحزبين ان تقييد حريات الصحافة والحريات الفردية هو خرق للدستور وعلى الضد من المصلحة العامة. ورافق هذه الاعلانات حملة صحفية مناصرة للاضراب (وعلى الاخص في صحيفة الاهالي، بعد ان تم اغلاق الصحف الاخرى) انطلقت من القضية ذاتها واعلنت ان الاجراءات القمعية ضد المتظاهرين والاحزاب واعلان الاحكام العرفية هي خروقات منافية للحريات المدنية التي كلفها الدستور.

من المهم ان نلاحظ انه بينما كانت اللغة المستخدمة حديثة، فان تنظيم الاضراب والمظاهرات بقي ميسرا من خلال الاتصالات الشخصية وتعبئة الشبكات المحلية التقليدية، افقيا وعموديا. ويمكن توضيح هذا التعايش وهذه العلاقات المتبادلة بين اشكال التنظيم والتعبير العريقة والحديثة من جهة اخرى من خلال القاء نظرة سريعة على طريقة انتشار الاضراب الى الاجزاء الاخرى من البلاد. فقد حدث ان تزامن قيام الاضراب مع مجالس عزاء محرم في كربلاء والنجف التي حضرها الاف الاشخاص من انحاء عديدة من العراق. كما حضر قادة الاحزاب بهدف تعبئة الناس، استطاعوا تحويلها الى اجتماعات سياسية او "هوسات" . رغم الاستمرار بالدعوة الى عودة "المهدي المنتظر" بدأت هذه الفعاليات تشمل القضايا الدنيوية كالضرائب البلدية.[٣٦]

كان الحاضرون ينقلون اخبار الاضراب الى منازلهم ليعبئوا الناس في مواقعهم الخاصة. ويرى العكام ان هناك علاقة مباشرة بين احتفالات الشيعة واعلان الاضراب العام وقيام المظاهرات في البصرة بعد ايام قليلة. إذ استمر الاضراب هناك ثلاثة ايام، ولم ينجح سوى فرض حظر التجول في قمعه. ففي مسيرة جرت هناك اطلقت قوات الشرطة النار على المتظاهرين فقتل عدة اشخاص. وانتشر الاضراب من البصرة الى المدن القريبة كالزبير وابو الخصيب. اضافة الى ذلك، قاد نفي عدد من القادة البارزين الى اطراف اخرى من العراق إلى ارسال عريضة الى الملك، موقعة من قبل ١٦٠ شخصا (يومي ٢٧ و٢٩ تموز)، احتجاجا على تطبيق قانون المنازعات العشائرية على مواطني المدينة، مؤكدين فيها على حق المنفيين بالدفاع عن انفسهم في المحاكم. ووقعت حوادث مشابهة في الناصرية وسوق الشيوخ وعفك والديوانية والرميثة والفيصلية والرمادي والفلوجة وبعقوبة والحلة وسامراء، الا انها لم تنتشر الى شمال العراق. وكانت المطالب السياسية التي عبر عنها الناس في هذه المدن مشابهة جدا لتلك المذكورة اعلاه وتضمنت قضايا اخرى كالبطالة والمطالبة بزيادة الاجور.[٣٧]

ادى قمع المعارضة في اعقاب الاضراب الى وضع مسألة الحريات والحقوق المشروعة من جديد في صدارة الاحداث. واستمرت الصحافة والمعارضة بتبني تلك القضايا باهتمام خلال السنوات الصعبة اللاحقة. كما شهدت تلك السنوات انتشار النشاطات غير البرلمانية السرية وتصاعد راديكالية المعارضة، الا ان هذا موضوع من الكبر بحيث لا يسمح باكثر من اشارة عابرة هنا. لكن ما هو اكيد هو ان التطلعات نحو المجتمع المدني والديمقراطية قد ارست جذورها القوية في عقول الواعين سياسيا منذ السنوات الاولى لقيام الدولة العراقية، وذلك رغم ان هذه التطلعات تجلت بصورة اسطع في اعقاب الحرب العالمية الثانية.

REFERENCES

(1) Mustapha al-Sayyid, "Civil Society in Egypt?", in Middle East Journal, 47, (2), 1993, P. 236 - 242.

(2) Sami Zubaida, "Community and Class in Iraq before 1958: the Colonial and Post - Clonial State", in R.A.Fernea and Wm. R.Louis (eds), The Iraqi Revolution of 1958: the Old Social Classes Revisited, London, 1991, P. 200

(3) Edward Shils, "The Virtue of Civil Society", in Government and Opposition, 26 (1) 1991, PP. 3- 18.

(4) Alain Touraine, "Triumph or Downfall of Civil Society", in Humanities in Review, Vol I, 1982, P. 225.

(5) See Hanna Batatu, The Old Social Classes ans the Revolutionary Movements of Iraq: a Study of Iraq'Old Landed and Commercial Classes and the Revolutionary Movements of Iraq. Prinstos University Press, 1978, PP. 229 - 235

(6) L. Kotlov, quoted in Ch. Issawi (ed.) the Firtile Crescent 1800 - 1914: New. York, Oxford University Press, 1988, p. 398.

(7) Peter Sluglet, Britain in Iraq 1914 - 1932. London: Ithakapress, 1976, p. 198.

(8) Quoted in R. Owen, Ststе< Power & Politics in the Making of the Moddle East, London, 1992, p. 5

(9) P. W. Ireland, Iraq, a study in Political Development, London, 1937, p. 230.

(10) S. Zubaida, op. cit.,p.198.

(11) abd al-Razzaq al-Hasani, al-Thawra al-Iraqiya al-Kubra, 1965, p. 56.

(12) Ibid., p. 61.

(13) Ibid,. p. 63.

(14) Ibid,. pp. 63, 69.

(15) al-Akkam, op. cit., pp. 86 - 87, 109 - 112.

(16) S. Zubaida, op. cit., p. 199.

(17) Lisa Anderson, "Absolutisim ans the Resilience of Monarchy in the Middle East", Political Science Quarterly, 106, 1991, p. 12.

(18) al-Akkam, op, cit., p. 100.

(19) Ibid., pp. 111 - 112

(20) Ibid., p. 117.

(21) al-Akkam, op. cit., pp. 127 - 147 .

(22) Faisal had convinced many of the mebers opposed to the treaty that Iraq might lose the Vilayt of Mosul; see Ibid., pp. 150 - 151.

(23) M. Mudhaffar al-Adhami, al-Majlis al-ta'sisi al-'Iraqi, Baghdad, 1972. esp,p.624.

(24) Ibid., pp. 58 - 60.

(25) al-Akkam, op. ci. p. 206.

(26) Slglett. op. cit.., pp. 157 - 161.

(27) Ireland, op. cit., p. 412.

(28) In his memoirs, M.M. al-Jawahiri gives a colourful description of the atmosphere in these clubs and cafes. see his thikryat, pp. 271 - 2.

(29) See Kubba, op. cit., pp. 32=34.

(30) See al-Akkam op. cit. p. 351.

(31) Ibid., pp. 327 - 351.

(32) See: Iraq Report 1931, p. 4.

(33) al-Akkam, op. cit., pp. 383 - 4.

(34) Ibid., p. 386.

(35) Ibid., p. 387.

(36) Ibid., pp. 392 - 3.

(37) Ibid., pp. 390 - 400.

الدولة والحزب والقبيلة

زهير الجزائري

حكم القبيلة له أمتداد تأريخي في نفوذ العلاقات العائلية والقبلية في الحياة السياسية العراقية. فقد شكل رؤساء العشائر ١٧ من مجموع ٤٦ من القيادات المؤسسة لحزب الأتحاد الدستوري الذي أسسسه نوري السعيد عام ١٩٤١، وتكون حزب الأمة الذي اسسه صالح جبر من تكتل العشائر الجنوبية الشيعية. ويتجلى ذلك بوضوح أكبر في الحياة السياسية في المناطق الكردية.. فالعشيرة البارزانية بقيت الى حد كبير العمود الفقري للحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يقود الحركة القومية الكردية... حتى أكثر الأحزاب عقائدية وراديكالية لم تنج من ظاهرة عوائل أو عشائر شيوعية أو بعثية أو قومية. فالعلاقات الشخصية ومنها العائلية لعبت دورا يفوق الأفكار أحيانا في تكوين بنى الأحزاب ومراكز النفوذ فيها .

وتختلف التأثيرات العائلية عن العشائرية داخل الأحزاب، لأن العشيرة شديدة السلبية بطيئة الأستجابة للمؤثرات الخارجية، ويبدأ مفعول التغير فيها نازلا من فوق، وتحاول أن تفرض لحمتها على الأطر الأخرى ومنها الأحزاب. ولكن شكل التأثير يختلف كما ونوعا حسب نمط حياة العشائر وتقاليدها الروحية. فبعد تحوّل المشاعيات الى أقطاعيات في المناطق الزراعية الجنوبية والوسطى أنتقلت السلطة تدريجيا من داخل العشيرة الى خارجها أو بقيت بعيدة عن أفرادها محصورة بالشيوخ الذين تحولوا الى أقطاعيين يعيشون خارج أراضيهم وقبائلهم. وما عاد الشيوخ يستمدون قوتهم من تأييد أفراد القبيلة أنما من قوة خارجية هي السلطة المركزية التي تدعم نفوذهم، وأستخدموا قوة قمعية (حوشيه) من خارج العشيرة أو من عبيدها لأحلال الخوف محل الأحترام وسيلة لضمان أذعان أفراد القبيلة وقد تحولوا

الى فلاحين مستعبدين في أراضيهم. وكلما تفككت العلاقات القبلية ازداد أندماج الأفراد في المؤسسات والمنظمات الجديدة بصفتهم افرادا... أما في المناطق التي تحدرت منها قياذات الأنقلابات منذ ١٩٦٣ (عانه تكريت سامراء راوه) فهناك يتغلب الطابع البدوي على الزراعي في العلاقات. وحتى في المناطق الزراعية تسود الملكيات الصغيرة والوسطى التي تجعل شيخ العشيرة قريبا من أفرادها ومستوى حياتهم. ولذلك بقيت العشائر سلطة مستقلة عن السلطة المركزية ويجمع أفرادها تضامن عائلي منغلق. وحتى عند دخول الأفراد في التنظيمات السياسية والعسكرية، فأن الولاء القبلي سيلعب دورا على حساب الولاء للمؤسسة وفكرها... ورغم أن حزب السلطة بدأ في الخمسينات بقيادات من أصول مدينية متوسطة، ألا ان معارضته الشديدة الى حكم قاسم جذبت قيادات من اصول أقطاعية أو متوسطة تضررت من قوانين الأصلاح الزراعي متأثرة بالعلاقات القبلية. وقد لعبت هذه التكتلات القبلية دورا في أنحياز الأعضاء خلال الأنشقاقات التي مر بها الحزب كما لعبت دورا في تكوين النواة المدنية العسكرية التي قادت الأنقلابات. وقد أستطاعت العشائر التكريتية بما تملكه من نفوذ تاريخي في الجيش أن تزيح التكتلات القبلية الأخرى وتسيطر على الأدارة العسكرية في ظل السلطة وتخضعها نسبيا لأدارة المجموعة القبلية. وقد كانت العلاقات العشائرية في ظل قيادة البكر المعروف بتعصبه القبلي عامل تماسك لكتلة تكريتية من الحزبيين المدنيين والعسكريين. ورغم أن البكر هو الذي رشح طه الجز راوي لأدارة المكتب العسكري تحت أشرافه الشخصي، ألا أنه فاجأ أجتماعا للقيادة القطرية بضرورة أبعاده من هذا الموقع، بل ومن القيادة القطرية متهما أياه بأستغلال هذا المنصب لأدخال عناصر مصلاوية في المواقع الحساسة، في حين يريد البكر أبقاء قيادة الجيش حكرا للتكارته كضمانة لأمن السلطة يضاف الى التماسك الحزبي. وكان التمركز التكريتي قد خلق أحراجا للحكم لدرجة أن مجلس قيادة الثورة قد أصدر في أواخر السبعينات تعميما بمنع أستخدام الألقاب في الوثائق الرسمية للتغطية على الطابع العشائري الفاضح للحكم.

وستعكس كل الأنقسامات التالية في الحزب والمحاولات الأنقلابية من ما سمي (مؤامرة ناظم كزارعام ١٩٧٣ الى تمرد الخمسة عام ١٩٧٩) في وجه من وجوهها هذا الصراع بين التكوين الحضري للحزب ككيان يفترض فيه أن يقوم على العقيدة التي تعلو على القبلية والطائفية وبين الكتلة القبلية العليا الممسكة بالمناصب الأمنية. وحسب حديث لحزبي سابق فأن عضو القيادة القطرية ووزير الصناعة محمد عايش كشف هذه الحقيقة في أجتماع القيادة الأستثنائي عندما أعلن البكر عن عزمه على التخلي عن الرئاسة لصدام. كان جواب عايش آنذاك "اذا كان لابد من قسمة بين الحزب والعشيرة فلتكن مناصفة". وكان عقاب محمد عايش على هذه السخرية الخشنة هو أقتلاع لسانه على يد رئيس لجنة التحقيق برزان التكريتي. وكلما أحتد الصراع أزداد تماسك وأنغلاق الكتلة القبلية التي تعتمد على الأصول السلالية في توزيع المناصب والمال. وعلى طريقة نظم الحكم في الخليج والجزيرة العربية كانت الغلبة دائما للقطاع القبلي. وقد فرضت القبيلة تقسيما ثابتا وأن لم يعلن لمناصب الدولة، بحيث تحتفظ العائلة الحاكمة بالمناصب الأمنية كوزارتي الدفاع و الداخلية والأمن العام والمخابرات، بينما توزع الم ناصب

الأدارية المدنية على تكنوقراط الحزب. وسيثبت هذا التوزيع كأمر واقع ثابت ومتصاعد.

لم يكن صدام، رغم فارق العمر والثقافة بينه وبين البكر ، أقل اعتمادا على العشيرة.. مدير مدرسته الأبتدائية في تكريت كمال الآلوسي قال لمجلة (ألف باء) بمناسبة الذكرى الأولى للبيعة "عندما جئت مدرسة تكريت الأولية وجدت طلبتها مقسمين حسب الوضع العشائري الذي كان سائدا آنذاك. وكان صدام في الصف الخامس يقود أبناء عمومته وأقاربه في المدرسة". وطوال حياته الحزبية كان يعتمد على الأقارب الخلص خاصة عند تنفيذ المهمات الأمنية. وعند تأسيس مكتب العلاقات العامة حرص على أن يعين مندوبا خاصا لشؤون العشائر. وفي عز الفورة الأشتراكية كان يزور ويدعو شيوخ العشائر ويرسل سيارته وحمايته لتوصلهم الى بيوتهم في نوع من التقدير الباذخ. وبعد ما سمي بـ (مؤامرة ناظم كزار ١٩٧٣) و (مؤامرة الخمسة ١٩٧٩) لم يعد الحزب يشكل ضمانة كافية لحماية القائد. وقد اعلن صدام ذلك بعد اقل من عشرة ايام من استلامه موقع القائد من البكر: "ان الخطر يأتي اولا من ايجاد خونة داخل الحزب ". ولذلك قسم رفاقه الى "اهل الثقة" و "اهل الخبرة". وملأ المسافة الفارغة القلقة بينه وبين الحزب والدولة بحزام امني من اقارب الدرجة الاولى والثانية "اهل الثقة" تاركا الوظائف المدنية بيد التكنوقراط الحزبيين من "اهل الخبرة".. وبذلك اصبحت قرابة الدم المتراس الامني امام قرابة العقيدة. كان المكتب العسكري مكونا من ثلاثي تكريتي (عجاج التكريتي، حسين كامل، وخالد جاسم). وقد أضاف صدام أثنين جديدين بعد أستلام الرئاسة، أبن عمه علي حسين المجيد، وأبن خالته كامل ياسين. الأول أحتل المناصب التالية بالتتابع: امين السر العام في مجلس قيادة الثورة، مديرالمخابرات والأمن القومي، الحاكم المطلق لكردستان والكويت المحتل ثم وزير الدفاع. واضيف الثاني (كامل ياسين) للقيادة القطرية بعد المؤتمر التاسع للحزب، بينما أختفى عجاج التكريتي من مقدمة الصورة بأعتباره من المحسوبين على البكر. واعاد ترتيب المناصب الأمنية الحساسة بين أقرباء الدرجة الأولى والثانية: أخوه برزان أصبح مدير المخابرات، واخوه سبعاوي مدير مكتبه الخاص وأخوه وطبان مدير مكتب نائبه عزت الدوري، أبن عمه علي حسن المجيد مدير الأمن وأبن عمه سعدون شاكر وزيرا للداخلية وأبن خاله وشقيق زوجته عدنان خير الله وزيرا للدفاع... وفي فترة لاحقة رسخ صدام العلاقات العائلية في السلطة بسلسلة من الزيجات: أبنه عدي تزوج ابنة نائبه عزت الدوري وتق دم حسين كامل وزيرا للتصنيع الحربي ثم مسؤولا عن أمن القصر بعد الزواج من أحدى بنات صدام. أما شقيق حسين كامل وأسمه صدام كامل فقد صعد نجمه أولا في السينما -ين مثل للمرة الأولى والأخيرة دور صدام حسين في فلم (الأيام الطويلة) عن محاولة أغتيال عبد الكريم قاسم. وبعد ذلك تزوج أبنة صدام الصغيرة وأصبح واحدا من أبرز مرافقيه ثم قطبا بارزا في جهاز الأمن الخاص.. ودائما أقترن ترسيخ العلاقات العائلية بترسيخ أقدام المتزوجين في السلطة، وبالتحديد المواقع الأمنية المحيطة بالقصر... وحتى الآن جرى تبرير صعود أفراد العائلة بحزبيتهم. ويجري أختلاق تأريخ حزبي للذين لم يكن لهم تأريخ حزبي يؤهلهم للمناصب الحساسة. وقد أعترف صدام حسين في أحد لقاءاته الصحفية بأن بعض الحزبيين لم يتقبلوا صعود سعدون شاكر كعضو قيادة قطرية بأعتباره حديث التجربة الحزبية، ولذلك أضطر لأن يذكرهم بأن له

فضل على الحزب بأعتباره ساعده في الهروب من السجن. وقدم بارزان بأعتباره أصغر حزبي شارك في ثورة ١٧تموز. بل أن دور عدي الحزبي بدأ وهو ما يزال رضيعا، ففي حفاظاته كانت والدته تهرب الرسائل الحزبية لوالده في السجن.

ورغم تفضيل قرابة الدم على قرابة العقيدة، ألا أن هناك الكثير من الثارات المبيتة داخل العشيرة.. فهناك محسوبون على البكر الذي مات في ظروف مشبوهة ورفعت صوره وأسمه نهائيا من تأريخ الحزب منذ المؤتمر التاسع، ومحسوبون على حردان الذي سممت زوجته وهي في الطريق اليه، واغتيل هو في منفاه في الكويت. ولذلك أتسم التعامل مع التمردات داخل العائلة بالحذر والقسوة المشددة.. فالأطاحة بكل قطب في العشيرة تستتبعه تصفيات وأبعادات المقربين من المواقع الحساسة. وقد أكد صدام في حديث مع جريدة الثورة "لو تأخذ تعاملي مع أقربائي، فأنا لا أبعد من موقع المسؤولية شخصا مؤهلا في أطار المسيرة، ولكنني في نفس الوقت أراقب تصرفهم بدقة، وأحسم التصرف الخاطئ بشكل قاطع وبدون تردد".. بهذه القسوة كان الخوف والأذعان عاملان أضافيان لضمان رابطة الدم في متراس الحكم الأخير وفي غرفة العمليات الأمنية. ولكن في داخل العشيرة جرى تقسيم أخر للمناصب آخذا بالدرجة الأولى التسلسل السلالي للأبناء وابناء العم. وتكونت كتل متوازية ومتعارضة من الأبناء (عدي وقصي) والأخوة (برزان وسبعاوي ووطبان) وأولاد العم (علي حسن المجيد وشقيقه وأولاد أخيه حسين وصدام كام ل) وفي وقت متأخر ستتعزز كتلة الأبناء والأخوه أمام أبناء العم الطامحين بزواج عدي من أبنة برزان... ولكن كل الترتيبات أتجهت نحو تعزيز السلطة الأمنية للعشيرة على الحزب.

لم يقتصر التغير على أجهزة القيادة العسكرية والأمتنية، أنما همشت أجهزة الدولة والحزب المدنية بأختراق خلفي قام به الأبن (عدي). وقد أتبع الأبن خطوات الوالد بحذافيرها: خلق مؤسسة ظل تقابل المؤسسة الرسمية والحزبية .. توازيها ولا تزيحها ، تأخذ منها مراكز نفوذها دون ان تتحمل عواقب ومعوقات عملها كمؤسسات مقيدة بضوابط العمل الرسمي أو الحزبي. وقد بدأت سلطة الأبن بمؤسسة بدت ثانوية وذات طابع ترفيهي بتأسيس نادي الرشيد الرياضي عام ١٩٨٥. لكن وراء هذه المؤسسة البريئة مصدر قوة يكمن في تكتل عدد من العسكريين ذوي المناصب الأمنية في حماية الرئيس وتسنده قاعدة مادية ضخمة أتاحت له الأستحواذ على خيرة الرياضيين والرياضيات وتكوين جمهور من أبناء واقارب المسؤولين.. أي أن النادي أمتلك في حقيقة الأمر كل مقومات سلطة خلفية المال والقوة والقاعدة الجماهيرية... خاض الأبن معاركه الأساسية ضد أجهزة الدولة بصفته حزبيا، لكنه خاضها من الموقع البديل للجهاز الحزبي الذي يفترض فيه ان يكون رقيبا على أجهزة الدولة. ففي المعركة مع وزارة الشباب بقيت المنظمات الحزبية للشباب والطلبة صامتة ومحيدة تقريبا. ولكن هذه المنظمات لم تسلم من االهجوم في صحافة عدي وعلى لسان رئيس التحرير ضد رئيس الأتحاد العام لشباب العراق تهدده بنشر وثائق تتهمه بممارسة الضغوط في المدارس لفرض قيادات بالقوة، ولذلك فأن المعركة مع طه الجزراوي حول المجلس الأعلى للشباب شهدت أصطفاف ممثلي المنظمات الحزبية للشباب والطلبة مع ممثل مجلس الوزراء ضد الأبن الخارج من الأثنين.

ورغم ان الأب بقي صامتا أو محايدا أزاء معارك الأبن ألا أن اغلب هذه المعارك تدار من القصر. وقد كان عدي يخرس معارضيه دائما بالتأكيد على أنه أستشار الوالد قبل أن يقدم على خطوته. حتى حماقات الأبن تبدو احيانا مطلوبة كعنصر تعجيز لمن يفكر بأن الحل يكمن في الخلاص من صدام. فوجود سلطة عدي يجعل البديل أسوأ وأطول عمرا... وعموما أتجهت معارك عدي، كما يكشف محضر اللقاء حول المجلس الأعلى للشباب، الى سحب اكثر ما يمكن من الصلاحيات من الحزب وجهاز الدولة ممثلا بمجلس الوزراء، لحصرها في مكاتب رئاسة الجمهورية. وقد أستندت سلطة الأبن الخلفية على سلطة مالية تحت أسم (صندوق مساعدة الفقراء). وتحت هذا الأسم الخيري يقوم جهاز خاص بفرض خوات على التجار والمتمولين بنسبة تقارب نسبة الزكاة، ويجري توظيف هذه الأموال في مشاريع مالية وللأستحواذ على مشاريع مالية تعود للآخرين مثل أسطول النقل البري وتجارة الأغذية المهربة للعراق بعد مبادلتها بالنفط... ويخطو عدي نحو القوات المسلحة بعد الحصول على منصب فريق ركن على طريقة والده دون أية خدمة في الجيش، بل من خلال نيله شهادة الدبلوم العالي في العلوم العسكرية من جامعة البكر عن رسالته (ال توازن السوقي بين العراق والكيان الصهيوني). وترافق ذلك مع تكتيل أكثر من مائتي ضابط متقاعد تتراوح رتبهم بين مقدم صعودا الى لواء نشرت جريدة بابل أسماءهم كمشاركين في قيادة اللجنة الأولمبية التي يقودها عدي.. وهكذا تجمعت لدى الأبن مقومات سلطة خلفية تملك المال والأعلام والقاعدة الشبابية والموقع العسكري.

في مواجهة استحقاقات الديمقراطية مع ايران أنتهت مبررات استمرار حالة الطوارئ واصبحت الديمقراطية السؤال الأول المطروح على النظام . وبعد تفكيك مؤسسات الدولة وبيعها بالجملة والمفرد للقطاع الخاص تقلصت القاعدة الأقتصادية لمركزية الدولة المهيمنة على كل شئ ونشأت برجوازية حول النظام تقدمت من المقاولات نحو الصناعة التحويلية ولاتستطيع هذه الطبقة ان تؤمن نشاطا اقتصاديا مستقرا بدون نظام دستوري يحدد ويضمن صلاحياتها.

ولذلك بدأ النظام بمناقشة موضوعة التعددية في الأطار القيادي في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٩. ولكن أية خطوة نحو التعددية محكومة بمخاوف القيادة العراقية من أي تراخ في قبضة الدولة. والتجارب التي اجتاحت العالم تعطي النظام العراقي الحكمة المعكوسة.. فأبتداء من شاه ايران وانتهاء بشاوشسكو، لم تتساقط انظمة الحزب الواحد، او انظمة الفرد الواحد نتيجة لأنفجار الكبت الطويل الذي مارسته ضد شعوبها، انما لأنها أجبرت في اللحظات الأخيرة على ان تفتح في جدار القمع ثغرة هامشية لم تستطع التحكم بها في النهاية. ومن هنا، كما يتصور العقل الأمني، بدأ الأنهيار.. و كانت أجهزة الأعلام العراقية تركز على أحداث العنف في اعقاب انفلات الجماهير المكبوتة.. فتحت عنوان (طاعون الديمقراطية) كتب مدير التوجيه المعنوي عبد الجبار المحسن في ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٣ في جريدة (بابل) التي يصدرها عدي صدام حسين "وأتأمل كما تتأملون شاشة التلفاز، وأرى كما ترون أن العالم ليس سوى رواية مأساوية، أو فلما من أفلام الرعب صنعته يد فنان مقتدر.. فهذه شعوب قد دب الشقاق بين صفوفها فراح يقتل بعضها بعضا، طوابير من الدبابات يحركها البعض ضد البعض، ومدفعية

ثق بلة يرمي بعضها البعض... فتتقوض البيوت على ساكنيها وتتهدم معالم الحضارة والتراث"....
ويمضي الكاتب واصفا المشاهد اليومية المروعة التي يعرضها التلفزيون عن جثث قتلى، نساء ثاكلات، طوابير من مهاجرين بلا مأوى، جوع وتهالك على فرق الأغاثة الدولية... ثم يطرح السؤال "من الذي زرع هذا الطاعون ليجعل الموت غاية وخلاصا؟" وجوابه الوحيد هو "طاعون الديمقراطية" .. وينتهي الكاتب بالدعاء "ربنا لك الحمد أن وهبتنا صدام، وأبقيت لنا صدام حسين، فلولاه لكنا المثال الأسوأ بين هذه الصور".. من هذه المقدمة والتسبيب والأستنتاج النهائي نرى أن البديل الوحيد لعنف الدولة (المشروع) هو عنف الحرب الأهلية القاتلة على غرار المثال اللبناني والأيراني وأوربا الشرقية، ودكتاتورية صدام حسين مقدمة كبديل وحيد للحروب الأهلية التي شملت معظم الدول التي سقطت فيها أنظمة الحزب الواحد. ويبدو أن نهاية الأتحاد السوفياتي ويوغسلافيا كدولة وكيان قدمت عونا للنظام العراقي لتقديم الليبرالية كمؤامرة تهدف لتفكيك الكيان العراقي. ولذلك كانت القيادة العراقية تستبعد تماما "الديمقراطية على النمط الغربي" كما تقول مداخلة صدام في هذه المناقشة وتتذرع بطبيعة المجتمع العراقي الذي لم ينضج بعد لمثل هذه الديمقراطيات "بسبب غياب الدولة الوطنية لمدة سبعمائة سنة في حدها الأدنى، وهي الفترة الممتدة بين سقوط بغداد عام ١٢٥٨ حتى العصر الحديث، أي ما يقارب الألف سنة من الضيم "تجعل من الخطر اعطاء الديمقراطية دفعة واحدة.. ولذلك فضل النظام تقديم وعد الديمقراطية على شكل اقساط بلا سقف زمني، أنما مرهونة بتطور واقع الحال وزوال دوامة حالة الطوارئ المغلقة التي تحولت الى سبب ونتيجة في نفس الوقت. وكانت هذه الوعود هي مراوحة بين الخوف والخوف: الخوف من أن تزداد ضغوط الواقع الخارجي والداخلي فيحدث المحذورالذي نبه صدام حسين قيادته اليه "أن ترغم أرغاما على ان تفعل شيئا أراده طرف من الأطراف خارجك وقبل أن تختمر فكرته الصحيحة في عقلك وينتقل الى التصرف في وقته الصعب ".. يقابل ذلك خوف معاكس ينشأ عند الأستجابة لهذه الضغوط، وآنذاك يفلت كل المكبوت في قمقم القمع خارج سيطرة النظام.. وهنا تدخل الأرادوية معتمدة على خصوصية خارج القوانين العامة فتصور امكانية جمع النقائض في سلة واحدة:

• نظام جمهوري يقوده حزب واحد (عربي اشتراكي).. • وفي نفس الوقت شكل من الملكية الذي يقوم على حكم العائلة المتوارث والبحث عن شرعية غير تلك المكتسبة من انقلاب ١٧ تموزللتقرب من الغرب والأنظمة الملكية في الخليج والأردن.

• اقامة نظام برلماني (مجلس وطني) ..

• ولكن معظم المرشحين للبرلمان ينبغي ان تزكيهم قيادة احزب وتؤكد ولاءهم لخط الثورة ومبادئ قادسية صدام قبل ان ينتخبهم الجمهور.

• اقامة مجلس وزراء يفترض أن يقوم بالتشريع والتنفيذ..

• ولكن فوقه مجلس قيادة ثورة مخول بحق التشريع واصدار القوانين والقرارات.

• ديمقراطية.. • ولكنها (مركزية) محددة وموجهة ضمن منطلقات ثورة ١٧ تموز.

* تعددية..

* ولكن الأحزابِ الأخرى ملزمة بالأقرار بالأحقية التأريخية للحزب القائد والولاء لمنطلقاته، بل وحتى لقادسية صدام.

* نظام رئاسي دستوري..

* ولكنه يقر في دستوره بالدور المميز للرئيس بأعتباره أيضا "رمز الشعب وقائده" وقد اعلي الرئيس على البرلمان بأنتخابه من الشعب مباشرة وليس عبر البرلمان. وأعطي من الصلاحيات ماتجعله قادرا على تعطيل الدستور والبرلمان وعمل الحكومة.

وقد أستقرت المراوحة بين المتناقضات وبين التسميات "المركزية الديمقراطية أم الديمقراطية المركزية؟" على نوع من أعادة أخراج صورية لشكل الحكم.. فالتعددية مشروطة بالولاء لمنطلقات الحزب القائد. ويبقى الدستور مجرد حبر على ورق ما دام القائد الواحد مزود بصلاحيات تعديل وتعطيل الدستور.. ويمكن تعطيل كل ذلك بوجود حالة طوارئ يستند عليها الحكم لألغاء الجواب حول سؤال ((الديمقراطية؟)).

ومهما أخفقت الأنتفاضة ومهما كانت أسباب هذا الأخفاق فقد خلقت مازقا للحكم في كل ركائزه. فقد جسدت أخفاق خطاب النظام بكامله في لحظة الهزيمة بما تحمله من فروق فادحة بين وعود النظام ونتائج الحرب.. وقد شاركت في الأنتفاضة وبدرجات مختلفة ومتفاوتة كل قطاعات الاشعب.. عرب وأكراد سنة وشيعة ومسيحيين. على المستوى الحزبي تجلى الأخفاق في حقيقة أن جيل الأنتفاضة هو نفس الجيل الذي أعتبره صدام حسين محجوزا لحزبه وحده والذي قضى كل حياته وأرتبطت كل معارفه بالحقيقة الكلية للحزب الواحد والفرد الواحد، أي أن الأنتفاضة جسدت أخفاق عشرين عاما من التعبئة العقائدية على نبرات ثابتة. ومن النتائج التي أفرزتها الأنتفاضة على الحكم هي تخلخل القاعدة الحزبية بل ومشاركتها في معظم المدن التي شهدت تحركا واسعا. وكلما تزعزعت الثقة بأجهزة الحزب والدولة أزداد أنغلاق النظام داخل الكتلة القبلية وبالتحديد قرابات الدرجة الأولى. وبعد تقليص حجم الجيش وتسليحه بموجب القرارات الدولية بحيث لايعود يشكل قوة للتهديد أو الدفاع الخارجي، أتجه هم النظام لتكريس كل الطاقات نحو الأمن الداخلي.. وهنا حدث أختلاط بين مهمات وزارة الدفاع والداخلية.. وقد ت ناوب عليهما أبن عم صدام على حسين المجيد و صهره حسين كامل.. ولكن جوهر التغيرات الجديدة هو المزيد من تركز قيادة هذه الأجهزة داخل القصر وتحت القيادة المباشرة للعائلة (أبن صدام قصي المسؤول عن جهاز الأمن الخاص والحرس الجمهوري، أخوه وطبان وزير الداخلية ، وأخوه سبعاوي مدير الأمن العام).. وقد تركز هدف الأجهزة الأمنية بالحلقة الأضيق في حماية مركز الحكم في القصر الجمهوري بأنشاء من قوة عسكرية ضاربة داخل الحرس الجمهوري " الوية الحرس الخاص المسؤولة عن بغداد وكل المقار المهمة. وقد تكونت حول النظام ثلاثة كتل من أقارب الدرجتين الأولى والثانية: كتلة الأبناء عدي يسيطر على أجهزة الشباب والثقافة والأعلام وقصي يسيطر على أجهزة الأمن

بينما الأخوة وطبان لوزارة الداخلية وبارزان للشؤون الخارجية وأدارة الودائع المالية في الخارج وسبعاوي لأدارة الأمن العام. أما كتلة أبناء العم فتولت وزارتي الدفاع والداخلية والتصنيع العسكري. وخلال الصراع بين الكتل تعززت علاقة الأخوة بالأبناء من خلال زواج عدي من أبنة خاله بارزان.

وهناك داخل العشيرة تداخل بين السلطة الأمنية والسلطة المالية، فكل قطب في الحكم يشاركه قطب في المال من أقارب الدرجة الأولى يمثل أمتداده في عالم التجارة والمقاولات. وبين رجل المال والأمن داخل العشيرة ثمة مايشبه ميثاق حماية وأسناد.

وأذا كان التداخل بين السلطة الأمنية والسلطة المالية قد أقام سابقا علاقة خلفية بحيث أن كل قطب في الحكم يشاركه قطب في المال من أقارب الدرجة الأولى ليس له منصب حكومي ولكنه يمثل أمتداده في عالم التجارة والمقاولات، فأن هذه الرابطة أزدادت لحمة في ظروف الحصار الأقتصادي الذي فرضه الغرب.. فقد تحقق أندماج كبيرين الأثنين بتحكم العشيرة بالأقتصاد حسب التراتبية الأمنية أبتداء من فوق.. ففي التقرير السنوي لعام ١٩٩٣ لديوان الرقابة المالية لم يرد في الحقل الخاص بوزارة النفط أي ذكر لكميات النفط المباع في الأسواق الخارجية. وتقدر بعض الأوساط أن هناك ما قيمته ١،٢ مليار دولار من النفط تباع بطرق ملتوية بأشراف متبادل بين عدي صدام حسين الذي أنشأ شركة نفط أهلية تحت أدارته.. وأخ صدام غير الشقيق برزان التكريتي الذي يقيم في سويسرا تحت واجهة منصبه الرسمي. ويشرف ديوان رئاسة الجمهورية مباشرة على كيفية صرف عائدات النفط هذه أضافة الى الـ ٥٪ من حصة كولبنكيان التى اممت عام ١٩٧٠ وحولت الى حساب سري تحت أشراف الحزب، ثم تحت أشراف صدام المباشر. وقد أخرجت صادرات النفط عن صلاحية الوزارة المعنية لسببين:

امني يملي أخفاء أتجاهات صرف عائدات النفط على الأسلحة والأمور الأمنية. وعشائري يهدف لزيادة تحكم العشيرة بالأقتصاد كمصدر قوة يضاف للأمن وأجهزة الأعلام. وهناك ١٣٠ أسما من الطبقة القيادية العليا يتحكمون باقتصاد البلد، حيث أصبح التحكم ب ١٧ مادة أساسية من طعام الناس من قبل نفس العشيرة عامل قوة أضافي بعد التحكم بأجهزة الأمن وأجهزة الوعي.

ومع أزدياد تحكم العشيرة بالدولة سيحدث الصراع الذي لابد منه مع أجهزة الدولة والحزب. ولهذا التناقض أسسه في طبيعة العشيرة الحاكمة وفي طبيعة الدولة التي تريد العشيرة أن تحكمها. فالطابع المتعارض البدوى القبلي الزراعي للعشيرة يغير موقع السلطة فيها وخارجها.. فهناك من جانب كل مقومات سلطة قبلية تتركز فيها وتتوزع فيها مراكز النفوذ الأساسية في الجيش والأمن والمال، ولها جيش خاص من أفراد العشيرة والعشائر المتحالفة معها.. كل مشاكل السلطة العليا تحل قبليا وضمن شرائع تماسك القبيلة قبل ان تحل على مستوى الحزب أو الدولة. ومن جانب آخر توجد السلطة خارج القبيلة ممثلة بحزب يفترض أنه ضد القبلية والطائفية حزب ذو تشكيل وطني عام وكذلك جيش يفترض أن يكون ممثلا لكل قطاعات الشعب. كما أنعكست أزدواجية النظام في حقيقة أن القائد الذي يقدم نفسه رمزا للعراقيين بأديانهم وقومياتهم المختلفة يعتمد عمليا على أضيق حلقة من أقارب الدرجة الأولى. وقد

حاول مرة الخروج من حلقة العائلة بالزواج من أمرأة شيعية بغدادية (سميره الشابندر)، لكن رد الفعل تجاوز غيرة الزوجة الأولى، وشمل الأستنكار أقرب الناس اليه: أبنه عدي وزوجته وخاله. وينط وي ذلك على رفض أية خطوة لأستقلال سلطة الدولة عن سلطة العشيرة. حتى داخل العشيرة الواحدة هناك أستقطاب بين التكارته وبين أهل العوجة المحتقره من قبل التكارته. وفي هذا الصراع بين القبيلة والأجهزة المدنية كانت كل خطوة لتعزيز دور العشيرة تستتبعها بالتأكيد خطوة لأضعاف الأجهزة المدنية للحزب والدولة. على مستوى الحزب فقد القيت عليه أولا مسؤولية ماحدث في ماسماه النظام (صفحة الغدر والخيانة). وقد أشار صدام في كلمة أفتتاح المؤتمر القطري ١١ الى أن "أدوار بعض الرفاق من الكادر القيادي في المحافظات ليس كما يؤمل منهم ولم تعكس حالة التهيؤ والأستعداد التي ينبغي للكادر الحزبي أن يتمتع بها" وقد شهد هذا المؤتمر خطوة واسعة بأتجاه تعزيز دور القيادات العائلية في القيادة القطرية. ولكن الأمر لم يقتصر على قصور في الأداء أنما تعدى ذلك الى مشاركة العديد من الحزبيين في الأنتفاضة حيثما شاركت جماهير واسعة فيها ولذلك تقدم النظام خطوة كبيرة بأتجاه التقليل من شأن الحزب.. فأغلق المقرات الفرعية للحزب والمنظمات الشعبية ضمن حملة الترشيق عام ١٩٨٦ وفي ٢٦-٤-١٩٩١ أعلن عن حل الجيش الشعبي البالغ عدده مليون مجند وتحت الأحتياط.. و تحول عمل الحزب ومنظماته الى وسيط بين القائد والناس لتنظيم مسيرات الولاء ومكمل للجهاز الأداري بأتجاه حل الشؤون الأدارية للناس... وفي ١٨ تموز ١٩٩١ أعلن صدام في خطاب متلفز "على الذين لا يعملون بأخلاص أن يتركوا الحزب ويسلموا بطاقاتهم" وقد سمح للحزبيين لأول مرة بالأستقالة من الحزب بعد أن كانت محرمة كليا.. وقد أعلنت هذه الحقيقة رسميا مع الأعداد لقانون التعددية الحزبية حيث أعلن صدام أن سياسة الحزب الواحد أخفقت في تعبئة الجماهير خلف الثورة. وقد أنتقل الصراع الى جهاز الدولة ممثلا بالصراع بين الصهر حسين كامل الذي يسيطر لوحده على ثلاث وزارات مهمة (الدفاع والصناعة والنفط) وبين رئيس الوزراء المدني سعدون حمادي، وبين أجهزة الدولة وبين أجهزة الظل الموازية في مجالات الثقافة والشباب التي يشكلها الأبن عدي وأجهزة الظل الموازية لوزارتي الدفاع والداخلية التي يقودها الأبن قصي.. وقد أنتهى هذا الصراع بهزيمة رئيس الوزراء المدني أمام عسكر القبيلة.. ومعه هزمت آخر المحاولات لأعطاء الدولة طابعا مدنيا عصريا بالتقدم نحو شكل من التعددية..حيث كرس المؤتمر العاشروما بعده لهجوم الأبناء والأخوة وأبناء العم على المعجبين بالليبرالية الغربية. كما أنعكس هذا التعارض بين التنظيم الحضري والقبلي على الجيش الذي يفترض أن يكون تكوينا وطنيا فوق القبائل والطوائف والأديان. وعمليا يصعب على القيادات العليا ضبط جيش يكون الشيعة أكثر من ٦٠٪ من قاعدته.. ولذلك تعزز دور الحرس الجمهوري كقوة عسكرية ذات بنية قبلية من تحالف عشائر تكريت والمناطق المحيطة بها . وفي مقابل الجيش العام المكرس لحماية البلد من الحروب الخارجية ستكون مهمة الحرس الجمهوري أمنية (أهل الثقة) هي حماية الحكم وبالتحديد مركزه في القصر الجمهوري. ولكن خلال الحرب مع أيران لم تعد مهمة الحرس الجمهوري أمنية فقط تقتصر على حماية القصر والطرق المؤدية اليه والأذاعات ومحطات الأرسال. انما نقلت العديد من وحداته الى

الجبهات الخلفية كقوة قمع للجيش المقاتل بالأقامة في الجبهات الخلفية لمنع تراجع القطعات امام أي هجوم أيراني ولمعاجة أي أنكسار عسكري، و توسعت قواته الى فيلق ولم تعد تقتصر على المناطق التكريتية والمجاورة، ومع ذلك بقيت علاقته بالقصر يتلقى أوامره منه وليس من وزارة الدفاع. ولكن تفكك البنية القبلية داخل الحرس الجمهوري أستدعى تكوين قوة عسكرية أمنية بديلة في النصف ا لثاني من الثمانينات كجهاز أمني عسكري (الحرس الخاص) تحت قيادة صهر صدام حسين كامل. وتتكون البنية القبلية لهذا الجهاز من حلف بين العشيرة التكريتية الحاكمة وبين عشائر الجبور القريبة من تكريت بحيث يكون أفراد الحرس في الغالب من الجبور ، بينما ضباطهم من التكارتة المقيمين في القصر الجمهوري . ويتشكل الجهاز من قوة عسكرية ضاربة داخل الحرس الجمهوري " الوية الحرس الخاص المسؤلة عن بغداد وكل المقار المهمة وتكون جهاز (الحرس الخاص) من ١٣ فوجا يضم كل فوج ١٣٠٠-١٥٠٠جنديا وتتراوح أعمار المجندين بين ١٦-٢٠ عاما. وهم تربوا على أن القضاء على صدام يعني القضاء عليهم.. وقد تركز هدف الأجهزة الأمنية بالحلقة الأضيق في حماية مركز الحكم الجمهوري.

ومع تسط العشيرة الكلي على الحكم بدأ صدام يقوي مواقعه من خلال العودة الى علاقة الدولة بالعشائر ايام الأنتداب البريطاني والعهد الملكي. فعلى عكس العثمانيين الذين تركوا الريف لحاله مكتفين بجباية الضرائب من خلال الحملات العسكرية أراد الأنكليز تغيير المعادلة وأختراق الحياة العشائرية من فوق.. وكان السير هنري دوبس قد استوحى من خلال تجربته في بلوجستان قبل الحرب قانونا يعتمد مبدأ تعيين أو اعادة تعيين شيخ عشيرة واحد معترف به من سلطات الأحتلال واستمالته بمنحه الأراضي والرواتب والأسلحة وفي حالة تعذر ذلك تجري استمالة شيوخ منافسين أو اعادة شيوخ سبق وأن طردتهم قبائلهم.. ففي سوق الشيوخ مثلا تحايل الضابط البريطاني ديكسون لأعادة ٢٢ من الشيوخ الذين طردتهم قبائلهم ... واحيانا يجري استبعاد السراكيل أو يعطون صلاحيات مبالغ بها.. بأختصار كان هدف الأحتلال هو" صناعة شيوخ" كماهو الأمر مع "صناعة الملوك".. ميزات الشيوخ الجدد هو أنفصالهم عن قبائلهم مرتين.. موقعهم الروحي الذي يعتمد على قناعة الأفراد بدورهم سيتراجع لتقدم موقع الخوف من مهابتهم كسلطة مستقلة حين يستمدون نفوذهم وقوتهم من دعم سلطات الأحتلال المركزية بدلا من أفراد قبيلتهم وفي بعض مناطق الوسط والجنوب كانوا يستخدمون جلاوزة خاصين من العبيد او من خارج القبيلة لفرض سطوتهم عبر هذه القوة التابعة لهم ضد أفراد القبيلة... والأنفصال الثاني أقتصادي يقوم على تمايز الشيخ عن القبيلة بالملكية.. فمن خلال قانون التسوية الذي بدأ عام ١٩٣٣ قامت لجان التسوية التي يديرها موظفون بريطانيون بتسجيل مساحات واسعة من الأراضي بأسم شيوخ موالين لهم*... وفي العمارة مثلا كانت الأراضي تعطى للشيوخ بالألتزام عن طريق المزايدة.. واكتسى الأنتاج الزراعي الريفي طابعا بضاعيا بحيث تقلصت حصة الفلاح من أنتاجه "بحيث لاتكفي الفلاح حتى موسم الحصاد التالي" *لأن الملاكين يستحوذون على الفائض الأقتصادي المتحقق في الريف ويحولوه الى السوق الرأسمالية العالمية. وتبع ذلك أنفصال ثالث مكاني حيث ماعاد الشيوخ يعيشون في

الريف مع أفراد قبائلهم أما في قصور باذخة في المدينة، قريبا من السلطة المركزية ولديهم في الغالب (حوشية) من خارج القبيلة، مهمتهم أن يقيموا علاقة الشيخ بالقبيلة على أساس الخوف بدلا من التعاقد الأجتماعي القائم على الأصطفاء والأحترام الروحي، ويقومون بجباية العائدات من الفلاحين للشيوخ بالقوة .

ولكي تعطى سلطة الشيخ أطار قانونيا أصدرت سلطات الأحتلال نظاما كان قد وضعه السير هنري دوبس عندما كان مراقبا للشؤون المالية والقضائية في بلوجستان قبل الحرب، وهو نظام دعاوي العشائر المدنية الجزائية في ٢٧ تموز ١٩١٨ الذي يميز الأرياف ومناطق الرعي بتطبيق قانون مختلف عن قانون المدينة، يعتمد الأعراف القبلية ويكرسها، ويقوم على تعيين أو أعتراف سلطة الأحتلال بشيخ واحد من كل قبيلة يعترف به كعين في منطقة نفوذه من أعيان آخرين ويمنح رواتب وأسلحة من الدولة، ومقابل ذلك يكون مسؤولا أمام السلطة المركزية عن حفظ ممتلكات الأنكليز وطرق مواصلاتهم. وأعطى القانون لأستبداد الشيخ أطارا قانونيا يعتمد الأعراف القبلية بجعله مسؤولا عن سلوك الناس الخاضعين لمنطقة قبيلته للقبض على المجرمين. وتسري بعض بنود القانون على المدن القريبة. وبذلك تكرست ازدواجية ولاء المواطنين للريف بين الخضوع للقوانين الوطنية للدولة وبين الولاء لعرف العشيرة.

ولكن مع نمو المدن وقوة الدولة العسكرية بوجود المدافع والطائرات، وطرق المواصلات الحديثة، وبتنامي دور الطبقة الوسطى وأرتفاع دورها السياسي، أخترقت سطوة الشيوخ والحياة القبلية ببعض من تكوينات الدولة الحديثة كالأحزاب والمرجعيات الدينية ، اضافة للتجمعات العفوية ضد جور الشيوخ الأقطاعيين. وقد دخلت ثورة العشرين وما تلاها من خيانات الشيوخ والأقطاعيين للثورة مع سلطات الأحتلال لترفع من رصيد المدينة السياسي على حساب القبائل.. ونظرا للزيادة العددية للقوات المسلحة ولقوتها النارية الجوية والمدفعية تراجعت القوة العسكرية لشيوخ القبائل رغم بقاء نفوذهم الأقتصادي. وحسب حنا بطاطو فأن السهولة الفائقة التي قضى بها جنود بكر صدقي على تمردات العشائرفي عامي ٣٥و٣٦ كانت بمثابة الأعلان بنهاية قوة العشائر السياسية والعسكرية وأنتقال مركز الثقل الى المدن.

وكان القضاء على نفوذ الشيوخ والأقطاعيين وأحدا من الأهداف الأساسية للضباط الأحرارالذين وصلوا الى السلطة بعد ثورة تموز ١٩٥٨ لأنهم يشكلون ركيزة أساسية للنظام الملكي ولأن وجود قوى قبلية مسلحة يتنافي مع ركيزة الضباط الأحرار الذين يعتمدون على جيش واحد منضبط. ومن خلال القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٥٨ حددوا الملكية العليا بالف دونم من الأراضي المسقية والف دونم من الأراضي المطرية.. وبهذا التحديد أرادو تقليص نفوذ الأقطاعيين وجذب الطبقات الوسطى والدنيا من المزارعين. وقد دخلت الجمعيات الفلاحية كصلة تضامن بين الفلاحين خارج الأطر القبلية وصلة وصل مع الدولة مباشرة دون وساطة الشيوخ...

ثم صدر القانون رقم ١١٧ لسنة ١٩٧٠الذي أخذ بمبدأ الحد الأعلى طبقا لوضعالزراعة وكطريقة أروائها... ولكن مع مزيد من تحديد الملكية خاصة في كردستان بموجب القانون رقم ٩٠، الا أن توفر

أمكانيات مالية هائلة من عائدات النفط أتاح للدولة دخول الريف كمالك للمشاريع ومساهم في المشاريع الخاصة وشريك في المشاريع الفردية، واتاح لها تكوين برجوازية ريفية تستفيد من سلف الدولة وتسهيلات المكننة وتربط من خلالها بالدولة بمعزل عن العلاقات القبلية. ولكن مع تزعزع دور الحزب كقاعدة حماية للنظام خاصة في الريف الشيعي أو الريف المحاذي لكردستان ، وتقلص الجيش نتيجة لتطبيق القرارات الدولية من مليون الى ٤٠٠ مجند وتقلص أمكانيات الدولة المادية لتمويل حملات عسكرية مركزية بعيدا عن العاصمة، عمدت السلطة الى تطبيق التكتيك الذي سبق وأن جربته في كردستان على المناطق الأخرى.. فلضمان ولاء القبائل قامت بتعزيز الهيكلية المحافظة للعشائرعلى اساس أقتصادي وأمني... ولتشجيع الزراعة تقدمت الدولة كمشتر للأنتاج الزراعي بأسعار مغرية، ولكنها عمدت الى تقديم نفسها للفلاحين عبر وساطة الشيوخ القدامى الذين ازاحتهم قوانين الأصلاح الزراعي، فاعادت لهم اراضيهم المنتزعة ومعها سلطتهم القبلية الأقطاعية على الفلاحين. وعلى الطريقة الأنكليزية أقامت معهم نوعا من تعاقدات حماية متبادلة.. وفي فترة لاحقة تلت أنتفاضة عام ١٩٩٠ سيستمد صدام حسين التأييد من شيوخ العشائر بدلا من الحزب.. فلم تعد مسيرات التأييد التي تأتي لأسناده في مواجهة الأخطار ترتب على أساس التقسيم المهني للمنظمات أو القطاعي للمنظمات الحزبية، أنما على اساس قبائل تأتيه مع شيوخها وراياتها الخاصة لتقدم له الولاء موقعا بأ سم شيوخها. وتتم عملية التأييد العشائري وفق آلية جديدة تقوم على علاقات المنظمات الحزبية مع رؤوساء العشائر بدلا من العلاقات المباشرة مع الأفراد.. ففي البداية أستخدم نفس التكتيك المتبع مع العائلة لأختراق العشائر.. أي "زرع عين للحزب والثورة" يستمد تعليماته من مركز الدولة المسؤول ليكون موضع تأثير على العشيرة. لكن الأبناء لم يستطيعوا التأثير على العشائر رغم تبوئهم مراكز حساسة في الحزب. وبقيت داخل العشيرة سلطتان. أحداهما تستمد نفوذها من القبيلة، والثانية من قوة خارجها هي قوة الحزب الحاكم ، وأجبر الحزبيون في النهاية على أحترام التراتبية القبلية. وبموجب توجيهات المؤتمر القطري العاشر الذي دعا الحزبيين لتعبئة العشائر قامت الكوادر بعملية تجميع لرؤساء العشائر في المنطقة على شكل عراضات مسلحة من قبل الدولة تتجه نحو تأييد صدام. وهنا تتنحى قيادة المنظمة الى الخلف مقدمة رؤوساء العشائر والأفخاذ باعتبار التمثيل العشائري قد اخذ محل التمثيل الحزبي للمواطنين .. وقد نشرت الصحف العراقية يوم ١٥-٣-١٩٩٣ وقائع لقاء صدام مع رؤوساء وافخاذ عشائر ميسان التي شهدت قبل فترة التمرد الواسع ضد السلطة ووجود عدد كبير من اله اربين المسلحين في الأهوار. وقد مثلت المحافظة في هذا الحفل برؤساء قبائلها وليس بمنظماتها الحزبية أو الشعبية. بل أن اسم ممثل المنظمة الحزبية لم يذكر في وقائع الأستقبال، أنما ذكرت الوفود باسماء العشائر أبتداء من عشيرة بني لام التي قدمت القسم وهدية العهد لصدام، وهي بندقية مصنوعة من الذهب، وبعدها تأتي بقية العشائر حسب النفوذ (البو محمد، السواعد، البو دراج، آل أزيرج، عشيرة كعب، عشيرة السراي).. وذكرت أسماء رؤساء العشائر والأفخاذ بالتسلسل حسب الأهمية لتكريس هذه الترا تبية من قبل الدولة وأجهزة أعلامها دون أن تذكر القيادات الحزبية التي قامت بالتنظيم الأداري للحفل... وينطوي عهد العشائر الذي نشر في

مكان بارز على تولي العشائر نفسها وفق شرائع الشرف العشائرية مسؤولية الدفاع المنطقي بدلا من الجيش الشعبي، وتتولى سلطات المنظمات الحزبية ومنظمات الدولة البوليسية "أن ندحر الخيانة ونطارد المتسللين والمخربين والشذاذ والهاربين والمجرمين واللصوص... ونقسم أن لايكون بيننا وفي مدننا وقرانا وبين عشائرنا ومناطقنا كل ما يمت الى التخريب بصلة، وأن كل من يحنث بهذا القسم فهو خائن، وأن دم الخائن والمتسلل والهارب والعم بل مباح للجميع ولا يطالب بثأره أحد ولا يطالب بفصله أحد..." والتوقيع شيوخ العشائر ورؤساء الأفخاذ في محافظة ميسان. وينطوي هذا القسم الذي أقر من اعلى سلطة في الدولة على تغليب قانون العشيرة في القتل والفصل والثار وفق قانون العشيرة دون الرجوع لا للمؤسسات القضاء الرسمية ولا للجان التحقيق الحزبية والأمنية.. وفي عبارة مدننا التي ترد في القسم يغلب لأول مرة قانون العشائر وقضائها على المدن أيضا على نفس الطريقة التي تظمنتها المادة ٤٠ من قانون دعاوي العشائرالأنكليزي لعام ..١٩١٨ والأمر هنا لايتعلق بالتعبئة السياسية ضد عدو داخلي أو خارجي أنما سيشمل جنايات عادية كالسرقة والهروب من الجندية لتي هي من صلاحيات القضاء الرسمي والعسكري... وهذا الأقرار ينطوى على عودة لنظام دعاوي العشائر المدنية والجزائية الذي صدر في ٢٧ تموز ١٩١٨ بعد ٥٧ عاما من صدوره و٣٥ عاما من الغائه، الا أنه يسلط قانون العشيرة على المدن في خطوة جديدة نحو تريف المدن ونقل الصراع بين السلطة والشعب الى العشائر نفسها على الطريقة التي أستخدمت في كردستان لتكريد الحرب.. وينطوي هذا على تغيير وردة عن المجتمع المدني بأتجاه أعادة حروب القبائل مع تنظ يمها مجددا لصالح السطة التي ربطتهم بمصالح مثل اعادة أشكال ألأقطاع القديم الذي تقلص نفوذه منذ تموز ١٩٥٨وستمتلئ الصحف ببرقيات تأييد من رؤساء القبائل وأفخاذ العشائر من كل المدن بدلا من النقابات والأتحادات المهنية للمجتمع الحديث.

مناقشات

وحدة النظرية والمنهج

زكي خيري

-٢-

المرحلة اللينينة من الماركسية او الماركسية اللين

في الحلقة السابقة من "وحدة المنهج والنظرية" ناقشنا مقال عطية مسوح "نظرية ماركسية لينينية ام منهج مادي جدلي تاريخي"؟ المنشور في هذه المجلة (العدد ٢٥٢- ٢٥١). وفي هذه الحلقة وهي الثانية سنجادل الاستاذ على الفصل الثاني من مقالة: "٢-الماركسية والماركسية-اللينينية او النموذج الروسي".

ولكن مقدما اريد ان الفت نظر القارئ الى ما ورد في بداية مقاله المذكور: "اذا كان اعتبار لانهيارات المذهلة نتيجة التآمر الامبريالي الصهيوني وهو اسهل التفسيرات.. فانه باعتقادي ليس اكثرها صحة، بل ليس صحيحا على الاطلاق" اما انا فالحق اقول انني اعارض هذا النفي المطلق على وجه الاطلاق واسوق لاطلاع القارئ الاستشهاد التالي من طرف ثالث:

"كان الرؤساء الامريكيون قبل كندي قد ترددوا وتعثروا في اختيار الاسلوب الامثل الذي تستطيع به الرأسمالية الامريكية ان تنافس وتقهر الشيوعية السوفيتية: اتجه ترومان (١٩٤٥-١٩٥٢) الى المواجهة العسكرية فوقعت الحروب المحلية في البلقان وايران وفي كوريا. واتجه ايزنهاور (١٩٥٣-١٩٦٠) الى اسلوب الردع النووي الشامل ولكن هذا الاسلوب فقد مصداقيته لان احدا لم يكن مستعدا للوصول الى حافة الهاوية كما كانوا يسمونها. ثم جاء كندي (١٩٦٠) واعتمدت ادارته بكل ما فيها من كبار المفكرين (روبرت ماكنمارا، مارك جورج باندي، آرثر شيلز نجر، كينيت جالبرايت وغيرهم) اسلوبا آخر، لا هو الحرب ولا هو الردع، بل سباق التسلح. وكان ماكنمارا وزير الدفاع في عهد كندي هو اصرح

من عبر عن سياسة كندي في محاضرة امام اساتذة كلية الدفاع الوطني في واشنطن (١٤ ايلول ١٩٦١) بقوله: علينا ان نرغم الاتحاد السوفيتي على تغيير اولوياته: ان النظام الشيوعي يعد جماهيره بمجتمع من الرفاهية ينتفي فيه الفقر ومجتمع من المساواة ينتفي فيه التمايز الطبقي. ولتحقيق هذه الاهداف فان الاتحاد السوفيتي مطالب بان يضع التنمية كاولوية اولى قبل الامن، وعلينا ان نرغمه على ان يرفع اولوية الامن ويضعها قبل التنمية. وعلينا ان نشده الى سباق سلاح يقطع انفاسه ويرهق موارده ويتركه في النهاية ترسانة نووية بدون رغيف خبز او قطعة لحم، وكذلك فان غلبة الامن على الاولويات السوفيتية سوف تنعكس من الخارج الى الداخل فتزيد تركيز السلطة في يد المسؤولين عنه في اجهزة الحزب والدولة، مما يباعد بينهم وبين عامة الناس ويعزلهم". (محمد حسنين هيكل: حرب الخليج- اوهام القوة والنصر- المقدمةص٩).

وهكذا نرى ان الذئب الامبريالي الصهيوني لم يكن بريئا من دم بن يعقوب الاشتراكي. ومع ذلك فما من احد يستطيع ان يسئ الى الاشتراكية بقدر ما يستطيعه الاشتراكيون انفسهم كما قال لينين.

نعود لمناقشة الفصل الثاني حيث يتساءل الاستاذ مسوح عن دقة مصطلح "الماركسية- اللينينية" فيلقي عليه ظلا من الشك منذ بادئ ذي بدء، اذ ينسب صياغته الى ستالين. وبما ان هذه النسبة ليست دليلا بحد ذاتها على بطلان المصطلح، فقد انتقل المؤلف الى تحليل دور لنين في اغناء الماركسية ليرى ما اذا كان هذا الدور يستحق ان يؤهل صاحبه لمشاركة ماركس مشاركة الند للند.. وفضلا عن ذلك ليرى ما اذا كانت الثورة الروسية وكل ما تمخضت عنه تستحق اكثر من كونها "تراثا للاطلاع" وحسب.

ويقارن الاستاذ بين تراث انجلس الفكري وتراث لينين فيرجح الاول على الثاني ويتساءل: "فلماذا يختفي اسم انجلس وتصبح.. النظرية هي الماركسية اللينينية؟ واذا افترضنا ان الانجلسية متضمنة في الماركسية فان اللينينية هي كذلك ايضا لان لينين لم يكن الا ماركسيا" ثم يضيف "ان اغلب نشاطات لينين الفكرية هي روسية الطابع اي انها تدخل في اطار انتاج الماركسية روسيا.. وهذا الجانب لا يهمنا نحن غير الروس إلا من الزاوية التراثية، من زاوية الاطلاع على تجربة الحركة الثورية في مختلف البلدان. اما نشاطات لينين الفلسفية فهي ليست اكثر قيمة من نشاطات بليخانوف مثلا.. فلماذا تختفي البليخانوفية من تسمية الماركسية اللينينية؟"

قبل كل شئ اود ان اذكر القارئ ان جميع الشيوعيين، بمن فيهم الشيوعيون الاوروبيون كانوا يمجدون المعلمين الثلاثة: ماركس- انجلس- لينين على السواء وحسب التسلسل التاريخي، وفي الصور الرمزية للمعلمين الثلاثة بريشة الرسامين الروس لم يتميز الا ماركس بسيمائه الاسدية واعظم تمجيد ناله لينين هو "ماركس زماننا".

وهناك اجماع بين الشيوعيين على تسمية الماركسية اللينينية بتعاليم: ماركس- انجلس- لينين. وقد عاش ماركس وانجلس في زمن واحد. وكل عمل هام من اعمالهما كان مشتركا بينهما الى هذا الحد او

ذاك. وبعد وفاة ماركس قال انجلس عنه "انه كان بمقدوره ان يضع الماركسية لوحده اما انا فلم اكن قادرا على ذلك.. وان ماركس كان يعزف على القيثارة الاولى اما انا فعلى الثانية.. وقد بالغ انجلس في تواضعه هذا لحساب صديقه الراحل. وقد قدر لينين عبقريه مؤسسي الماركسية بدقة وقال: "ان ماركس كان اعمقهما فكرا..." ولم يظهر في حياة لينين وبعد وفاة ماركس تيار انتهازي داخل الماركسية، بل كانت الانتهازية خارج الصف الماركسي عهدذاك. اما لينين فقد برز كماركسي بعد وفاة انجلس وفي حقبة تاريخية جديدة عندما تحولت الراسمالية الى راسمالية امبريالية وظهرت في الصف الماركسي بالذات ميول انتهازية وشوفينية وبرز لينين على رأس التيارالثوري الاممي.

لقد طور لينين الماركسية في جميع مجالاتها... ففي عام ١٩٠٨ ألف عمله الفلسفي الاساسي "المادية والنقد التجريبي" الذي اعطى فيه تحليلا عميقا لآخر منجزات العلوم الطبيعية على ضوء الفلسفة المادية الديالكتيكية وطور المبادئ الاساسية للفلسفة الماركسية ولا سيما نظريتها العرفانية. كما ان نقده للماخية لم يفقد شيئا من اهميته حتى يومنا هذا، فانه يعلم الماركسيين كيف يناضلون ضد الفلسفة الرجعية. وبحمية طرح لينين مسألة الحزبية في الفلسفة مطالبا الماركسيين ان يناضلوا بصدق وثبات ضد اي طراز وكل طراز من المثالية او الميتافيزيائية. وقد عمل بجهد لتطوير الديالكتيك المادي واتمامه وبين مرونة الديالكتيك وغناه وتعدد قدراته، باعتباره نظرية للتطور. وعلل المبدأ الهام غاية الاهمية القائل بوحدة الديالكتيك (المنهج) والمنطق ونظرية المعرفة. وفيه اعطى لينين تحليلا شاملا للمسألة الاساسية في الفلسفة: المادية أم المثالية؟ هل يمكن معرفة العام ام لا يمكن؟ كما عرف اهم مقولات الفلسفة الماركسية (كالمادة، والحركة، والزمان، والمكان، والسببية، والحرية والضرورة) وطور تطويرا خلاقا نظرية المعرفة الماركسية، ولاسيما نظرية الانعكاس، ودور ال ممارسة في المعرفة، ومكانة الاحساسات ودورها في الادراك، والحقيقة الموضوعية، والعلاقة بين الحقيقة المطلقة والنسبية، والقضايا الاساسية في المادية التاريخية. ومما له اهمية خاصة تعميم لينين للمعطيات الجديدة التي كدستها العلوم الطبيعية. وقد سجلت الاكتشافات الفيزيائية الباهرة في ملتقى القرنين بداية ثورة في العلوم الطبيعية. ولكن هذه الاكتشافات تمخضت عن ازمة حادة في تطور العلوم الطبيعية، ازمة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالمثالية الفيزيائية. وقد عرى لينين الجذور الطبقية والعرفانية لهذه المثالية. وبرهن على ان الاكتشافات الجديدة في الفيزياء ابعد ما يكون من ان تفند المادية وانما على العكس جاءت برهانا جديدا للمادية الديالكتيكية. وبعد ان لخص لينين آخر المنجزات العلمية، برهن برهانا مقنعا على الاهمية العظيمة لمنهج الديالكتيك المادي لتقدم العلم وللتغلب على الازمة في صفوف العلوم الطبيعية.

وقد طور لينين تطويرا شاملا الديالكتيك المادي بتطبيقه على ظروف الحياة الاجتماعية الجديدة.

لقد بز لينين بليخانوف في تطوير الفلسفة الماركسية لا بكثرة مؤلفاته في هذا المجال بل في تعميق الفلسفة واتقانها. فمثلا في قانون "وحدة الاضداد وصراعها" ضرب بليخانوف الامثلة فقط في حين طوره لينين واتقنه واستكمله من جميع الجوانب باعتباره القانون الرئيسي في الديالكتيك.

وخلال الحرب العالمية الاولى توقع لينين دنو الثورة البروليتارية التي انضجتها ظروف المجزرة البشرية، فكرس جهدا لدراسة الفلسفة باعتبارها مرشدا للانسانية في محنتها التاريخية. والف كتابه "الدفاتر الفلسفية" وفيه طور الديالكتيك المادي ووضع برنامجا لهذا التطوير.

وفي ميدان الاقتصاد السياسي اكتشف القوانين الاقتصادية والسياسية المتحكمة في تطور الرأسمالية في المرحلة الامبريالية، متابعا تحليل الرأسمالية على منوال ماركس. واذا كان تطور الظروف التاريخية قد خلف بعض استنتاجات لينين في هذا الصدد الى الوراء، فهذا يحدث لكل علم ولكل عالم بمن فيهم ماركس وانجلس وسائر الماركسيين. فالظروف تتغير باستمرار وعلى العلماء ان يتابعوا هذا التغيير ويأخذوه بالحسبان. وكذلك خلف لنا لينين بحوثا قيمة عن الراسمالية في الزراعة وهذا موضوع بالغ الاهمية وبالغ الصعوبة.

وابرز منجزات لينين العلمية في علم الثورة: الثورة الاشتراكية، وفي الانتفاضة المسلحة. وقد طور نظرية ماركس في الثورة غير المنقطعة، من الثورة الديمقراطية بقيادة الطبقة العاملة الى الثورة الاشتراكية، وحلف العمال والفلاحين. ولم يكن ذلك شأنا خاصا بروسيا، ولم يطبق في الثورة الروسية فقط بل في عدة ثورات اخرى كالثورة الصينية والفيتنامية، وغيرها التي شملت نحو ثلث سكان العالم، اي اربعة او خمسة امثال شعوب روسيا، مع الاخذ بعين الاعتبار اختلاف تلك البلدان في ظروفها التاريخية والوطنية. وقد ادت هذه المنجزات مهمتها التاريخية. واذ تغيرت الظروف فان ذلك يستدعي تطوير النظرية، وهذه مهمة الاجيال الحالية والمقبلة من المنظرين.

كان بليخانوف اكبر من لينين سنا باربعة عشر عاما، وعندما كان عمر لينين لا يتجاوز (١٣) سنة، اسس بليخانوف اول منظمة ماركسية روسية في سويسرا باسم "جماعة تحرير العمل" التي اسست الحركة الماركسية في روسيا وحققت انتصارها في الحركة الثورية على النارودنية "الشعبوية". ولا تزال كتبه تحتفظ بقيمتها التربوية الكبرى في دراسة الفلسفة السوسيولوجيا. ومن المآخذ على فلسفته التقليل من دور الذات في التطور التاريخي. ومع ذلك فقد طور الفلسفة الماركسية واغناها وجعلها في متناول طلابها. ولاسلوبه الأخاذ قيمة تربوية عظيمة فضلا عن مضمونه الفلسفي العميق.

اما في الممارسة السياسية، في النضال الطبقي للبروليتاريا، فلم يلتق علم بليخانوف بعمله، بل افترقا منذ انضمامه الى الانتهازيين "المنشفيك" عام ١٩٠٣، وافدح اخطائه موقفه الشوفيني من الحرب الامبريالية العالمية (١٩١٤-١٩١٨). وكان هذا الموقف خيانة للاممية البروليتارية، اممية ماركس وانجلس وشعارها: "يا عمال العالم اتحدوا!". لقد ايد بليخانوف الامبريالية القيصرية الروسية في الحرب تحت الشعار المزيف "الدفاع عن الوطن". والحال دخلت القيصرية الحرب لاعادة شعار الدفاع عن الوطن تضليلا للطبقة العاملة ليذبح بعضها بعضا: العامل الروسي يذبح العامل الالماني، والالماني يذبح الفرنسي وهلمجرا.

وبقي لينين امينا للاممية البروليتارية امانة ماركس وانجلس لها. وكان يرى ان وحدة عمال العالم اهم من وحدة عمال البلد الواحد لان انقسام عمال العالم يعني تذابحهم. وقد صمد لينين والبلاشفة بوجه

الطوفان الشوفيني الذي اطلقته الامبريالية وصاغ شعار: تحويل الحرب الامبريالية الى حرب اهلية لاسقاط النظم الامبريالية وانهاء حربها. ولم يكن هذا الشعار موجها للعمال الروس وحدهم بل للطبقة العاملة في جميع البلدان المتحاربة. ولو لم يكن للينين سوى هذا الموقف الاممي من الحرب الامبريالية لكفى ذلك لجعله ممثلا للماركسية الثورية الاممية. وخلال الحرب العالمية الاولى كان كل اشتراكي ثوري امميا، وكل اشتراكي اممي ثوريا. وغدا كل اشتراكي انتهازي اشتراكيا شوفينيا.

بيد ان تلك لم تكن مأثرة لينين الوحيدة التي اهلته لقيادة الماركسية الاممية ولمواصلة تطوير الماركسية نظريا واستعمالها منهجا لتغيير العالم، وقد انتصر في هذا الشأن انتصارا تاريخيا مشهودا.

ان تقليل الاستاذ مسوح من شأن افكار لينين بوصفه لها "روسية الطابع" واختزاله اياها الى "تراث للاطلاع" له ما يماثله في الماضي من استهانة بافكار ماركس وانجلس. فالبيان الشيوعي الشهير "المانيفستو" لم يكن سوى برنامج لجمعية سرية المانية ولكنه ما لبث ان غدا دستورا عالميا للشيوعيين في كل مكان. و "رأس المال" وهو اهم كتاب ماركسي كان دراسة للرأسمالية في بريطانيا فاصبح مدرسة للجميع.. ان الاستاذ رغم تبنيه "المنهج المادي الجدلي التاريخي" يتجاهل علاقة الجزء بالكل الديالكتيكية: تجربة قطر معين بالنسبة لجميع الاقطار.. ولا يعير اهتماما للنضال الطبقي ولعلم الثورة ومن هنا قلة اكتراثه بالثورة الروسية، اما لينين معلم الثورة فقد درس تاريخ الثورات واستخلص منه الدروس وطبقها في الثورة الروسية بابداع. وقد تعلمت ثورات اخرى من الثورة الروسية ومنها الثورة الصينية.. والحال ان البرجوازية العربية لم تتردد في الاقتباس من الثورات البرجوازية الغربية، ولاسيما الثورة الفرنسية الكبرى على بعد الزمان والمكان واختلاف الظروف التاريخية. ان روسيا ليست قطرا من حجم فرنسا او بريطانيا بل قارة كبرى تشغل سدس اليابسة. كانت تتعايش فيها انماط اجتماعية شتى من رأسمالية الدولة الاحتكارية الاشد تركيزا وتمركزا الى بقايا من الشيوعية البدائية والقبلية ما قبل الاقطاعية، وكانت تمتد كجسر بين مراكز الامبريالية فاتحة عهد الثورة في آسيا وافريقيا. فكيف يمكننا اختزال تجربة الثورة الروسية واللينينية التي عكست تلك التجربة الى محض تراث للاطلاع في حين يدرس العسكريون حتى حروب اسكندر المقدوني وهنيبال التونسي لا لمجرد الاطلاع على التراث العسكري بل لاستنباط الدروس للعلم العسكري واغنائه؟ فلماذا لا نتعلم فن الانتفاضة مثلا من لينين ؟!

ويوزع الاستاذ مسوح نشاط لينين الفكري على ثلاثة ميادين:

– "ميدان روسي، محتواه اعادة انتاج الماركسية روسيا. اي وفق ظروف روسيا وخصائصها. ويدخل في هذا الاطار ما وضعه من افكار حول "الحزب من طراز جديد" و "دكتاتورية البروليتاريا" و "تحالف العمال والفلاحين" وتصوراته حول طريق بناء الاشتراكية وغير ذلك...".

– "ميدان يعد دفاعا عن افكار ماركس وانجلس وتوضيحا لها. ويدخل في هذا الاطار ما كتبه حول "المادية والمذهب النقدي التجريبي" و "الدولة والثورة" وغيرها".

– "ميدان ثالث يعد تطويرا لافكار ماركس وانجلس واستكمالا لها، وذلك بدراسة ظاهرات لم تكن واضحة في ايامها، كدراسته للامبريالية".

في الميدان الاول وحسب تعبير الاستاذ "ميدان روسي.." وحصر اهميته بالاطلاع فقط، وضع دكتاتورية البروليتاريا والحزب من طراز جديد وحلف العمال والفلاحين، في حين وضع عمل لينين "الدولة والثورة" في الميدان الثاني وحسب تعريفه "ميدان يعد دفاعا عن افكار ماركس وانجلس وتوضيحها" فكل من اطلع على كتاب لينين هذا يرى ان محوره هو دكتاتورية البروليتاريا وكل من له المام بموضوع دكتاتورية البروليتاريا يعرف ان المرجع الرئيس لدراستها هو كتاب لينين "الدولة والثورة" فما الداعي لهذا التوزيع المفتعل للشئ نفسه؟

ولذلك بدأ النظام بمناقشة موضوعة التعددية في الأطار القيادي في الأشهر الأولى من عام ١٩٨٩. ولكن أية خطوة نحو التعددية محكومة بمخاوف القيادة العراقية من أي تراخ في قبضة الدولة. والتجارب التي اجتاحت العالم تعطي النظام العراقي الحكمة المعكوسة.. فأبتداء من شاه ايران وانتهاء بشاوشسكو، لم تتساقط الظمة الحزب الواحد، او انظمة الفرد الواحد نتيجة لأنفجار الكبت الطويل الذي مارسته ضد شعوبها، انما لأنها أجبرت في اللحظات الأخيرة على ان تفتح في جدار القمع ثغرة هامشية لم تستطع التحكم بها في النهاية. ومن هنا، كما يتصور العقل الأمني، بدأ الأنهيار.. و كانت أجهزة الأعلام العراقية تركز على أحداث العنف في اعقاب انفلات الجماهير المكبوتة.. فتحت عنوان (طاعون الديمقراطية) كتب مدير التوجيه المعنوي عبد الجبار المحسن في ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٣ في جريدة (بابل) التي يصدرها عدي صدام حسين "وأتأمل كما تتأملون شاشة التلفاز، وأرى كما ترون أن العالم ليس سوى رواية مأساوية، أو فلما من أفلام الرعب صنعته يد فنان مقتدر.. فهذه شعوب قد دب الشقاق بين صفوفها فراح يقتل بعضها بعضا، طوابير من الدبابات يحركها البعض ضد البعض، ومدفعية ثق يلة يرمي بعضها البعض... فتتقوض البيوت على ساكنيها وتتهدم معالم الحضارة والتراث".... ويمضي الكاتب واصفا المشاهد اليومية المروعة التي يعرضها التلفزيون عن جثث قتلى، نساء ثاكلات، طوابير من مهاجرين بلا مأوى، جوع وتهالك على فرق الأغاثة الدولية... ثم يطرح السؤال "من الذي زرع هذا الطاعون ليجعل الموت غاية وخلاصا؟" وجوابه الوحيد هو "طاعون الديمقراطية" .. وينتهي الكاتب بالدعاء "ربنا لك الحمد أن وهبتنا صدام، وأبقيت لنا صدام حسين، فلولاه لكنا المثال الأسوأ بين هذه الصور".. من هذه المقدمة والتسبيب والأستنتاج النهائي نرى أن أن البديل الوحيد لعنف الدولة (المشروع) هو عنف الحرب الأهلية الفالتة على غرار المثال اللبناني والأيراني وأوربا الشرقية، ودكتاتورية صدام حسين مقدمة كبديل وحيد للحروب الأهلية التي شملت معظم الدول التي سقطت فيها أنظمة الحزب الواحد. ويبدو أن نهاية الأتحاد السوفياتي ويوغسلافيا كدولة وكيان قدمت عونا للنظام العراقي لتقديم الليبرالية كمؤامرة تهدف لتفكيك الكيان العراقي. ولذلك كانت القيادة العراقية تستبعد تماما "الديمقراطية على النمط الغربي" كما تقول مداخلة صدام في هذه المناقشة وتتذرع بطبيعة المجتمع العراقي الذي لم ينضج بعد لمثل هذه الديمقراطيات "بسبب غياب الدولة الوطنية لمدة سبعمائة سنة في حدها الأدنى، وهي الفترة الممتدة بين سقوط بغداد عام ١٢٥٨ حتى العصر الحديث، أي ما يقارب الألف سنة من الضيم "تجعل من الخطر اعطاء الديمقراطية دفعة واحدة.. ولذلك فضل النظام تقديم وعد

الديمقراطية على شكل اقساط بلا سقف زمني، أنما مرهونة بتطور واقع الحال وزوال دوامة حالة الطوارئ المغلقة التي تحولت الى سبب ونتيجة في نفس الوقت. وكانت هذه الوعود هي مراوحة بين الخوف والخوف: الخوف من أن تزداد ضغوط الواقع الخارجي والداخلي فيحدث المحذورالذي نبه صدام حسين قيادته اليه "أن ترغم أرغاما على ان تفعل شيئا أراده طرف من الأطراف خارجك وقبل أن تختمر فكرته الصحيحة في عقلك وينتقل الى التصرف في وقته الصعب".. يقابل ذلك خوف معاكس ينشأ عند الأستجابة لهذه الضغوط، وآنذاك يفلت كل المكبوت في قمقم القمع خارج سيطرة النظام.. وهنا تدخل الأرادوية معتمدة على خصوصية خارج القوانين العامة فتصور امكانية جمع النقائض في سلة واحدة:

* نظام جمهوري يقوده حزب واحد (عربي اشتراكي)..

* وفي نفس الوقت شكل من الملكية الذي يقوم على حكم العائلة المتوارث والبحث عن شرعية غير تلك المكتسبة من انقلاب ١٧ تموزللتقرب من الغرب والأنظمة الملكية في الخليج والأردن.

* اقامة نظام برلماني (مجلس وطني) ..

* ولكن معظم المرشحين للبرلمان ينبغي ان تزكيهم قيادة احزب وتؤكد ولاءهم لخط الثورة ومبادئ قادسية صدام قبل ان ينتخبهم الجمهور.

*اقامة مجلس وزراء يفترض أن يقوم بالتشريع والتنفيذ..

* ولكن فوقه مجلس قيادة ثورة مخول بحق التشريع واصدار القوانين والقرارات.

* ديمقراطية..

* ولكنها (مركزية) محددة وموجهة ضمن منطلقات ثورة ١٧ تموز.

* تعددية..

* ولكن الأحزاب الأخرى ملزمة بالأقرار بالأحقية التأريخية للحزب القائد والولاء لمنطلقاته، بل وحتى لقادسية صدام.

* نظام رئاسي دستوري..

* ولكنه يقر في دستوره بالدور المميز للرئيس بأعتباره أيضا "رمز الشعب وقائده" وقد اعلي الرئيس على البرلمان بأنتخابه من الشعب مباشرة وليس عبر البرلمان. وأعطي من الصلاحيات ماتجعله قادرا على تعطيل الدستور والبرلمان وعمل الحكومة.

وقد أستقرت المراوحة بين المتناقضات وبين التسميات "المركزية الديمقراطية أم الديمقراطية المركزية؟" على نوع من أعادة أخراج صورية لشكل الحكم.. فالتعددية مشروطة بالولاء لمنطلقات الحزب القائد. ويبقى الدستور مجرد حبر على ورق ما دام القائد الواحد مزود بصلاحيات تعديل وتعطيل الدستور... ويمكن تعطيل كل ذلك بوجود حالة طوارئ يستند عليها الحكم لألغاء الجواب حول سؤال ((الديمقراطية؟)).

ومهما أخفقت الأنتفاضة ومهما كانت أسباب هذا الأخفاق فقد خلقت مازقا للحكم في كل ركائزه. فقد جسدت أخفاق خطاب النظام بكامله في لحظة الهزيمة بما تحمله من فروق فادحة بين وعود النظام ونتائج الحرب.. وقد شاركت في الأنتفاضة وبدرجات مختلفة ومتفاوتة كل قطاعات الاشعب.. عرب وأكراد سنة وشيعة ومسيحيين. على المستوى الحزبي تجلى الأخفاق في حقيقة أن جيل الأنتفاضة هو نفس الجيل الذي أعتبره صدام حسين محجوزا لحزبه وحده والذي قضى كل حياته وأرتبطت كل معارفه بالحقيقة الكلية للحزب الواحد والفرد الواحد، أي أن الأنتفاضة جسدت أخفاق عشرين عاما من التعبئة العقائدية على نبرات ثابتة. ومن النتائج التي أفرزتها الأنتفاضة على الحكم هي تخلخل القاعدة الحزبية بل ومشاركتها في معظم المدن التي شهدت تحركا واسعا. وكلما تزعزعت الثقة بأجهزة الحزب والدولة أزداد أنغلاق النظام داخل الكتلة القبلية وبالتحديد قرابات الدرجة الأولى. وبعد تقليص حجم الجيش وتسليحه بموجب القرارات الدولية بحيث لايعود يشكل قوة للتهديد أو الدفاع الخارجي، أتجه هم النظام لتكريس كل الطاقات نحو الأمن الداخلي.. وهنا حدث أختلاط بين مهمات وزارة الدفاع والداخلية.. وقد ت ناوب عليهما أبن عم صدام علي حسين المجيد و صهره حسين كامل.. ولكن جوهر التغيرات الجديدة هو المزيد من تركز قيادة هذه الأجهزة داخل القصر وتحت القيادة المباشرة للعائلة (أبن صدام قصي المسؤول عن جهاز الأمن الخاص والحرس الجمهوري، أخوه وطبان وزير الداخلية ، وأخوه سبعاوي مدير الأمن العام).. وقد تركز هدف الأجهزة الأمنية بالحلقة الأضيق في حماية مركز الحكم في القصر الجمهوري بأنشاء من قوة عسكرية ضاربة داخل الحرس الجمهوري " الوية الحرس الخاص المسؤولة عن بغداد وكل المقار المهمة. وقد تكونت حول النظام ثلاثة كتل من أقارب الدرجتين الأولى والثانية: كتلة الأبناء عدي يسيطر على أجهزة الشباب والثقافة والأعلام وقصي يسيطر على أجهزة الأمن بينما الأخوة وطبان لوزارة الداخلية وبارزان للشؤون الخارجية وأدارة الودائع المالية في الخارج وسبعاوي لأدارة الأمن العام. أما كتلة أبناء العم فتولت وزارتي الدفاع والداخلية والتصنيع العسكري. وخلال الصراع بين الكتل تعززت علاقة الأخوة بالأبناء من خلال زواج عدي من أبنة خاله بارزان.

وهناك داخل العشيرة تداخل بين السلطة الأمنية والسلطة المالية، فكل قطب في الحكم يشاركه قطب في المال من أقارب الدرجة الأولى يمثل أمتداده في عالم التجارة والمقاولات. وبين رجل المال والأمن داخل العشيرة ثمة مايشبه ميثاق حماية وأسناد.

وأذا كان التداخل بين السلطة الأمنية والسلطة المالية قد أقام سابقا علاقة خلفية بحيث أن كل قطب في الحكم يشاركه قطب في المال من أقارب الدرجة الأولى ليس له منصب حكومي ولكنه يمثل أمتداده في عالم التجارة والمقاولات، فأن هذه الرابطة أزدادت لحمة في ظروف الحصار الأقتصادي الذي فرضه الغرب.. لقد تحقق أندماج كبيرين الأثنين بتحكم العشيرة بالأقتصاد حسب التراتبية الأمنية أبتداء من فوق.. ففي التقرير السنوي لعام ١٩٩٣ لديوان الرقابة المالية لم يرد في الحقل الخاص بوزارة النفط أي ذكر لكميات النفط المباع في الأسواق الخارجية. وتقدر بعض الأوساط أن هناك ما قيمته ١،٢ مليار دولار من النفط تباع بطرق ملتوية بأشراف متبادل بين عدي صدام حسين الذي أنشأ شركة نفط أهلية

تحت أدارته.. وأخ صدام غير الشقيق برزان التكريتي الذي يقيم في سويسرا تحت واجهة منصبه الرسمي. ويشرف ديوان رئاسة الجمهورية مباشرة على كيفية صرف عائدات النفط هذه أضافة الى الـ ٥٪ من حصة كولبنكيان التي اممت عام ١٩٧٠ وحولت الى حساب سري تحت أشراف الحزب، ثم تحت أشراف صدام المباشر. وقد أخرجت صادرات النفط عن صلاحية الوزارة المعنية لسببين:

امني يملي أخفاء أتجاهات صرف عائدات النفط على الأسلحة والأمور الأمنية. وعشائري يهدف لزيادة تحكم العسيرة بالأقتصاد كمصدر قوة يضاف للأمن وأجهزة الأعلام. وهناك ١٣٠ أسما من الطبقة القيادية العليا يتحكمون باقتصاد البلد، حيث أصبح التحكم ب ١٧ مادة أساسية من طعام الناس من قبل نفس العشيرة عامل قوة أضافي بعد التحكم بأجهزة الأمن وأجهزة الوعي.

ومع أزدياد تحكم العشيرة بالدولة سيحدث الصراع الذي لابد منه مع أجهزة الدولة والحزب. ولهذا التناقض أسسه في طبيعة العشيرة الحاكمة وفي طبيعة الدولة التي تريد العشيرة أن تحكمها. فالطابع المتعارض البدوى القبلي الزراعي للعشيرة يغير موقع السلطة فيها وخارجها.. فهناك من جانب كل مقومات سلطة قبلية تتركز فيها وتتوزع فيها مراكز النفوذ الأساسية في الجيش والأمن والمال، ولها جيش خاص من أفراد العشيرة والعشائر المتحالفة معها.. كل مشاكل السلطة العليا تحل قبليا وضمن شرائع تماسك القبيلة قبل ان تحل على مستوى الحزب أو الدولة. ومن جانب آخر توجد السلطة خارج القبيلة ممثلة بحزب يفترض أنه ضد القبلية والطائفية حزب ذو تشكيل وطني عام وكذلك جيش يفترض أن يكون ممثلا لكل قطاعات الشعب. كما أنعكست أزدواجية النظام في حقيقة أن القائد الذي يقدم نفسه رمزا للعراقيين بأديانهم وقومياتهم المختلفة يعتمد عمليا على أضيق حلقة من أقارب الدرجة الأولى. وقد حاول مرة الخروج من حلقة العائلة بالزواج من أمرأة شيعية بغدادية (سميره الشابندر)، لكن رد الفعل تجاوز غيرة الزوجة الأولى، وشمل الأستنكار أقرب الناس اليه: أبنه عدي وزوجته وخاله. وينط وي ذلك على رفض أية خطوة لأستقلال سلطة الدولة عن سلطة العشيرة. حتى داخل العشيرة الواحدة هناك أستقطاب بين التكارته وبين أهل العوجة المحتقره من قبل التكارته. وفي هذا الصراع بين القبيلة والأجهزة المدنية كانت كل خطوة لتعزيز دور العشيرة تستتبعها بالتأكيد خطوة لأضعاف الأجهزة المدينية للحزب والدولة. على مستوى الحزب فقد القيت عليه أولا مسؤولية ماحدث في ماسماه النظام (صفحة الغدر والخيانة). وقد أشار صدام في كلمة أفتتاح المؤتمر القطري ١١ الى أن "أدوار بعض الرفاق من الكادر القيادي في المحافظات ليس كما يؤمل منهم ولم تعكس حالة التهيؤ والأستعداد التي ينبغي للكادر الحزبي أن يتمتع بها" وقد شهد هذا المؤتمر خطوة واسعة بأتجاه تعزيز دور القيادات العائلية في القيادة القطرية. ولكن الأمر لم يقتصر على قصور في الأداء أنما تعدى ذلك الى مشاركة العديد من الحزبيين في الأنتفاضة حيثما شاركت جماهير واسعة فيها ولذلك تقدم النظام خطوة كبيرة بأتجاه التقليل من شأن الحزب.. فأغلق المقرات الفرعية للحزب والمنظمات الشعبية ضمن حملة الترشيق عام ١٩٨٦ وفي ٢٦-٤-١٩٩١ أعلن عن حل الجيش الشعبي البالغ عدده مليون مجند وتحت الأحتياط.. و تحول عمل الحزب ومنظماته الى وسيط بين القائد والناس لتنظيم مسيرات الولاء ومكمل للجهاز الأداري بأتجاه حل

لشؤون الأدارية للناس... وفي ١٨ تموز ١٩٩١ أعلن صدام في خطاب متلفز "على الذين لا يعملون بأخلاص أن يتركوا الحزب ويسلموا بطاقاتهم" وقد سمح للحزبيين لأول مرة بالأستقالة من الحزب بعد أن كانت محرمة كليا.. وقد أعلنت هذه الحقيقة رسميا مع الأعداد لقانون التعددية الحزبية حيث أعلن صدام أن سياسة الحزب الواحد أخفقت في تعبئة الجماهير خلف الثورة. وقد أنتقل الصراع الى جهاز الدولة ممثلا بالصراع بين الصهر حسين كامل الذي يسيطر لوحده على ثلاث وزارات مهمة (الدفاع والصناعة والنفط) وبين رئيس الوزراء المدني سعدون حمادي، وبين أجهزة الدولة وبين أجهزة الظل الموازية في مجالات الثقافة والشباب التي يشكلها الأبن عدي وأجهزة الظل الموازية لوزارتي الدفاع والداخلية التي يقودها الأبن قصي.. وقد أنتهى هذا الصراع بهزيمة رئيس الوزراء المدني أمام عسكر القبيلة.. ومعه هزمت آخر المحاولات لأعطاء الدولة طابعا مدينيا عصريا بالتقدم نحو شكل من التعددية..حيث كرس المؤتمر العاشروما بعده لهجوم الأبناء والأخوة وأبناء العم على المعجبين بالليبرالية الغربية. كما أنعكس هذا التعارض بين التنظيم الحضري والقبلي على الجيش الذي يفترض أن يكون تكوينا وطنيا فوق القبائل والطوائف والأديان. وعمليا يصعب على القيادات العليا ضبط جيش يكون الشيعة أكثر من ٦٠٪ من قاعدته.. ولذلك تعزز دور الحرس الجمهوري كقوة عسكرية ذات بنية قبلية من تحالف عشائر تكريت والمناطق المحيطة بها . وفي مقابل الجيش العام المكرس لحماية البلد من الحروب الخارجية ستكون مهمة الحرس الجمهوري أمنية (أهل الثقة) هي حماية الحكم وبالتحديد مركزه في القصر الجمهوري. ولكن خلال الحرب مع أيران لم تعد مهمة الحرس الجمهوري أمنية فقط تقتصر على حماية القصر والطرق المؤدية اليه والأذاعات ومحطات الأرسال. انما نقلت العديد من وحداته الى الجبهات الخلفية كقوة قمع للجيش المقاتل بالأقامة في الجبهات الخلفية لمنع تراجع القطعات امام أي هجوم أيراني ولمعاجة أي أنكسار عسكري، و توسعت قواته الى فيلق ولم تعد تقتصر على المناطق التكريتية والمجاورة، ومع ذلك بقيت علاقته بالقصر يتلقى أوامره منه وليس من وزارة الدفاع. ولكن تفكك البنية القبلية داخل الحرس الجمهوري أستدعى تكوين قوة عسكرية أمنية بديلة في النصف ا لثاني من الثمانينات كجهاز أمني عسكري (الحرس الخاص) تحت قيادة صهر صدام حسين كامل. وتتكون البنية القبلية لهذا الجهاز من حلف بين العشيرة التكريتية الحاكمة وبين عشائر الجبور القريبة من تكريت بحيث يكون أفراد الحرس في الغالب من الجبور ، بينما ضباطهم من التكارتة المقيمين في القصر الجمهوري . ويتشكل الجهاز من قوة عسكرية ضاربة داخل الحرس الجمهوري " الوية الحرس الخاص المسؤلة عن بغداد وكل المقار المهمة وتكون جهاز (الحرس الخاص) من ١٣ فوجا يضم كل فوج ١٣٠٠-١٥٠٠جنديا وتتراوح أعمار المجندين بين ١٦-٢٠ عاما. وهم تربوا على أن القضاء على صدام يعني القضاء عليهم.. وقد تركز هدف الأجهزة الأمنية بالحلقة الأضيق في حماية مركز الحكم الجمهوري.

ومع تسلط العشيرة الكلي على الحكم بدأ صدام يقوي مواقعه من خلال العودة الى علاقة الدولة بالعشائر ايام الأنتداب البريطاني والعهد الملكي. فعلى عكس العثمانيين الذين تركوا الريف لحاله مكتفين

بجباية الضرائب من خلال الحملات العسكرية أراد الأنكليز تغيير المعادلة وأختراق الحياة العشائرية من فوق.. وكان السير هنري دوبس قد استوحى من خلال تجربته في بلوجستان قبل الحرب قانونا يعتمد مبدأ تعيين أو اعادة تعيين شيخ عشيرة واحد معترف به من سلطات الأحتلال واستمالته بمنحه الأراضي والرواتب والأسلحة وفي حالة تعذر ذلك تجري استمالة شيوخ منافسين أو اعادة شيوخ سبق وأن طردتهم قبائلهم.. ففي سوق الشيوخ مثلا تحايل الضابط البريطاني ديكسون لأعادة ٢٢ من الشيوخ الذين طردتهم قبائلهم ... واحيانا يجري استبعاد السراكيل أو يعطون صلاحيات مبالغ بها.. بأختصار كان هدف الأحتلال هو" صناعة شيوخ" كماهو الأمر مع "صناعة الملوك".. ميزات الشيوخ الجدد هو أنفصالهم عن قبائلهم مرتين.. موقعهم الروحي الذي يعتمد على قناعة الأفراد بدورهم سيتراجع لتقدم موقع الخوف من مهابتهم كسلطة مستقلة حين يستمدون نفوذهم وقوتهم من دعم سلطات الأحتلال المركزية بدلا من أفراد قبيلتهم وفي بعض مناطق الوسط والجنوب كانوا يستخدمون جلاوزة خاصين من العبيد او من خارج القبيلة لفرض سطوتهم عبر هذه القوة التابعة لهم ضد أفراد القبيلة... والأنفصال الثاني أقتصادي يقوم على تمايز الشيخ عن القبيلة بالملكية.. فمن خلال قانون التسوية الذي بدأ عام ١٩٣٣ قامت لجان التسوية التي يديرها موظفون بريطانيون بتسجيل مساحات واسعة من الأراضي بأسم شيوخ موالين لهم*... وفي العمارة مثلا كانت الأراضي تعطى للشيوخ بالألتزام عن طريق المزايدة.. واكتسى الأنتاج الزراعي الريفي طابعا بضاعيا بحيث تقلصت حصة الفلاح من أنتاجه "بحيث لاتكفي الفلاح حتى موسم الحصاد التالي" *لأن الملاكين يستحوذون على الفائض الأقتصادي المتحقق في الريف ويحولوه الى السوق الرأسمالية العالمية. وتبع ذلك أنفصال ثالث مكاني حيث ماعاد الشيوخ يعيشون في الريف مع أفراد قبائلهم أنما في قصور باذخة في المدينة، قريبا من السلطة المركزية ولديهم في الغالب (حوشية) من خارج القبيلة، مهمتهم أن يقيموا علاقة الشيخ بالقبيلة على أساس الخوف بدلا من التعاقد الأجتماعي القائم على الأصطفاء والأحترام الروحي، ويقومون بجباية العائدات من الفلاحين للشيوخ بالقوة .

هكذا خرق ستالين مبادئ لينين لبناء الاشتراكية، او هكذا استلب المشروع من عماله وجعل هؤلاء يشعرون بالغربة في مشروع هو ملك طبقتهم من الناحية الشرعية، وكأنهم ايتام في دار ابيهم يقيم عليهم ولي امر بيروقراطي معين من قبل مديرية اموال القاصرين- ولا مناقشة في الامثال. وهكذا لعشرات السنين اغترب العمال عن نظام اقاموه "مدكا مدكا" على حد تعبير الاستاذ مسوح البليغ الدلالة. ولكن مهلا فكل مؤرخ منصف يعرف ان الانظمة الاشتراكية المنهارة رغم كل اخطائها الفادحة اعلاه قد قدمت لشعوبها من الخدمات الاجتماعية ما اصبح مثلا يحتذى بالنسبة لاغنى البلدان الراسمالية: في الاسكان والصحة والتعليم والثقافة والرياضة والخ. لقد زار الاديب الانكليزي ايج. جي. ويلز لينين ووصفه .رجل الاحلام الكبير في الكرملين حيث تحدث له لينين عن حلمه في تغطية الاتحاد السوفيتي بشبكة من الخطوط الكهربائية، اي-تغطية سدس اليابسة على سطح كوكبنا. واعتبر ويلز، الذي تنبأ عن اول رحلة الى القمر، اعتبر امنية لينين مجرد حلم. ولكن هذا الحلم يكاد يتحقق. ولم يكن لينين يحلم

فحسب بل كان يعتبر الاحلام الممكنة التحقيق علميا حافزا ماديا للانسانية. ولينين رجل الاحلام كان رجل عمل ايضا. لقد انذر حياته منذ صباه لقضية البروليتاريا ورسالتها التاريخية. وكان لا يعرف ينابيع قوة هذه الطبقة الفتية وحسب بل نقاط ضعفها ايضا باعتباره عالما واقعيا. وفي كتابه "الدولة والثورة" يشرح نفسية شيلوخ المرابي (تاجر البندقية- لشكسبير) وان هذه النفسية ستبقى لدى العمال ايضا حتى في ظل الاشتراكية، ولمدة طويلة، وهي السبب الذاتي لعدم توزيع الخيرات المادية حسب الحاجة بل حسب مقدار العمل وجودته، وانه فقط في ظل المرحلة الشيوعية، وحيث يصبح العمل حاجة روحية ويعمل العامل دون تفكير بالمكافأة، وحيث ايضا تصل انتاجية العمل بفضل الثورة العلمية التكنولوجية الجارية الآن الى درجة تتدفق فيها الخيرات المادية بحيث تسمح بتوزيعها حسب الحاجة وليس حسب العمل.

ومن هنا اهتمام لينين بالحوافز المادية للعمال، وبتعبير ادق بالاجور الشخصية المباشرة التي تدخل جيب العامل مباشرة في نهاية كل اسبوع او اسبوعين او كل شهر. ومن هنا ضرورة الحساب الاقتصادي الذي ابتدعه لينين والذي ربط فيه اهتمام العامل او الجماعة العاملة بنجاح المشروع اقتصاديا ارتباطا مباشرا اذ أعطاهم نصيبا في الربح.

كان لينين فيلسوفا وعالما اقتصاديا مبدعا ومتضلعا بعلم النفس الاجتماعي. وكان ستالين منظما اداريا قديرا ولكنه قليل الصبر. فاستعاض عن الحافز المادي المباشر بالحماسة، التي خلقتها الثورة والحرب الوطنية، وبالمثل العليا للاشتراكية التي لا يمكن ان يعيش الناس عليها وحدها جيلا بعد جيل. ونعتقد ان الانظمة الاشتراكية بالغت الى حد ما في حجم الاجور الجماعية (الخدمات الاجتماعية) على حساب الاجور الشخصية التي تدفع مباشرة. ولذا فان الانتفاضات في اواخر الثمانينات على الانظمة الاشتراكية قامت بها المراتب الميسورة من السكان سواء كانوا من المثقفين او العمال.

كان الاشتراكيون يرون ان الاشتراكية واقتصاد السوق او العلاقات البضاعية- النقدية بعامة ضدان لا يجتمعان. ولكن لينين وجد ان آلية السوق وجدت قبل الرأسمالية وخدمت التشكيلات السابقة للراسمالية، كما انها خدمت الرأسمالية بالطبع، ويمكن ان تخدم الاشتراكية ايضا، شرط ان تخضع لرقابة الدولة، ولا يطلق لها العنان لتعمل كقوة من قوى الطبيعة العمياء. وعلى هذا الاساس استخدمت آلية السوق في السياسة الاقتصاذية الجديدة (نيب) منذ اوائل ١٩٢١ بمبادرة لينين، كما افسح في المجال لنشاط الرأسمال الخاص في ظل ملكية المجتمع لاهم وسائل الانتاج. وقد الغى ستالين السياسة الاقتصادية الجديدة والاجراءات الاخرى التي ادخلها لينين لبناء الاشتراكية قبل الاوان. وفي السنوات الاخيرة تذكر الاقتصاديون السوفيت تلك السياسة الاقتصادية اللينينية ولكن بعد خراب البصرة او بصرى.

وخلال العقود الاخيرة اختفى العاملون الفرديون من جداول الاحصاء والحال تضاعف الانتاج الاجتماعي بضع مرات. وكما قال ماركس تنمو مع نمو الانتاج حاجات الناس ايضا. وقد استحال على

قطاعي الدولة والتعاونيات، لاسباب موضوعية مختلفة، ان يلبيا الحاجات النامية فنشأت جيوب ثابتة من الطلب غير الملبى في التجارة والانتاج الصناعي والزراعي والبناء والنقل وتصليح الادوات المنزلية الجديدة والخدمات . وفي الحقيقة نشأ ما سمي "باقتصاد الظل"، اي الاقتصاد غير الشرعي الذي لم تجزه الدولة ولكن الحاجة ام الاختراع. فقد انشأه المغامرون لتلبية حاجات الناس الجديدة التي عجزت الدولة والتعاونيات عن تلبيتها. بيد ان الدولة لم تعترف بهذا القطاع الذي نشأ عفويا بسبب العقيدة الجامدة التي تظن ان حصر كل شئ بيد الدولة يعني تجاوز الاشتراكية وبناء الشيوعية!! ولو اعترفت الدولة بشرعية هذا القطاع واخضعته لرقابتها لكان خادما ايجابيا للاشتراكية، في حين ان عدم شرعيته في ظل البيروقراطية وغياب الديمقراطية جعل منه مصدرا للافساد. وقد نشر فعلا الفساد في اجهزة الدولة والحزب ايضا. وعلى سبيل المثال تورط مسؤول في اوزبكستان بان جعل اجهزة الدولة ادوات للاستثمار وجني الارباح بآلاف الملايين وتمكن من شراء وزير داخلية الاتحاد السوفيتي بالمال لستر استثماراته.

ومنذ الخمسينات اخذت وتائر النمو بالهبوط ولم يعد من سبيل لتسريع النمو سوى ادخال منجزات الثورة العلمية التكنولوجية.. ولكن ادخال هذه المنجزات على صعيد الانتاج يفتقر الى ما سماه لينين "المجازفة والمباراة والمبادرة الجريئة" وفشلت محاولة كوسيغين في الاصلاح الاقتصادي في اواسط الستينات لغياب الديمقراطية وادى ذلك الى الركود منذ اواسط السبعينات. والآن يعيش ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي وطن الاشتراكية الاول في ازمة اقتصادية رهيبة حيث هبط الانتاج الى (٦٠٪) مما كان عليه عام ١٩٩٠، فكيف كان ذلك؟ هل الملكية الخاصة لوسائل الانتاج هي الشرط الامثل للتقدم العلمي التكنولوجي وارتفاع وتائر النمو؟ هل الديموقراطية المطلقة هي الشرط الحاسم؟

لا شك في ان الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج هي الشرط الامثل للتقدم العلمي التكنولوجي ولارتفاع وتائر النمو. ولكنها يجب ان تقترن بضمان شعور العامل بانه يعمل لنفسه بان يكون له نصيب في الربح وصوت في الادارة والتخطيط، اي ان تكون هناك ديوقراطية على صعيد الانتاج وعلى الصعيد الجماهيري المحلي وعلى صعيد الدولة. وهذا الشعور هو الذي اختفى في البلدان الاشتراكية مع الديمقراطية وادى الى الكارثة التي نشهدها.

ويفرد الاستاذ مسوح من نشاط لينين الفكري كتابه "الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية" اذ يعتبره "ابداعا واضافة حقيقية الى الافكار الماركسية في بدايات هذا القرن. ولكن التطور العاصف الذي حدث في بنية الامبريالية واساليبها، ولاسيما بعد الثورة العلمية التكنولوجية، قد جعل الكثير من الافكار الواردة في الكتاب.. قديما، يحتاج الى التدقيق والنفي في ضوء الواقع المعاصر..".

والحق اقول لك يا صديقي ان الكتب السماوية وحدها هي التي لا تحتاج الى التدقيق والنفي.. وحتى "رأس المال" لماركس يحتاج الى التدقيق والنفي بالمدلول الديالكتيكي للنفي، لا بمدلولك انت!

قال لينين في الامبريالية: راسمالية احتكارية، اعلى مراحل الراسمالية وآخرها، بشيرة الثورة الاشتراكية. المرحلة الراسمالية، التي اقيمت فيها هيمنة الاحتكارات وراس المالي المالي واحرز تصدير

الرساميل اهمية بالغة وتم فيها تقسيم العالم بين الاحتكارات وتقسيم اليابسة بين الدول الكبرى.. الامبريالية راسمالية منحطة طفيلية ومحتضرة وهي تعطي طابعا خاصا لعمل جميع القوانين الاقتصادية الراسمالية في هذه المرحلة، وبضمن ذلك قانون تفاوت وتائر التطور الاقتصادي والسياسي بين البلدان الراسمالية. وهذا التفاوت يتفاقم بحدة ويتخذ طابعا متعارضا متشنجا، وهو في حالة الاقتسام التام للعالم بين الدول الامبريالية يؤدي الى الحروب العالمية.. الاحتكار يزيد باطراد من جتمعة الانتاج وبالتالي يفاقم حدة التناحر الطبقي وبذلك يوجد المستلزمات الموضوعية الضرورية لانتصار الاشتراكية.

ان ما اثار الشكوك في الازمة الراهنة حول كتاب لينين عن الامبريالية هو كيف استطاعت هذه الرسمالية الامبريالية المحتضرة ان تسير قدما في الثورة العلمية التكنولوجية في حين تخلفت البلدان الاشتراكية في هذا الميدان الحاسم للمباراة بين النظامين؟!

من الجدير بالانتباه هو ان لينين اكتشف في الامبريالية ببصيرته النفاذة وعلى ضوء الديالكتيك الماركسي اتجاهين متعاكسين وهما الاتجاه الرجعي السياسي، حروب امبريالية..دكتاتوريات فاشية والخ واتجاه تقدمي اقتصادي: المزيد من التقدم المادي والتكنيكي فيقول:

"المنافسة تتحول الى احتكار. والنتيجة تقدم هائل في جتمعة الانتاج وبخاصة الاختراعات والتحسينات التكنيكية.. ان الراسمالية في مرحلتها الامبريالية تؤدي راسا الى اوسع جتمعة للانتاج... انها لو جاز التعبير تجر الراسماليين رغم ارادتهم ووعيهم الى نظام اجتماعي جديد بنوع ما، نظام انتقالي من المنافسة الحرة التامة الى الجتمعة التامة" (الترجمة عن الطبعة الانكليزية- ز.خ.).

ويشدد لينين على الدوام على الفارق بين المحتوى المادي والتكنيكي للجتمعة الرأسمالية وبين طبيعتها الاجتماعية، فهي تقدمية من حيث الشروط المادية والتقنية لانها تسرع تطور القوى المنتجة وتوفر الظروف الضرورية لتطوير آخر تكنولوجيا واستخدامها في الانتاج الواسع النطاق. وهي رجعية من حيث المقاييس الاجتماعية لان "جل الربح من نصيب "عباقرة" التلاعب المالي. ويكمن في اساس هذه الالاعيب والاحتيالات جتمعة الانتاج. ولكن تقدم الانسانية الهائل الذي انجز هذه الجتمعة يذهب لفائدة المضاربين.." (لينين-الامبريالية...).

وبعد الحرب العالمية الثانية جرت مناقشة اقتصادية في الاتحاد السوفيتي تناولت فيما تناولته ما اذا كانت مقولة لينين لا تزال صحيحة بان الراسمالية في مرحلة الامبريالية لا تزال قادرة على النمو السريع وهي في حالة الازمة العامة. وحتى ستالين رد على المناقشة بالايجاب، اي ان الراسمالية لا تزال قادرة على النمو السريع رغم ازمتها العامة. ومع ذلك فقد تلكأت المنظومة الاشتراكية في ادخال الثورة العلمية التكنولوجية على نطاق واسع في حين استطاعت الراسمالية عن طريق هذه الثورة ان تثبت نفسها نسبيا رغم ازمتها العامة بعد ان اشرفت على الموت في حربين عالميتين وفي "الكساد الكبير" في الثلاثينات (١٩٢٩/٣٣).

قد يقال ان تشخيص لينين للامبريالية بانها راسمالية محتضرة غير صائب لانها لا تزال في قيد الحياة

بل في حالة فيض الانتاج او حتى الازدهار. والحال يعيش الاقتصاد الاشتراكي في ازمة خانقة! ان النبوءات الاجتماعية تختلف عن النبوءات الفلكية فبامكان الفلكيين تحديد مواعيد الكسوف والخسوف مسبقا الى حد جزء من الثانية دون ان يخطئوا لان هذه الظواهر الطبيعية تتحقق تلقائيا. اما احتضار نظام اجتماعي فلن يؤدي الى موته تلقائيا ما لم تكن هناك قوى قادرة على وتعمد الى الاجهاز عليه، يعني الشعب العامل. ومن بين الاسباب التي اطالت عمر الراسمالية يمكن ان نعدد الاخطاء التي ارتكبت في بناء الاشتراكية. وفي ١٨٤٨-١٨٥٠ نشبت سلسلة من الثورات في اوربا الغربية على اثر الازمة الاقتصادية الراسمالية الدورية. وقد فشلت تلك الثورات. وتنبأ ماركس وانجلس بسلسلة جديدة من الثورات سوف تعقب الازمة الدورية الآتية. وجاءت الازمة ولم تعقبها الثورة. لماذا؟ لان القوى الحاكمة المعادية للثورة والتي قمعت الثورة "نفذت وصيتها" على حد تعبير ماركس أوانجلس، لا اذكر، اي انهم نفذوا الاصلاحات التي قامت الثورة من اجلها ولكن ببطء، وبالتدريج، بمعاناة طويلة و عذاب. وفي الاربعين سنة الاخيرة ادخلت مثل هذه الاصلاحات او التحسينات على المجتمع البرجوازي. ولا ازال اذكر حديثا جرى بين ايج. جي. ويلز وستالين في اوائل الثلاثينات. وقد نشر الحديث في جريدة لندنية وفي كراس على حدة. وكان ويلز اشتراكيا اصلاحيا من "الفابيين". وقد قال لستالين: عندنا في بريطانيا وامريكا يمكن ادخال الاشتراكية ليس عن طريق الثورة كما جرى عندكم بل عن طريق الاصلاح. لم يكن في هذا الكلام ما يفاجئ احدا بل كانت المفاجأة في رد ستالين" نعم ممكن ولكن خلال مائة سنة! لقد عرف ستالين بالتشدد اليساري وليس بالميول اليمينية ومع ذلك كان رده ايجابيا. وها قد مرت ستون سنة ونيف ولم تصبح بعد بريطانيا اشتراكية بل ابتعدت عنها اكثر خلال حكم تاتشر وميجر، ناهيك عن امريكا..

ان افدح كارثة في "الزلزال" الاخير هي تلك التي انزلت في ساحة الحزب الشيوعي السوفيتي الذي كان اعظم قوة سياسية في العالم سحابة القرن العشرين. ومن بين اكثر من عشرة ملايين عضو في جمهورية روسيا الاتحادية لم يبق سوى نصف مليون هم اللب الشيوعي السليم الملتف حول راية الحزب. وتتحمل القيادة بالطبع مسؤولية استثنائية عن هذا المصير المأساوي، اذ لم يفقد الحزب زمام السلطة السياسية في الدولة فقط بل فقد ايضا ثقة اكثرية الشعب. ولكن حصر المسؤولية بآخر قيادة سياسية للحزب وحتى بآخر لجنة مركزية بكل هيئتها من السذاجة بمكان. فلعشرات السنين الاخيرة اندمج الحزب بالدولة حتى غدا جهازا خاصا من اجهزتها وكثرة من اعضائه من موظفي الدولة وإن تكن الاكثرية من العمال والفلاحين. وكان الموظفون ينتمون الى الحزب للحصول على الامتيازات اما الاعباء فتلقى على العمال اذ كان عليهم التبرع بساعات وايام عمل اضافية مجانية لخدمة هذه القضية او تلك. وقد دب الفساد في الجهاز الحزبي كما دب في اجهزة الدولة.

وعلى اثر الانقلابات التي جرت في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات استولت على الحكم في اغلب البلدان الاشتراكية حكومات معادية للشيوعية وللاشتراكية. وشرعت تصفي الارث الاشتراكي. ومع ذلك فالكل يعترف ان طريق التحول الراسمالي ليس محسوما بعد.

وتشير استطلاعات الرأي ان خيبة الامل بالتغيرات التي جرت تعم اكثرية السكان في بلدان اوروبا الشرقية. لقد جاءت تلك الحكومات المعادية للاشتراكية الى سدة الحكم تحت شعارات الديمقراطية وحقوق الانسان ودولة القانون وضد الدكتاتورية والبيروقراطية والخ.. وقد فرضت الجماهير الديمقراطية فعلا بالممارسة. وقد اثبتت الديمقراطية انها سلاح ذو حدين. فكما انها استخدمت ضد الاشتراكية او بالاحرى ضد ما علق بها من سلبيات فانها تقف الان عائقا بوجه من يحاول تصفية منجزات الاشتراكية التي تتمسك بها الجماهير الشعبية وليس من السهل اجراء التحولات الرأسمالية من دون انتزاع مكاسب الاشتراكية ومنجزاتها.

ومن المناسب بهذا الصدد ان تتذكر كلمات المجلس في رسالته الى الروسية فيشينسكايا، وبصدد ضرورة التجديد للتغلب على عواقب الكارثة"انّ امة عظيمة، مثل امتكم تتغلب على كل ازمة، وليس ثمة مصيبة تاريخية كبرى، لم يعوضها تقدم تاريخي ما، شرط ان يتغير نمط العمل لتحقيق المكتوب".

اما نحن فلكي نكون ماركسيين يجب ان ننطلق من مفهوم ماركس العلمي للعالم ولاسيما فلسفته، وان لا نفصل منهجه عن نظريته بل ان نتمسك بمبدأ الوحدة العضوية بين الديالكتيك والمنطق ونظرية المعرفة. وعلى هذا الاساس الراسخ يمكننا ان نعيد تقييم كل شئ على اساس التجربة الاخيرة، ليس تجربة بلد واحد بمفرده بل تجربة جميع البلدان في الشرق والغرب. فالاشتراكية بجميع مشاريعها تمر بازمة شاملة وتجابه هجمة عامة من الراسمالية. وتعطينا اللينينية كنزا من الخبرة لا يقدر بثمن في مجابهة ازمة كهذه، ولاسيما بعد فشل ثورة (١٩٠٥-١٩٠٧) الروسية، يعني نضال لينين ضد الماخية في الفلسفة المثالية الذاتية والتصفوية والانسحابية في السياسة.

ان مقال الاستاذ مسوح يزهدنا بكنوزنا النظرية والايديولوجية باسم محاربة الجمود ويرى في تجربة الشيوعيين الروس مجرد "تراث للاطلاع" وليس للدراسة واستخلاص النتائج والاسترشاد بها. فنفقد بذلك الخبرة التي هي حصيلة تجربة بذلت اجيال من الثوريين تضحيات رهيبة في سبيل الحصول عليها ويفقدنا ذاكرتنا التاريخية.

ان الخطر الرئيسي الذي يهدد الماركسية الان هو خطر تصفيتها ايديولوجيا ونظريا وبالتالي سياسيا وتنظيميا. اما الجمود او رفض التجديد فيضطلع بدور مساعد للخطر التصفوي. والحال ان مصير الماركسية-اللينينية كآيديولوجيا ونظرية وحركة غدا معلقا على تجديدها لا بمعنى نفيها عدميا، ولا بمعنى الالتزام بالمنهج دون النظرية والآيديولوجيا، بل بمعنى دراسة تجربتها دراسة تمحيصية انتقادية واستخلاص الاستنتاجات الضرورية منها وتشخيص ما غدا باليا من نظرياتها واستنتاجات مؤسسيها اذ خلفه الواقع المتطور وراءه، وعلى اساس النظرية الماركسية اللينينية ومنهجها ومنطقها والتجربة التاريخية لجميع البلدان صياغة نظريات وبرامج جديدة لحركتنا، لكل حزب من احزابها. وهذه مهمة تاريخية عالمية فوق طاقة اي حزب بمفرده. ونقطة الانطلاق تظافر جهود جميع الشيوعيين الملتزمين بالماركسية-اللينينية للمباشرة بهذه المهمة الصعبة والجديرة بان يكرسوا حياتهم في سبيل تحقيقها.

لقد تعود الناس على اعتبار نجاح كل تجربة او فشلها المعيار النهائي والوحيد لصحة النظرية التي قامت التجربة على اساسها او لبطلان تلك النظرية. ومن هنا المثل السائر من جرب المجرب حلت به الندامة! ولكن حتى النظرية العلمية يمكن ان تصاب تجربتها بالفشل في التطبيق، اذا كانت الممارسة او طريقة العمل خاطئة، او اذا كانت النظرية نفسها قد تخلفت عن التطور وتركتها الحياة وراءها، او انها غير ملائمة للظرف المعني واذا اجتمع اكثر من سبب من هذه الاسباب. كما تقع الاخطاء الفادحة ايضا لا بسبب النظرية بل جراء اهمالها والوقوع في التجربويةEmpiricism وهي نقيض النظرية. فالتمحيص والنقد يجب ان يتناول كل شئ بعد كل كارثة تاريخية ويجب الا يرحم احدا، والا ضاعت التجربة الغالية على الانسانية وذهبت التضحيات الرهيبة سدى. وقد قال الحكماء ان الهزيمة افضل معلم للمهزوم.

ان مدة سبعين سنة ليست كبيرة بالنسبة لتاريخ المجتمع الانساني. فان التشكيلة الشيوعية البدائية استمرت عشرات الالوف من السنين، وتشكيلة الرق عدة آلاف، والاقطاعية الفا ولا تزال بقاياها منتشرة في جميع القارات. والرأسمالية بدأت منذ خمسمائة عام، ولم تتكامل بعد في معظم البلدان. بيد ان عجلة التطور تدور الآن من ناحية معينة، من ناحية القوى المنتجة، بسرعة خارقة بفضل الثورة العلمية التكنولوجية وهي تحقق الاساس المادي- فيض الانتاج-لا للاشتراكية وحسب بل للشيوعية ايضا اي لكل انسان حسب حاجاته!

السويد ٩٣/٥/٢٧

مناقشات

"بيان المثقف الجديد"
جدل الثقافة - السياسة

رضا الظاهر

في " بيان المثقف الجديد" (نشرته "الثقافة الجديدة" تحت عنوان "المثقف والسياسة والاستبداد" في عدد تموز-آب ١٩٩٣) يقدم الفنان-الباحث محمود صبري تصوره لاختراق امثل لأزمة المثقف العراقي يراه، وهو محق، في اطار آخر جديد خارج نطاق البدائل الفكرية التقليدية. ويرى ان هذا ممكن فقط باعادة تقييم مفهوم المثقف ودوره المجتمعي في سياق المعرفة الجديدة التي تقترن بالثورة العلمية التكنولوجية. وتحتاج اعادة التقييم هذه مقدارا غير قليل من الجرأة الذهنية والخيال لخرق السدود الفكرية الموروثة.

والقضية الخطيرة التي يناقشها الاستاذ محمود صبري، فيقاربها بغير قليل من الافكار اللامعة (لم يخل بعضها من التجريد النظري والتصورات الطوباوية)، وهي اشكالية الثقافة- السياسة: كثيرا ما نوقشت وما تزال، خصوصا في العقد الاخير. وهذا النقاش يجري في ظل ظروف جديدة تتميز، من بين سمات اخرى، بانتقال التاريخ العالمي الى مستوى جديد اثر الانهيار الفاجع لنموذج "الاشتراكية" الذي كان من بين اسبابه، في تقديري، الاختلال بين قوى وعناصر ومكونات العملية الاجتماعية، ومن بينها العلاقة بين الثقافة والسياسة.

لم يكن "مكر التاريخ" في اساس تراجع الماركسية، فهذا التراجع يعود الى عجزها عن مواكبة تحولات الحياة. ولا يمكن التوقف في تفسير هذا العجز عند حدود التطبيق الخاطئ، ذلك ان مفاهيم

غابت واخرى تقادمت. وهذا لا يجمعه جامع بـ "الايمان" بان المنهج صحيح، وهو التفسير "الجديد" الذي يتوقف عند حدود يقين جديد يستعير التبرير الفلسفي لتبرئة النص وادانة الواقع.

ان التاريخ الذي انتج الماركسية في ظروف معينة، في صيغة معينة، هو، نفسه، سيتكفل مهمة التصحيح والاغناء والتجديد الذي سيقوم في النصوص التي صاغت المشروع الماركسي، وهو، نفسه، سيتكفل الحفاظ على افق هذا المشروع، مستندا (اي المشروع) الى تبرير تاريخي ومنهجية علمية قادرة على التجدد والاغتناء. وبيان الاستاذ محمود صبري الموجه، كما يبدو، الى المثقفين الماركسيين، اساسا، هو محاولة في هذا الاتجاه، لاعادة تحديد فهم هدف التغيير عبر تطوير فهم ادوات ووسائل التغيير، اعتمادا على وجود ضرورة لتطوير الرؤية السابقة لتنسجم مع المدلولات الجديدة في عصر الثورة العلمية – التكنولوجية.

واذ يناقش الاستاذ محمود صبري موضوعات نظرية هامة تتعلق بفردانية المثقف، ووحدة وتناقض وتكافؤ الفكر والعمل، والدور الاجتماعي للمثقف، واستقلاليته، فانه يرى في هذه الاستقلالية العنصر الاساسي في الدور الاجتماعي– السياسي للمثقف. ويدعو الى تكوين تجمع واسع للمثقفين كـ "مركز قوة"، كـ"منبر ثقافي" يصوغ ويصون الموقف الجديد للمثقف كقوة اجتماعية ذات دور فعال مستقل.

لقد كانت المعركة على المثقفين، على الدوام، معركة جدية في سائر الاحزاب والقوى السياسية، ولعلها اصبحت الآن اكثر جدية بسبب رد الحركة التاريخية الاعتبار للمثقف. ومع جدية هذه المعركة نلاحظ الآن، على عكس فترات سابقة، غيابا لصوت المثقفين العراقيين في وقت تزدهر فيه الدكاكين السياسية. ما دلالة هذه الظاهرة؟ أليست جديرة بالانتباه والتحليل النقدي؟ ألا تعكس تجليا تراجيديا جديدا لاشكالية الثقافي– السياسي في ظروف الازمة؟

كانت التشويهات التي لحقت بالعلاقة بين الثقافي والسياسي سببا في صياغة مواقف من هذه الاشكالية تميز بعضها بالوعي والمنهجية والمسؤولية. لكن الى جانب ذلك كانت هناك انسياقات وراء امواج وردات فعل متباينة الدوافع، خاضعة لعملية اسقاط تحمل الحزب (السياسي) كامل المسؤولية عن هذه الاشكالية، وتتلذذ بعملية جلد (للذات او للآخر) لا علاقة لها بالموقف التحليلي المعرفي، اي بالقدرة على تلمس الاسئلة وطرحها بصياغة صحيحة، بناءة، وبمنهجية قادرة على الاستفادة من التيارات الفكرية المعاصرة التي نتخلف عنها، للأسف الشديد، على نحو مريع، ولأسباب متباينة ايضا ليس هنا مجال بحثها.

وترتبط عناصر الاشكالية التي يطرحها الاستاذ محمود صبري ارتباطا وثيقا بموضوعة علاقة المثقف بالسلطة (سواء كانت سلطة الدولة، او السلطة الاجتماعية، او سلطة التنظيم السياسي)، التي لم يتوفر لـ "البيان"، كما يبدو، الدخول في تفصيلات اشكالياتها.

من الطبيعي ان هناك طيفا من تباينات في وجهات النظر بشأن هذه الاشكالية، تنسحب حتى الى حقل المفاهيم الاولية الأساسية للثقافة والسياسة، التي تتعذر مناقشتها في هذا الحيز (غني عن القول اننا

حين نستخدم مفهوم "الثقافة" فاننا نعني به "الثقافة" بمعناها الضيق اذ جاز القول، اي الثقافة الادبية الفنية، وليس معناها العام الواسع الذي يشمل سائر القيم المادية والقيم الروحية ووسائل انتاجها). فالبعض يعتقد ان هذه الاشكالية قديمة قدم تاريخ العلاقة بين المثقف والسلطة، والبعض الآخر يرى ان هذه الاشكالية لم تكن قائمة حتى عقود قريبة، موحيا بوجود انسجام بين المثقف والسياسة في فترات سابقة (الاربعينات والخمسينات في العراق مثلا)، فيما يرى بعض ثالث ان هذه الاشكالية تنتمي الى فترة اسبق، بمعنى انها لم تعد راهنة. ويضفي بعض آخر صفة الاطلاق على هذه الاشكالية حد التصريح بالقطيعة او ضرورتها بين الثقافي والسياسي (غالبا ما نرى في هذا الفصل المصطنع بين الثقافي والسياسي رغبة خفية في "تطهير" الثقافة من كونها فعلا سياسيا، وفي ابعاد السياسة عن ان تكون فعلا ثقافيا). وهناك ايضا من يشخص هذه الاشكالية باعتبارها اشكالية السياسي الثقا فية، اي ان الازمة تكمن في ثقافة السياسي لا سياسة المثقف.

وفي اطار الاهتمام المتسع بموضوع المثقف والسلطة (المقصود سلطة الدولة الحاكمة اساسا) كتعبير عن وعي الازمة البنيوية لواقعنا (الواقع العربي بشكل عام) خصوصا في العقدين الاخيرين، يلاحظ ان بعض مقاربات هذه الاشكالية لم تحدد معالم الخروج من هذه الازمة بقدر ما كانت تغيب حقائق وآليات هذه الازمة، فتكرسها بالتالي، في حين ان مقاربات أخرى تسقط في ثنائية تبسيطية، ضدية او توفيقية، تفضي الى طمس الثقافة وطبيعة السلطة على السواء.

وفي علاقة المثقفين بالسلطة نجد انفسنا امام لوحة غنية تبدأ بالمعارضة، مرورا بالقطيعة، والوصاية والاضطهاد، وصولا الى التحالف العضوي بين المثقف والسلطة.

ان من بين ما تهدف اليه السلطة ، في حالة عدم تمكنها من الهيمنة على المثقف، فصل معرفته عن السياسة، لكي ينتج ثقافة مجردة لا علاقة لها بالواقع. وبالرغم من حاجة السلطة الماسة للمثقف، لتبرير ايديولوجياتها وتأييد معرفتها وتحقيق مشروعيتها المفككة بسبب الانفصام القائم بين الدولة والمجتمع، برغم ذلك فانها (اي السلطة) تتعامل مع المثقف على اساس الاحتواء والالحاق، فان فشلت اقصته، وربما حطمته، وبحثت عن بديل له يتوفر في اسواق المرتزقة.

وفي اغترابه ومأساته يجد المثقف نفسه امام اختيارات محدودة: فاما التخلي عن موقفه و "الاندماج" بتيار السلطة، او اتخاذ موقف الصمت (وهو موقف ينطوي على نوع من الاحتجاج)، أو الاستمرار في موقف الرفض والمعارضة السافرة.

ونكتشف، في حالة الانحسار العام في العمل السياسي في ظل سلطة استبدادية، عددا من الظواهر الاشكالية في العلاقة بين الثقافة والسياسة من بين ابرزها:

١- تزايد شعور الخيبة لدى المثقفين المحاصرين بالاستبداد وايديولوجيا التسلط (في ظروف النفي داخل الوطن)، وتراجيدية الصراع في البعد والانقطاع عن الجذور، والغربة ومعاناتها (في ظروف النفي خارج الوطن). ومما يعمق شعور الخيبة والاغتراب عن الواقع تخبط قوى المعارضة السياسية العراقية

المشتتة وعجزها عن انتزاع ثقة الشعب ومراهنته عليها من جانب، وحالة الاحباط التي افرزها انهيار تطبيقات الفكر "الاشتراكي".

٢- استمرار غلبة النظرة الاحادية في حقل السياسة وبروز مظاهر النخبوية في حقل الثقافة في ظل تشابكات وتعقيدات واجواء فقدان ثقة بين الثقافي والسياسي (ليس المقصود هنا بالنخبوية نخبوية المعرفة التخصصية، فهذا امر طبيعي في عصرنا، وانما النخبوية المرتبطة بالتعالي والتجريد المغترب عن الواقع)، وبالتالي غياب التفاعل بين الثقافة والسياسة، وتحميل كل من الثقافي والسياسي الآخر المسؤولية عن الازمة.

وتترافق حالة الانحسار مع مشهد للمثقفين يقدم لنا نموذج مثقفين ديمقراطيين، بشكل عام، خارج السلطة فكريا وسياسيا، ومثقفين يعملون وينتجون للسلطة وينظرون لها فكريا وسياسيا، وفئة ثالثة، وهي الاكبر، تعمل وتنتج داخل السلطة، وهي، في الغالب، مسلوبة الارادة في التعبير عن نفسها.

وتمارس الدولة، وهي في جوهرها قمعية، سلطتها بوسيلتي القمع والايديولوجيا، ساعية الى الغاء كل معرفة نقدية بالقمع، وتضيف اليهما وسيلة الاغراء بالمال، خصوصا لاولئك المثقفين الذين تعرف هشاشتهم واستعداد البعض منهم لأن يكونوا مرتزقة.

وتشوه السلطة الاستبدادية وظيفة المعرفة وسمتها الاجتماعية، وتحولها الى وظيفة لانتاج واعادة انتاج الاستبداد، الذي يسعى الى اعادة انتاج التجهيل، ويحول المعرفة الى اداة لتبرير ايديولوجيا الاستبداد القائمة على الوحدانية، واعتبار نفسها مرجعا لكل معرفة ممكنة.ويصبح دور المعرفة البرهنة على ان شرعيتها الوحيدة هي الدفاع عن شرعية الاستبداد، فيما يصبح الاستبداد قائما في عملية المعرفة. بمعنى آخر ان الاستبداد لا يسمح بانتاج المعرفة، ولا بممارسة ديمقراطية داخل عملية المعرفة، ويحول المثقف الى شارح لمعرفة السلطة المطلقة التي تفرض علاقات الامتثال، ولا تحتمل الحوار والنقد والاجتهاد، وترفض الديمقراطية والعقلانية. والمثال النموذجي الصارخ على هذه الحالة السلطة الاستبدادية في العراق وتعاملها مع المثقفين.

وعندما تنحسر الحركة الديمقراطية يجد المثقف ذاته عزلاء امام سلطة التخريب الروحي الطاحنة، ويتحول اليأس الى ظاهرة اجتماعية تبرر السير مع الموجة العاتية، وعند ذاك تجد السلطة مثقفين "ثوريين" يخجلون من "ثوريتهم ومن "سذاجة" تفاؤلهم السابق بامكانية التغيير، يتحولون، حسب تعبير جورج لوكاتش "من الثورة الى اليأس الى التكيف مع اكثر الانظمة البربرية تنفيرا"، لا يصعب عليهم ان يجدوا كثيرا من الذرائع لتبرير اندماجهم بالاستبداد، وتحولهم الى مخلوقات مرتعبة على السلطة، بعد ان كانت مرتعبة منها.

اما في اشكالية علاقة المثقف بالتنظيم السياسي، فيطرح البعض السؤال التالي: لماذا ازدهرت العلاقة بين المثقفين والحركة السياسية الديمقراطية (اليسارية) في الاربعينات والخمسينات، ولماذا اختلت في ما بعد ذلك وحتى الآن؟

هل يعود هذا الى عجز النظم الحاكمة سابقا على الهيمنة الايديولوجية؟ هل يعود الى ان الحركة السياسية اليسارية كانت تخوض نضالا ببرنامج واضح، سواء كان هذا الوضوح حقيقة ام وهما، وانها كانت حركة جماهيرية وجدت في المثقفين المتنورين الديمقراطيين مناصرين جديين لها، واستطاعت، باستيعابها المزاج الديمقراطي للمثقف، استثمار تعارضه مع السلطة الاستبدادية؟ هل يرتبط هذا بدور لقادة سياسيين كان بعضهم مفكرين وكتابا، او مقدرين، بوعي، دور الثقافة والمثقف؟ هل يعود هذا الى النهوض الوطني الذي ارتبط بهجوم فكري- ثقافي- سياسي ترك آثاره على الحركة الفكرية؟ هل يعود السبب الى العجز اللاحق للتنظيم السياسي والفكر السياسي عن مواكبة التطورات والاحداث المؤثرة الكبرى؟ هل اخلى النهوض السابق مكانه لتراجع مفجع بسبب حصول تغيرات اجتماعية بنيوية عميقة، وبالتالي فكرية وبروز مهام معقدة جرى تحليلها بادوات الخمسينات مما جعل حركة الفكر متخلفة عن حركة الواقع؟

من المعروف ان بؤس الفكر وتخلفه يمهد لنتائج سلبية في العمل السياسي قد تكون مدمره. ويمكن القول، بشكل عام، ان سياسة خاطئة في ميدان الثقافة تعكس خللا ما في مفهوم السياسة ككل.

وعلى انه يصعب، في اطار الافتراض النظري بالطبع، تصور ابتعاد الثقافة عن السياسة، فان الاشتباك بينهما ينتج ممارستين مختلفتين للسياسة: ممارسة السلطة للسياسة التي تعني الاستبداد، وتلقين الحقيقة، وخلق تنظيم سلفي للذهن، وبالتالي اخضاع الكل لابدية حقيقة السلطة. اما ممارسة الثقافة للسياسة فهي ممارسة معرفية، تخترق الواقع، وتذهب الى ابعد مدى في كشف تناقضاته الداخلية، لتصل الى ضفاف تغيير هذا الواقع وفقا لمثال يظل غير متحقق على الدوام. ويعني ذلك، من بين امور اخرى، فهم معاناة الناس، والدفاع عن اشواقهم، وامتلاك القدرة على التعاطف معهم.

هناك، اذن، سياسة السلطة، وسياسة الثقافة او المعرفة، وكل منهما تحاول نفي الاخرى. ولم تكن "سلطة" كثير من القادة السياسيين المفكرين سلطة سياسية بل سلطة معرفية تعكسها طبيعة ومنهجية النقاشات التي دارت بينهم في عقود سابقة، وليس مهما الآن من كان على صواب ومن كان على خطأ. المهم ان اولئك القادة لم يتوسلوا بالزعامة لاضفاء المعصومية على افكارهم.

ولما لم تكن عملية تكوين المفكر عملية سهلة وارادية فقد اصبح بعض الزعماء والقادة السياسيين سلطة بلا فكر. وعندما يسود فكر "السلطة" يكون طبيعيا، وكقاعدة، لها استثناءاتها بالطبع، ان يرتقي الى القيادات السياسية من يمتثل، ويعطل عقله، اي يترقى الى القيادة من لا عقل له اصلا.

ومن هؤلاء الذين هم بلا فكر، وبلا قدرة على التفكير، يبدأ احتقار الثقافة والفكر عموما. ومن هؤلاء الذين يعتبرون المثقفين "اطفالا حالمين" و "شذاذ آفاق" و "مارقين"، من هؤلاء الذين يعانون من كوابيس تسببها لهم قدرة المثقف على الاختراق والتحليل والتنبؤ، من هؤلاء وبسببهم ننتقل من انحطاط الآيديولوجيا، الى ايديولوجيا الانحطاط، وهي الايديولوجيا التي تعيد انتاج التخلف، بينما تكون قد تخلت عن جوهرها كمنهج وكأفق، تخلت عن نسبية حقيقتها، وآمنت بصلاحيتها لكل زمان ومكان، اي تحولت الى طقوس دينية.

ومنذ السبعينات، وربما منذ الستينات، وحتى الآن نشهد هذا الاختلال الخطير في علاقة المثقفين بالحركة السياسية اليسارية (يلاحظ الآن ان ضعف الحزب السياسي جراء انهيار نظام القيم السابق قد نتج عنه تحسين في العلاقة لصالح المثقف، لم يكن سببها "ديمقراطية" الحزب السياسي التي يصعب افتراض تحققها هكذا فجأة وبضربة واحدة، مع ان التجديد الحقيقي في الحزب السياسي وفكره، وخاصة فيما يتعلق باشاعة الديمقراطية وممارستها، سيترك اثره الكبير على مثل هذا التحسن لصالح المثقف والسياسي ايضا).

وقد تمحور ذلك الاختلال والصراع على قضايا يمكن الاشارة من بينها الى:

١- التوصيف الاجتماعي للمثقفين، حيث كانت هناك تصورات شعبوية، سطحية، مبتذلة في فهم الانتماء الاجتماعي للمثقف ودوره.

٢- التزام المثقف بالتنظيم، حيث لم يتمتع المثقف داخل التنظيم بحريته في انتقاء ما ينسجم مع افكاره من مواقف التنظيم، وحريته في نقد ما لا يقبله فكره، وحيث كانت المعادلة بين استقلالية المثقف والتزامه داخل التنظيم غير ممكنة، ولم يكن هناك ذلك الفضاء الديمقراطي الرحب والوعاء الذي يستوعب ويسهل ممرات النتاج الثقافي الابداعي الى المجتمع (المقصود هنا الاستقلالية الايجابية التي لا تنفي جوهر الالتزام مع التنظيم السياسي، وان نفته في شكله، وليس الاستقلالية كظاهرة مرضية اساسها نفي دور التنظيم السياسي لفشله وعدم جدواه).

٣- الموقف من حرية الابداع، حيث ساد موقف تبسيطي خاطئ من حرية الابداع وتقييم العمل الفني، وتنوع وتعدد مناهجه الابداعية. فقد كان التقييم يجري، في الغالب، بادوات ايديولوجية سياسية لا ادوات جمالية، اي انطلاقا من وجهة نظر اجتماعية ايديولوجية منظمة في الذهن سلفا، تكشف عن افتقار عميق للثقة بذكاء ووعي المبدعين، واهمال او تقييد لفردانية المثقف كمنتج فكري- روحي. هكذا صار تعريف الطريقة التي يقيم بها العمل الفني أداة للتدخل الفج والعاجز في الفن، عاكسا بذلك تحول السلطة "الاشتراكية" (النموذجية) في الاتحاد السوفيتي (السابق) الى اضطهاد او اقصاء افضل المبدعين. فقد عومل باسترناك باعتباره "كلبا نابحا"، واتهم شوستاكوفيتش بتأليف "التشوش بدلا من الموسيقى"، ولعنت اخماتوفا باعتبارها "ممثلة المستنقع الادبي الرجعي المحرم ايديولوجيا". وكان كافكا وبروست وجويس غرباء، فيما كان العشرات من عظام المبدعين مجرد برجوازيين!. وكان طبيعيا، وبسبب آلية التبعية لـ "المركز" الآيديولوجي، ان تعتمد هذه "المنهجية" الواحدية في تقييم العمل الفني من جانب "منظري الجمال" في "الاطراف الاخرى".

٤- الخلل في فهم وظيفة الفن، حيث كان هناك فهم براغماتي يستند الى مدى خدمة الفن للنشاط السياسي وبأشكاله مباشرة (ممارسة الانسان السياسي للضغط باتجاه ان يعبر الفن في زمنه عن عالم ثقافي معين يعتبر نشاطا سياسيا وليس نقدا فنيا كما يقول غرامشي).

٥- استقلالية المثقف وابداعه، وهي احدى القضايا الرئيسية التي يركز عليها "بيان المثقف الجديد"،

وهو يتحدث عن دور ثقافي فكري مستقل للمثقف، ينبغي ان يرى لا كملحق بهذه القوة الاجتماعية السياسية او تلك، بل كقوة لها مصلحتها وموقعها الفكري الخاص الى جانب القوى الاخرى، بمعنى ان يدخل المثقف ميدان الصراع الاجتماعي- السياسي كقوى فكرية مستقلة، كـ"مركز قوة" جديد كما يرى الاستاذ محمود صبري.

وسأناقش هنا موضوعة استقلالية المثقف، ارتباطا باشكالية الثقافة- السياسة، وكما وردت في "بيان المثقف الجديد" انطلاقا من عدد من المقدمات (البديهيات؟) ، مقدرا ان الموضوعات التي أثارها "البيان" تصلح، حقا، ان تكون منطلقا للنقاش حول اشكاليات الثقافة والسياسة.

فحين نقول ان الفن يعكس السياسة فذلك يعني ان الفن تجسيد، بالصور الفنية، لأفكار واحاسيس ونظرات مصفاة في ذات المبدع الفردية. وهذا هو المقصود بانعكاس السياسة في الفن، وليس المعنى المباشر للسياسة. ولا يعني الجمع بين شخصية الفنان والسياسي تطابق الفن مع السياسة او خضوع واحد لآخر.

ان مفهومي السياسي والثقافي غير متعارضين الى الحد الذي يبرر تحول المثقف الى "مركز قوة" جديد قد لا يختلف، جوهريا، من حيث كونه "مركزا" عن اي "مركز" سياسي. هل هذا نوع من "حزب" جديد للمثقفين؟ ثم هل ان تحولهم الى "مركز قوة" لا يعني، بالضرورة سوى هذا الشكل؟ وهل يجري الحديث في "البيان" عن مثقفين فعليين أم مفترضين؟·أليس الابداع الحقيقي هو، ذاته، "مركز قوة"؟ ثم ألا يمكن ان يؤدي هذا الشكل من استقلال المثقف (اي تحول حركته الى "مركز قوة" جديد) الى حرمان السياسي من روح المثقف وعقله، وقد ينتج عنه زيادة تهميش دور المثقف، مثلما يمكن ان تؤدي هذه "الاستقلالية" الى مزيد من تشتت المثقفين اليساريين؟

لا يتعارض مفهوما السياسي والثقافي، مع انهما يختلفان، وفي اختلافهما يلتقيان، يتداخلان ويتصارعان (ألا يتصارع البشر كحاملي او ممثلي أفكار ومواقف فيما بينهم داخل "مركز قوة" واحد، داخل منظمة (سياسية) واحدة؟). وتبقى بينهما، في حالتي التداخل والتصارع، علاقة تفاعل لا تنفي الاختلاف والتمايز في الخصائص النوعية لكل من الثقافي والسياسي. بمعنى آخر ان الثقافي والسياسي يتمايزان عن بعضهما في شكل تعاملهما مع الواقع، وشكل فعلهما في التاريخ، لكل منهما ادواته الخاصة، واتجاهه الخاص، وتأثيره الخاص، بينهما افتراق في شكل الوصول الى المثال، والتقاء في المثال نفسه. ولهذا يمكن القول ان الثقافي والسياسي في تفاعلهما، اي في جدلهما، يصارعان بعضهما في ضفاف ذات العملية التاريخية التي تتطلع الى ذات المثال.

ان ازمة الثقافة (والحديث ما يزال في اطار هذه الاشكالية بين الثقافة والسياسة) نابعة من ازمة السياسة، وهي امتداد لها. لكن اسئلة الواقع لا يمكن حلها حلا كاملا في مجال الوعي وحده، كما يتوهم بعض المثقفين، بل لابد من حل علمي شامل لها في مجال الواقع نفسه، اي بالبديل السياسي- الثقافي، وهذا هو معنى وجوهر العمل السياسي والعمل الثقافي كضرورة للتغيير، وفي اساس ذلك، وربما

من اولوياته الراهنة، مجابهة الانهيار العام، واعادة الاعتبار للعقلانية باعتمادها، والديمقراطية باعتبارها شرطا لفعل الثقافة كما لفعل السياسة..

السياسة هي شكل الفعل الضروري والملائم لتغييرميزان القوى الاجتماعي في المستويات الثلاثة التي يتألف منها المجتمع: السياسة والاقتصاد والايديولوجيا. لكن الفعل السياسي لايستوي بلا نظرية، أو بدون معرفة، الأمر الذي يعني ضرورة انتاج معرفة ملائمة لكل مستوى من المستويات الاجتماعية. فممارسة سياسة لاتعتمد على المعرفة بواقعها لا يمكن ان تصل إلى الاستقلال الحقيقي للثقافة، بل ان كل حركة سياسية لم تنتج من معرفة بواقعها لم تمارس السياسة إلا بشكل تجريبي خاطئ. وهكذا، فالاستقلال يبدأ من ادراك الخصوصية التي هي دراسة لتجليات التاريخ. ولا يمكن ان يعني اضفاء الطابع الانساني الشامل على الأزمة اذابة الحدود بين الثقافات والخصوصية التاريخية، كما لايمكن ان تلغي وحدة الثقافة في العصر العلمي الجديد صراع وتفاعل الثقافات القومية المحلية.

حقاً ان السياسة والثقافة شكلان منفردان في العملية الروحية الانسانية. كل منهما حقل لممارسة متميزة، لها استقلالها الذاتي النسبي، ومعاييرها الخاصة، ونمط وجودها الخاص، ودورها في المجتمع. وهما شكلان متداخلان، متفاعلان. فكيف تتجلى في هذا التداخل والتفاعل الثقافة كسياسة والسياسة كثقافة، أي كيف يتجلى جدل الثقافة - السياسة؟

ان اختراق هذه الأزمة أو الاشكالية ينبغي ان ينطلق اولاً من اعادة تقييم مفهوم المثقف وموقعه ودوره المعرفي والاجتماعي. ويقضي تحقيق العلاقة الصحيحة بين الثقافة والسياسة بنقد جميع التصورات المبتذلة لهذه العلاقة، لأن تحديد معنى هذه العلاقة هو الشرط الاساسي لانتاج علاقة صحيحة بين الثقافة والسياسة. وقوام هذا التحديد هو تأكيد التمايز بين المعيار الفكري - الروحي للثقافة والمعيار البراغماتي للسياسة. كان ماركس يؤكد باستمرار ان التمايز السياسي لطبقة لايكتمل ان لم تستطع ان تمايز نفسها ثقافياً، أي ان تصوغ تصورها للعالم وتحقق استقلالها الثقافي. وبهذا المعنى فان الاستقلال الثقافي هو أحد شروط الاستقلال السياسي.

هكذا يكون المشروع السياسي بديلاً ثقافياً ينتقل فيه الانسان من الاطار السلبي المجرد إلى حقل الواقع، ومن نمط التفكير الميكانيكي إلى الفعل الذهني المبدع. وبما ان وحدة المعرفة والممارسة، اي وحدة الثقافة والسياسة تظل قائمة، فالسؤال الذي يظل قائماً ايضاً هو: كيف يمكن نقل الماركسية من الثقافة إلى السياسة دون ابتذالها؟ هذا هو أحد الاسئلة التي ينبغي ان تجيب عليها السياسة الثقافية للحزب.

وإذا كنا نسمي العمل بين المثقفين: سياسة ثقافية، فان هذا العمل لن يحقق نتائجه إلا إذا تعامل مع المثقفين بأدوات ثقافية، اي اذا كانت الثقافة عنصراً داخلياً في سياسته التي ينبغي أن تكون علماً. بهذا المعنى فإن ارتباط السياسة الثقافية للحزب بسياسته العامة لامعنى له إلا بالاعتراف المسبق بخصوصية العمل الثقافي، وخصوصية المثقفين الاجتماعية والنفسية.

والسياسة الثقافية ليست تكتيكاً لجذب المثقفين إلى الحزب للتدليل على مدى نجاحه وسعة تأثيره،

وانما هي فعل ثقافي منهجي يؤسس لثقافة جديدة. أي ان الحزب السياسي لايقدم موقفاً عن الثقافة، وإنما ينبغي أن يكون قادراً على تنظيم وانتاج الثقافة، أي تحقيق سلطته الثقافية.

وعبر تحرير ودمقرطةو أنسنة السياسة والثقافة، كشكلين متفردين، نقترب من المخرج من هذه الاشكالية. ويفترض هذا، قبل كل شيء، ان تتوفر لدينا قدرة عقلية نقدية مليئة بالمعرفة لكي نستطيع مواجهة اسئلة الواقع. ومثل هذه المعرفة يصعب ان تتحقق إذا لم يكن السياسي داهية على نحو استثنائي حتى يستطيع ان يحس بشخصية المثقف المبدع، ذلك الطفل الحالم، مثل أمير سانت اكسوبري الصغير،المؤهل لتغيير العالم، وان يفكر، مثله، بلغة الصور والتداعيات، فيكون، هو نفسه، مبدعاً في تفكيره وممارسته.

مناقشات

مثقف بادئ الاوهام

كامل شياع

هناك ثلاثة افتراضات اساسية يقوم عليها مقال الاستاذ محمود صبري المعنون "المثقف والسياسة والاستبداد" والمنشور في العدد ٢٥٦ من "الثقافة الجديدة". هذه الافتراضيات هي الكلية، المستقبلية والانسانوية. وتعني على التوالي نظرة شاملة تمسك بجوهر الظواهر الطبيعية والاجتماعية المختلفة، ايمانا لا محدود بالمستقبل كغاية حتمية تلئم تجزؤ واستلاب الحاضر، وتسليما بأن الانسان صانع للتاريخ وسيد لمصيره. تأخذ هذه الافتراضات، ارتباطا بالمثقف موضوع المقال المشار اليه اعلاه، الصيغة الآتية: ما دام من الضروري للمثقف ان يكون كلي الرؤية، مستقبلي النزوع وانسانوي الموقف، فانه ينبغي له اتباع طريق المعرفة العلمية، التي تستند على مبدأ الترابط العام والتفاعل المتبادل للظواهر المختلفة. وكل هذا يجد تلخيصه في الاقتباس الآتي: ان "الثورة العلمية- التكنولوجية تضع امام المثقف اطارا جديدا يربط بين مفهوم ثقافة واحدة تلتقي فيها كافة فروع المعرفة في سياق علمي، ورؤية اكثر وضوحا واقناعا لعالم مستقبلي من الجمال والوفرة والحرية" ص ٣١.

وبمقدار ما يتعلق الامر بالمثقف فاننا سنحاجج اولا: بأنه حتى لو جعل المثقف من المعرفة العلمية الاجمالية مثالا له، فان علاقته بالعلم ليست مباشرة بل تمر عبر حدين توسطيين هما الثقافة والسلطة، وثانيا: ان المثقف المعاصر هو ليس بالضرورة ذلك المحمول على تركيب صورة شاملة للعالم وفق نموذج علمي. بالنسبة الى النقطة الاولى يلاحظ ان المثقف، خلاف الاختصاصي التكنولوجي (Technologue)، مغروس في ثقافة محددة قد يسودها العلم او قد لا يسودها. وبفضل هذه الثقافة بجديدها وقديمها، بلغتها ومعانيها واكتشافاتها ونظام انتاجها المعرفي، يجد المثقف دوره ويجعل افكاره وخواطره مفهومة وذات صلة بشعبه. لا يصح، اذن، لاجل تنصيب المثقف كقيم على الحقيقة

الكلية، النظر الى الثقافات ككيانات شفافة الحدود قابلة للصهر في ثقافة عالمية واحدة. بالعكس، فان الثورة العلمية- التكنولوجية، التي يتخذها الاستاذ الكاتب كأساس لنشوء ثقافة عالمية واحدة، تهئ الارضية، تحديدا بفضل طابعها العالمي، للاعتراف بتمايزات ثقافية سبق لمشروع الحداثة الغربي ان طواها باسم واحدية الحقيقة والتقدم الخطي للتاريخ. وأزاء هذه الوضعية اصبح دور المثقف هو ليس الترويج للان عزالية الثقافية او نقيضها -اي الاندماج الثقافي- بل تأشير اتجاهات التفاعل بين المحلي والعالمي، بين الاستمرارية والانقطاع وبين التمايز والوحدة.

اما بخصوص التوسط الثاني (السلطة) فاننا نجادل بلا امكانية وجود علاقة مباشرة بين المثقف والعامل، وبين النظرية والتطبيق لانها -اي العلاقة- تمر بالضرورة عبر الكيفيات الملموسة لتنظيم السلطة والتي قد تكون سائدة او مسودة. ولهذا عند الاشارة الى ان الفكر يصبح قوة مادية حين يهيمن على اذهان الناس فاننا لا نستطيع ان نعفي انفسنا من التعقيب بان نفس هذه القوة المادية ستهيمن على الفكر وتحرمه من استقلاليته النسبية. ولقد انتهى الفكر، لاكثر من مرة في التاريخ الحديث والمعاصر، الى ان يكون ضد نفسه بفعل السلطة التي هي وراءه. ويمكن لهذا الغرض استذكار اكثر من مثال، من الشرق والغرب، لتنكر السلطات والحركات الثورية للفكر وللمثقفين. وبالاحرى فبدلاً من المفاضلة المجردة بين اسبقية السياسة على الثقافة، او العكس كما حاول المقال، ينبغي الاعتراف، ما دامت السلطة هي توسيط لازم ضمن الشرط الحاضر او المستقبلي للثورة العلمية- التكنولوجية، بان المسألة هي مسألة ادوار تاريخية يكون فيها المثقف تارة داخل نسيج النخبة السياسية، وتارة اخرى خارجها. وعليه ينبغي ان نتذكر بان الوجه الآخر للمثقف الذي ينتدب نفسه، او تنتدبه ضرورات التاريخ، لان يلعب دور المشرع الثوري للمجتمع هو المثقف المفسر والاعتذاري. واذ لا يستطيع المثقف في الحالتين الا ان يعي نفسه كبوصلة للحقيقة، فان علينا اما ان نصدق ادعاءه هذا او ان نرجعه الى انتشائه بالسلطة او استيائه منها.

تفترض النقطة الثانية من محاججتنا بانه لا يشترط بالمثقف في زمننا هذا ان يكون علموي النزوع ليتأهل لصفات المعاصرة والصدق والروح النقدية، لكن دون ان يعني هذا الحط من قيمة المعرفة العلمية وايثار الذاتوية والظلامية. عند تطرقه الى مشكلة المثقف العراقي يدعو المقال الى الخروج من "البدائل والاطر الفكرية التقليدية التي لم تعد تلائم الظروف الجديدة" ص.٢٤ ثم يقترح لنا البديل كأعادة "تقييم لمفهوم المثقف وموقعه ودوره المجتمعي في سياق المعرفة الجديدة التي تقترن بالثورة العلمية-التكنولوجية" ص.٢٥ وبيت القصيد هنا هو ماهية هذه المعرفة الجديدة؟ حسب ما ورد في المقال تتأسس هذه المعرفة على تكافؤ الثقافة والعمل، على ظهور المثقف كقوة اجتماعية مستقلة، على التعامل الشمولي مع ظواهر الواقع وعلى الاعتقاد بالامكانيات الهائلة للتكنولوجيا في السيطرة على الطبيعة والارتقاء بحياة الانسان. اين الجديد في كل هذا عندما نتذكر ان يوتوبيا سان-سيمون ووضعية تلميذه اوغست كونت في القرن التاسع عشر قد رهنتا كل ايمانهما وتفاؤلهما على قدرة العلم الحتمية و "السحرية" على تنوير البشر وتحريرهم وتوحيدهم؟.

ويمكننا الذهاب ابعد الى القول بانه ليست هناك اليوم معرفة تركيبية شاملة بل جملة معارف جزئية متنامية عميقة التخصص. واذا عدنا الى الفلسفات او النظريات المعاصرة للعلم كالبراغماتية والتأويلية

والتواضعية والواقعية، فاننا نلاحظ ان الميل السائد هو باتجاه نسبنة (من نسبي) ونبذ او اعادة تفسير لمبدأ التطابق (Correspendence principle). اي ان ما يحدث في الغرب هو فصل للعقل العلمي الاداتي عن العقل العملي الاخلاقي (فصل يعود بالاساس الى الفيلسوف الالماني كانت) أو احتواء للعلم في المصلحة العملية او في مجال اللغة والفهم. الظاهر انه، بفضل الثورة العلمية-التكنولوجية ذاتها، توفرت فرص اوسع لفصل الممارسة العلمية والاستخدام التكنولوجي عن النظرة العلمية الشاملة للعالم. وهذا ما يحصل فعليا حتى في بلداننا العربية التي تتجاوز فيها التكنولوجيا مع اكثر الافكار تقليدية. وهذه مسألة تتطلب الوقوف عندها لاننا نعيش اليوم في شرط، يسمى بحق شرط ما بعد الحداثة، تطغى فيه وفرة الوسائل وتعددها بدرجة لا سابق لها على واحدية الغاية ومثاليات المستقبل.

واذا كان الامر هكذا يصبح من العبث حقا مطالبة مثقفنا العراقي بمثلنة العلم واستشراف نظرة كلانية الى العالم ابتداءا منه، لقد كان هذا افيون الايديولوجيا التي يعيد الكاتب احياءه باسم الموضوعية والاطلاقية.

ان العقلانية العلمية هي ليست العقلانية بدون منازع، وربما سيساعد وعي هذا الاختلاف على شحذ الروح النقدية عند المثقف. دون ان يكون رافضا للعلم وللابعاد الايجابية للثورة العلمية-التكنولوجية فان ما يستحق الدفاع عنه بالنسبة للمثقف هو عالم الحياة منظورا اليه من زاوية عقلانية رحبة.

* * * *

مناقشات

حول الموقف من الثقافة والعلاقة بالمثقفين

عزيز محمد

ان شعبنا، الذي ينوء تحت ثقل سياسات التجويع والاذلال والترويع، يتطلع الى سماع صوتكم اعلى واعلى في مناصرته واسناد سعيه لتقريب ساعة الخلاص، والانغمار في بناء الوطن الديمقراطي الجديد. واننا في هذا السياق كذلك نهيب بالمنتشرين منكم في المهاجر ان يستجمعوا قدراتهم، ويقيموا ويستهلوا عملهم الثقافي والسياسي المستقل، ويحولوه اداة ضاربة في نهوض شعبنا ضد سلطة الجلادين واللصوص، مؤكدين ايماننا بحرية الابداع والمبدعين والفكر والمفكرين، واستعدادنا الكامل للتعاون وتقديم كل الدعم الممكن . ويدا بيد على طريق الحرية والجمال. المؤتمر الوطني الخامس

تعتبر قضية الموقف من الثقافة والتعامل مع رسلها، قضية حساسة في غاية الاهمية وهي مرتبطة بالاساس وبالدرجة الاولى بفهمنا كماركسيين لماهية الثقافة ودورها في الحياة الاجتماعية وتأثيرها على العملية الثورية. وبتصوري يصعب على المرء الالمام ببدايات الماركسية دون ان يستند على قاعدة ثقافية وبدون المام ثقافي عام، وكلما كان الاساس الثقافي للمناضل الماركسي صلدا ومتنوعا، كلما كانت قدرته على استخدام الماركسية كأداة معرفية لفهم الواقع وتغييره، اكثر. من اجل ان يفهم المناضل الثوري، الماركسية بمعناها الشمولي، عليه ان يتحلى بفهم واضح لاسس الثقافة ودورها في العملية الثورية، فلا يمكن للمرء ان يكون ماركسيا بمجرد ترديد مجموعة من المقولات الماركسية. ان ما يجري احيانا من استشهادات بلينين وماركس وبكلاسيكيي الماركسية من قبل بعض اطراف الحركة الثورية،

بعد ان تكون هذه المقولات قد اقتلعت من جذورها وانتزعت من المناسبة التي قيلت فيها، اساءة للماركسية، لان هذه العملية تجري بشكل متقاطع مع مفهومي الزمان والمكان اللذين يعتبران من المقولات الاساسية في الفلسفة الماركسية اثناء دراسة الظواهر الاجتماعية وتقييمها. وهكذا يكون هذا الاستشهاد سيئا للغرض والهدف المستخدم له ولا يمكن تطبيقه على الظروف الجديدة. ان الثقافة العامة تمنح المناضل القدرة على التخلي بالتحليل الماركسي للاحداث بعيدا عن الاستشهاد المجرد بالمقولات او تطبيق القوالب الجاهزة دون فهم الخصوصية ومراعاة الزمان والمكان. ان الالمام بالثقافة يساعدنا على فهم التناقضات الموجودة بصورة اوسع وفهم تباين الظروف الاجتماعية والتاريخية والاقتصادية وهذه التباينات ستنعكس بشكل او بآخر في جوهر تحليل الظواهر والاحداث استنادا الى الماركسية. ان العمق والالمام الثقافيين والاحاطة بتاريخ البلد يؤهل المناضل ويبلور قدرته على كيفية التعامل مع الافكار التقدمية في اطار خصوصية هذا البلد او ذاك ومراعاة التنوع الموجود. فباعتقادي ليس هناك ما هو مشترك في الحديث عن الاشتراكية والنضال من اجل نظام تقدمي في بلد كأفغانستان بالمقارنة ببلد متطور كفرنسا، سوى الاسم والمفهوم العام المبني على النضال لايجاد مجتمع خال من استغلال الانسان. ولكن ستتغير تجليات هذه الامور حتما حسب خصوصية كل بلد. ومن هنا فان التعامل مع النصوص والمقولات الماركسية في كل بلد بكيفية واحدة، سيكون مجالا للهزل والسخرية. ان كونية الماركسية وشموليتها يجب ان تنسجم مع الخصوصيات المحلية ويبقى الامر مرهونا بموقف الماركسيين وكيفية تعاملهم مع المقولات من جهة والواقع من جهة اخرى. لذا أؤكد على ضرورة الثقافة بالنسبة للمناضل الماركسي باعتبارها حاجة ضرورية وليس ترفا فكريا فلا يمكن للمناضل الالمام بالماركسية دون ان يكون لديه المام ثقافي عام ومتنوع. وانطلاقا من هذا الفهم للثقافة ودورها المتميز، نشط حزبنا منذ بداية نشوئه في ميدان الثقافة ونجح في تعامله الى حد بعيد مع المثقفين. ويصف بعض الرفاق في الحركة الشيوعية وعلاقة الحزب الشيوعي العراقي بالمثقفين والثقافة، بعلاقة الحزب الشيوعي الفرنسي بهذا الوسط، حيث نشط في وسط الحزبين اعداد كبيرة من المثقفين البارزين. ففي العراق، من الصعب ان يؤرخ للادب الحديث والشعر الحديث وللرواية والانشطة الادبية الاخرى، بمعزل عن ارتباط هذا الوسط بشكل من اشكال العلاقة بالحزب الشيوعي العراقي. وبطبيعة الحال، فان طبيعة الانظمة الدكتاتورية والرجعية التي تعاقبت على حكم العراق، ساهمت في تضييق مجالات الثقافة والابداع والانفتاح والانطلاق وسدت الابواب بدرجة كبيرة بوجه جمهرة المثقفين والمبدعين، لذا فمن الطبيعي ان يجد هذا الوسط متنفسا ومجالا رحبا له في صفوف الحزب الشيوعي العراقي او بشكل من اشكال العلاقة معه، وفي النهاية كان الحزب الوعاء الذي انتعش به العاملون في هذا الميدان. ان هذه العلاقة الصميمة بين الحزب وجمهرة المثقفين في البلاد لم تأت بشكل عفوي اطلاقا، فقد استوعب قادة الحزب الاوائل ماهية الثقافة وخاطب الحزب المثقفين بلغة المثقفين والادباء بلغتهم، كما ان قادة الحزب الاوائل كانوا من المثقفين البارزين والنشطين في مجالات الثقافة والابداع فالشبيبي كان شاعرا ويذكر الجواهري الكبير في مذكراته علاقته بالرفيق فهد وكيف كان الرفيق فهد يرسل بعض المقالات لنشرها في الجريدة وكان

الجواهري الكبير يرسل تلك المقالات للنشر دون مراجعة او تدقيق، ليقينه بان تلك المقالات المرسلة من الرفيق فهد معتنى بها شكلا ومضمونا. لقد ادرك الرفيق فهد، في بداية سنوات النضال، ان هدف الاعداء من سجن الانسان المناضل هو تغريب هذا الانسان فكريا وشله ثقافيا عن طريق عزله وابعاده عن الناس ومنابع الثقافة والنشاطات الفكرية والذهنية، اضافة الى تدميره الجسماني الصحي. وانطلاقا من هذا الادراك اهتم الرفيق فهد بمعالجة هذين الجانبين، ونشط في مجال الدراسة ودفع الرفاق الى الاهتمام بالقضايا السياسية وتعليم اللغة ودراسة الادب وقضايا الاقتصاد السياسي والثقافة بصورة عامة، داخل السجن، كما اهتم بمجالات العمل والرياضة والنشاط الجسماني، لكي يحافظ المناضل على وضعه وتماسكه وفكره وصحته.

ان هذا المنحى العام في سياسة الحزب وفهمه للثقافة وعلاقته مع جمهرة المثقفين لا يعني عدم وجود ظواهر تعبر عن ضيق النفس في التعامل مع المثقفين وبالتالي تشكل خللا واضحا في سياسة الحزب خلال فترات معينة من تاريخ حزبنا، اقترنت ببعض مظاهر الدروشة والجمود العقائدي والظروف الناشئة عن التغييرات في قيادة الحزب نتيجة الاعتقالات والملاحقات، لكن هذا لا يغير الوجهة الاساسية العامة لسياسة الحزب ومواقفه في التعامل مع هذا الوسط. ومن المعلوم ايضا، ان هذه الوجهة العامة لا تنفي ضرورة تطوير سياستنا الثقافية وتجديد اطر علاقتنا مع المبدعين ومعالجة ثغراتنا الذاتية وتلك المشاكل الناجمة عن صعوبات النضال وتعقيدات الصراع الجاري في البلاد. فميدان العمل الثقافي سيظل ميدانا ابداعيا وعلاقة الحزب بهذا الميدان ورسل الثقافة والمبدعين عموما، من شأنها ان تغني الحركة الثورية ونضال جماهير شعبنا من اجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي. وعبر استعراض سريع لدور الحزب في الحركة الثقافية وعلاقته بالشعراء المحدثين والقدامى والشخصيات الثقافية البارزة، سنجد بان الحزب بذل جهودا غير قليلة لاقامة صلات مع هذا الوسط. وتطورت سياسة الحزب في هذا المجال عبر الصراع الداخلي فلم يكن هذا التطوير من الامور السهلة وخصوصا ان البعض في صفوف الحزب يريد دائما وضع قوالب لمثل هذه العلاقات في حين ان التعامل مع المبدعين ورسل الثقافة يحتاج الى تعامل خاص وفهم خاص وعلاقة لا يمكن قياسها بأدوات هندسية. ولا يمكن استخدام المعايير المراد تطبيقها على العضو الحزبي في التعامل مع افراد هذا الوسط المبدع. واذا كنا قد نجحنا في الحزب في اقامة علاقات واسعة مع هذا الوسط في الماضي، فاننا بحاجة الى صلة اعمق واوسع مع هذا الوسط مستقبلا. وعلى الصعيد الحزبي الداخلي وما ينشر في صحافتنا الداخلية فاننا نلاحظ بان من يملك الالمام الثقافي اكثر قدرة على التعبير عن قضايا فكرية بالشكل الذي يدخل الى اذهان الاخرين في حين يصعب هذا الامر على الذين لا يملكون الالمام الثقافي الكافي وبالتالي فان رفاقنا العاملين في الاعلام والمجالات الفكرية هم بحاجة اكثر الى المزيد من الثقافة. من المهم جدا مراعاة الجانب الذاتي في شخصية الشاعر والاديب والفنان، فغالبا ما يكون الانسان المبدع في هذه المجالات مرهفا في حسه، ويملك مزاجية خاصة يجب مراعاتها عند التعامل معه. واذا تمكنا من استيعاب هذه المزاجية والجانب الذاتي في شخصية المبدع، تزداد قدراتنا على اقامة صلات نشطة مع هذا الوسط.

ان علينا ادراك حقيقة مفادها أن تقييم العمل الابداعي يجب ان يجري من خلال معرفة مدى

مساهمته في تقدم الفكر التقدمي ليحتل موقعه الطبيعي، وليس من الصحيح تقييم الكاتب والمثقف عموما من خلال بعض "الهفوات" في الكتابة والشعر وفي هذا المجال او ذاك، دون ان نأخذ دور هذا المثقف المبدع ومساهمته في الحركة الديمقراطية التقدمية، بصورة اجمالية والاتجاه العام الذي تصب فيه مجمل نشاطاته الفكرية، وهنا يخطر ببالي ما قيل على لسان لينين وكيف انه شبه تولوستوي بمرآة الثورة الروسية في حين كان الكثيرون في عصر لينين يملكون تصورات اخرى عن تولوستوي. لذا يجب التأكيد على ان مقياس كل نشاط تقدمي ابداعي خلاق في مجال الثقافة، هو مدى خدمته ومساهمته في حركة التاريخ. وعلينا في داخل الحزب، وفي اي موقع لنا، ان نتعامل وفق هذا المعيار مع المثقفين كما وعلينا اشعار المثقفين باعتزاز الحزب بهم وهذا الاعتزاز ليس قضية مفتعلة آنية او محض مجاملة، بل تعامل حيوي ونابض في تعاملنا اليومي... هكذا كان الرفيق الخالد فهد يقيم الجواهري الكبير وهكذا كان الشبيبي يتعامل مع الشعراء والمثقفين والمبدعين.. ولدي قناعة بأنه كلما وثقنا علاقاتنا مع المثقف ين وكلما اتسمنا برحابة الصدر في التعامل مع المثقفين وكلما بذلنا الجهد لنتعلم منهم، نكون قد قمنا بواجبنا حول هذا الموضوع.

قد يدخل المثقف في بعض الاحيان بمشاكل مع الحزب وخاصة عندما تكون مقاييس الحزب ضيقة. واعتقد بان علينا ان نتحلى ببعد النظر في تعاملنا مع هذا الوسط وان لا نتضايق من هذه الحالات. وعلى صعيد الواقع كان هناك اصدقاء وشخصيات ثقافية معروفة في البلاد كانت لديهم مواقف لا تنطوي على الود تجاه حزبنا في هذه المسألة او تلك وفي هذا اليوم او يوم آخر، ولكن المهم ان يكون عملهم ونشاطهم كمحصلة نهائية يصب في مجرى التقدم وما دام الامر يجري هكذا فاننا سنعتبر كل هؤلاء المبدعين في صفنا. وهكذا يجب ان نظل في قياساتنا.

ان المساهمات الفكرية للمثقفين تتخطى حدود الزمان والمكان والاطار الايديولوجي الموجود. وفي حديث رفاقي لي مع الغائب الحاضر دوما، الكاتب المبدع غائب طعمة فرمان حول تقييم نشاطه، قلت له آنذاك بأن حالته ككاتب مبدع تختلف عن حالتنا كسياسيين. فالسياسي عندما تنتهي حياته، قد تقال بضع كلمات في توديعه اثاء رحيله، اما كاتب مبدع كغائب طعمة فرمان، فسيبقى حيا في نشاطاته ورواياته وعمله الابداعي، فالكاتب المبدع سيواصل وجوده من خلال ما الفه وما نشره.

ومن استعراض مسيرة الحزب النضالية وخاصة في السنوات الاخيرة نجد ان بعض الاخوة من الادباء والمثقفين تركوا الحزب لهذا السبب او ذاك، لكن المهم ان لا يتركهم الحزب وحتى اذا تركونا -اي المثقفين- بمسافة فان علينا ان نبذل قصارى جهدنا لكي تكون المسافة ضيقة وفي حالة تغيير الظروف والاوضاع التي دفعتهم الى الابتعاد، علينا التعامل معهم بمرونة اكثر ورأب الصدع. وهنا استذكر علاقة كوركي وما اكتنفها من مشاكل مع زعيم الثورة لينين حيث دخل معه في مماحكات مباشرة ولكن التعامل المرن للينين وفهمه الدقيق لدور كوركي ولمساهماته ابقت المسافة وشقة الخلاف قصيرة.

ان حياة الشاعر والفنان المبدع لا تترتب مثل ما تترتب حياة مناضل آخر. ومن الضروري الالمام

بالجانب النفسي للمثقف وانفعالاته وكماعلينا ان نأخذ بنظر الاعتبار الظروف النضالية الصعبة التي مرت بها البلاد. فالدكتاتورية باطشة ودموية والثقل النضالي على المناضل ثقيل بالشكل الذي لا يتحمله كل الناس ولربما من بينهم بعض العاملين في المجالات الثقافية، الذين قد لا يطيقون تلك الظروف الصعبة فيقعون تحت الحمل. وهنا من الضروري ان نساعدهم لكي ينهضوا ويقفوا على ارجلهم من جديد، لا ان نعتبر قضيتهم ومساهماتهم منتهية، فالحياة لا تنتهي بهذه الطريقة بالنسبة لهؤلاء المناضلين وكان من الممكن ان لا يقع هؤلاء المناضلون تحت الحمل وان لا يبتعدوا عن حزبهم لو كانوا يعيشون في ظروف اخرى او في بلد آخر فيه هامش من الديمقراطية ولكن الحالة مختلفة عندنا، لذا من واجبنا اخذ ظروف النضال القاسية بنظر الاعتبار.

قرأت مؤخراً بان الشاعر بدر شاكر السياب اضطر في ظروف خاصة الى كتابة مقالة (عندما كنت شيوعيا) في احدى الجرائد العراقية. وفي آخر ايامه كان نادما على ذلك.

خلال حياتي النضالية عرفت الكثيرين من الشعراء الذين تركوا الحزب في ظروف خاصة والتحقوا بالحزب وبالقافلة من جديد. وبأعتقادي يبقى اساس التعامل مع رسل هذا الوسط بالارتباط بالوجهة الديمقراطية التقدمية التي يساهمون في تغذيتها وتطورها لا بالارتباط المباشر بهذا الحزب او ذاك.

ومن الامور الهامة، التي يجب ان نأخذها بنظر الاعتبار، تأثيرات تلك الانهيارات التي حصلت في الاتحاد السوفيتي السابق وبلدان اوروبا الشرقية والتي هزت جمهرة المثقفين والمبدعين، وهذه الهزة اذا ما وضعناها في سياقها التاريخي يمكن القول بانها ستكون مؤقتة. وهي حافز للمثقف الاصيل ليفكر بمزيد من العناد لمعرفة ما حصل وكيف حصل؟ وما هو الحل؟ ... وهناك بوادر تشير الى الصحوة والمعافاة من خلال فهم حقيقة مفادها ان الاشتراكية هي التي انتفضت على نفسها وعلى سلطتها . وهذا دفاع لهذا الفكر عن نفسه ضد كل التجاوزات التي حصلت لان الاشتراكية ما كانت ستبنى بهذه الطريقة ولم يكن بمقدورها الاستمرار بتلك الشاكلة رغم ان ذلك النموذج منذ بداياته كان يمتلك مقومات النجاح. ان على المثقف ان لا يستبق الاحداث وان ينظر الى القضية ضمن اطار تاريخيتها فعمر الاشتراكية اقل من قرن .

لقد اثرت تلك الانهيارات وما حدث في تلك البلدان على مزاج المثقفين الديمقراطيين التقدميين في كردستان وعموم العراق، لكن هول الكارثة وما جلبه الدكتاتورية من دمار شامل على الصعيد الداخلي وضع المثقفين في المحك وفي المواجهة للواقع لذا فلا يمكن للمرء الا ان يعتز بدور المثقفين ومساهماتهم حيث لم يحيدوا عن الفكر التقدمي رغم كل الصعوبات ورغم كونهم تحت ثقل كابوس الدكتاتورية، ان هؤلاء يشكلون نماذج بارزة للثقافة التقدمية والحركة الوطنية، وهم مثار فخر جماهير الشعب واعتزازهم.

وضمن هذه الظروف العامة حيث الدكتاتورية الباطشة وحربها الشوفينية في كردستان، يصح كقاعدة عامة القول بان كل مبدع وشاعر ومثقف كردستاني مخلص لقضية شعبه ووطنه في ظل هذه

الاوضاع القائمة، لا يمكن لفنه وادبه الا ان يكون تقدميا لأنه يدافع عن قضية عادلة الا وهي قضية الشعب الكردستاني ومن هذا المنطلق فان التعامل مع هذا الوسط في كردستان يجب ان يكون بالارتباط بالقضية العامة وليس وفق المقاييس الحزبية الصرفة.

لقد كان لحزبنا الشيوعي قدرات هائلة في تعبئة الجماهير ومختلف الفئات الاجتماعية واحرز انتصارات غير قليلة في مجال التعامل مع وسط المثقفين وساهم في اغناء الادب الثوري واللغة والشعر ومختلف صنوف الكتابة. واذ يحق لنا ان نعتز ونفخر بسفرنا النضالي الطويل كحزب شيوعي في هذا المضمار، فان علينا مواجهة مهام جديدة لا يمكن النجاح في ادائها الا بمراجعة نقدية بناءة لانجازاتنا واخفاقاتنا وتجديد خطابنا السياسي واستيعاب الجديد في مختلف مجالات الثقافة والابداع، وهذا ما سيشكل الارضية المناسبة لتطوير وتوثيق صلاتنا مع المثقفين والمبدعين.

مناقشات

رسالة

الاعزاء في اسرة تحرير الثقافة الجديدة
تحية رفاقية حارة

انقل لكم ملاحظات ومقترحات سبق ان طرحت بعضا منها باختصار. أملي ان تنال اهتمامكم، وهي في الغالب ليست ملاحظاتي بمفردي.

تحمل الثقافة الجديدة شعارها المعبر وهويتها على الغلاف:

فكر علمي- ثقافة تقدمية. يا لها من كلمات رائعة نطمح لأغناء معانيها ومحتواها، ولكن لم نستطع الا جزئيا. فقد اقتصرت مواضيع مجلتنا على السياسة، الفلسفة، علم الاجتماع، الفن، الآداب وقليل من التراث والاقتصاد. اما باقي مواضيع الفكر العلمي والثقافة التقدمية فلم تدخل صفحات المجلة الا ما ندر. ان جامعاتنا العراقية تضم عشرات التخصصات الاخرى التي لم نستطع فتح الباب لها في سنوات التدهور الفكري الراهنة.

واذا نظرنا للثقافة الجديدة باعتبارها مجلة سياسية معارضة فان احدى اهم مهماتها هي تجميع المثقفين العراقيين التقدميين حولها على مختلف اختصاصاتهم واهتماماتهم.اذن لابد من موقف جديد واعادة نظر بدور وابواب المجلة.

للأسف لم يسبق للحزب ان اعار اهتماما جديا لكفاءاتنا العلمية والتقنية او بذل جهدا لأحتضانها وتطويرها لذلك اهملنا النتاج العلمي والاكاديمي في الاختصاصات الاخرى ولم نستطع توظيفها لخدمة ثقافتنا العلمية. وبعد مرور مما يزيد على عقدين على هذا المنهج تحول غالبية مثقفينا الى مجرد قراء، ولم نستطع ايجاد وسيلة مناسبة لزجهم في النشاط الثقافي- الاعلامي للحزب. ويعود هذا الى الخلل المزمن في موقفنا من الكتابة المتخصصة وتسليط الضوء على قلة من الحقول.

مثلا، لماذا نطالب من يكتب عن موضوع تقني او طبي ان يربطه بالسياسة او الجوانب الاجتماعية ولا نطلب ذلك من شاعر يكتب قصيدة غزل او تداعي خواطر؟ وهل يقتصر اهتمام قرائنا على المواضيع

المذكورة اعلاه؟ وما هو موقفنا من مواضيع علمية حول: هندسة الجينات او آخر التطورات في حقل معالجة السرطان او تكنولوجيا الكمبيوتر او الاكتشافات الفلكية او علم التربية او الرياضة او موضوع عن تأثير الاشعاعات او الزلزال ومئات المواضيع المشابهة؟ الا تستحق بضع صفحات في كل عدد؟

ومقترحي باختصار هو فتح الباب لهذه المساهمات وفق ضوابط مرنة محددة سلفا في باب خاص "علوم- طب- تكنولوجيا" وحث جمهور المثقفين على المساهمة، ربما بتوجيه دعوة بالاسم لهم، والتعهد بمساعدتهم في التنقيح اللغوي للمواضيع لكي تأخذ شكلها اللائق قبل النشر. وحولنا هنا عشرات المختصين كل في حقله يمكن الاستعانة بهم لتدقيق المصطلحات اذ يصعب على اسرة الثقافة الالمام بكل الجوانب رغم العقل الكبير والثقافة الموسوعية لبعض محرري مجلتنا.

النقطة الثانية التي اود طرحها هي مساعدة قراء الثقافة الجديدة ممن يرغبون بالمساهمة في المناقشات الفكرية والسياسية على نشر كتاباتهم. ومع اتفاقي تماما وتوجهكم نحو الحفاظ على نوعية وجودة المحتوى والاسلوب فان هذا يقتضي عدم مطالبتهم بكتابة مقالات تقترب من جهد البحوث. فالطبيب والمهندس والفزيائي والكيميائي والزراعي وغيرهم سيجد كتابة موضوع بالعربية يقارب في مستواه "البحث" مهمة تعجيزية.

مقترحي هو فتح باب (آراء حرة) لمن يكتب ونقدم يد العون لهم في التدقيق دون ان نتحول الى "رقيب".

ولا شك من ان انضمام اعداد اكبر من الاكاديميين والعلميين لكتاب الثقافة الجديدة هي مهمة سياسية وفكرية تضفي على المجلة هيبة ورصيد أكبر.

النقطة الاخيرة: هل فكرنا بالمستقبل؟ كيف يمكننا ان نجعل الجيل الجديد من الشباب يقرأ المجلة؟ كم هو محزن ان نجد ابناءنا يعزفون عن قراءة ادبياتنا ومجلتنا. هل السبب فعلا قلة وعيهم، ام هو عجزنا عن التطور والتجديد الذي نحاول تبريره كما فعلنا طويلاً؟.

سؤالنا ايها الاعزاء: لمن تكتب الثقافة الجديدة؟ هل لعدد محدد من جيل الشيوعيين القديم ام لليسار الديمقراطي ام لقطاع معين من المثقفين التقدميين؟

مع التقدير لجهدكم...

د. هشام جبر

مهندس ميكانيك

نشكر للدكتور هشام جبر ملاحظاته الوجيهة، ونرحب بمقترحاته، املين ان يساعدنا المختصون في علوم الطبيعة في وضع هذه المقترحات موضع التطبيق اعتبارا من العدد القادم.

اسرة التحرير

مناقشات

العلم الشعبي

د. محمد عبد اللطيف مطلب

منذ بداية العصر الحديث اصبح العلم يزداد اهمية، ويتغلغل بصورة مطردة في حياة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، كما يزداد تعقده وتخصصه، ويصبح اكثر فأكثر قوة منتجة.

وتستغل الامبريالية، في نشر ايديولوجيتها الرجعية والهاء الجماهير وتعميتها، احدث الوسائل العلمية والتكنيكية، كما تستخدم جميع امكانيات وسائل الاعلام الجماهيري الصحفية والالكترونية. فمن اجل التصدي لهذا الهجوم الامبريالي بعمل مضاد يجب نشر "العلم الشعبي" الذي يرمي الى نشر المعرفة العلمية واساليب العمل العلمي والنظرة العلمية للعالم في اوساط الجماهير.

نبذة تاريخية

خلال الثورة الفرنسية (١٧٨٩) اصبح نشر العلم الشعبي يستهدف تطوير "عقل الشعب" وتقوية امكانياته في كفاحه من اجل الديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

وفي الربع الثاني من قرننا هذا برز الاتجاه الديمقراطي في نشر العلم الشعبي بين علماء انكلترا، وكان من بينهم العالمان البيولوجيان ج.ب.س. هالدين و ج. هكسلي، ومؤرخ العلم س.ليللي. فكان هالدين ينشر مقالاته في اعوام (١٩٣٨-١٩٥١) في صحيفة الـ "ديلي وركر" اسبوعيا تحت عنوان "العلم للناس البسطاء". وكان هكسلي يستهدف "تجديد المجتمع ونشر الديمقراطية". وكانت الشخصية المركزية في اليسار العلمي الانكليزي ج.د. برنال، اذ صاغ فكرته عن العلم الشعبي عام ١٩٣٩ بقوله: "تزداد اهمية العلم الشعبي زيادة كبيرة حينما تصبح له علاقة بحاجات المجتمع واهدافه... فكل معرفة شعبية عن نتائج البحث العلمي والامكانيات التي يفتحها للبشرية لها فعل اجتماعي وسياسي كبير". اما هالدين فد ذهب الى "ان الديمقراطية لا تكون فعالة في عالمنا العلمي- التكنولوجي الراهن دون معرفة واسعة جماهيرية بالعلم".

اثناء الحرب العالمية الثانية نبه العلماء اليساريون الانكليز الى المخاطر الهائلة التي تنشأ من استخدام العلم لاغراض عسكرية. وقد صرح هكسلي: "ان استخدام العلم لأغراض عسكرية يولد خطرا لا يقتصر على البشر، انما يهدد الكائنات الحية كلها". وكانت "امكانية تحريم الحرب" والنقاشات التي جرت حولها احد مواضيع العلم الشعبي في نشاط اولئك العلماء. فقد كان هكسلي يبين لقرائه ان الحروب لا تستند الى اية ضرورة بيولوجية. اما هالدين فعالج الاسباب الاجتماعية للحروب، وذهب الى ان "من واجبنا ان نوحد جهودنا لصيانة السلم مع مختلف الناس الذين يكافحون من اجل نفس الهدف، سواء أكانوا قساوسة او بولشفيك". وكان يرى ان اهم هدف للحركات الشعبية هو "اقامة مجتمع سلمي"، فالمجتمع العالمي السلمي وحده هو الذي يستطيع ان يدرأ الاخطار البيئوية التي ترتبط بالتصنيع، واستئصال "نوع" واحد من انواع الكائنات اسوأ بكثير من قتل شخص. فالشخص سيعوض خلال جيل واحد، اما نشوء نوع جديد من الكائنات الحية فقد يستلزم مليون سنة. لهذا اصبح الحفاظ على الانواع الحية احد واجبات المجتمع العالمي.

ما هو العلم الشعبي؟

ليس العلم الشعبي صنفا او فرعا خاصا من العلم الى جانب العلم الاختصاصي، انما هو علم يعرض عرضا شعبيا مفهوما للجماهير.

يجب التمييز مقدما بين ما نسميه بـ "العلم الشعبي" Popular Science و "العلم المبتذل" Vulgar Science . فالعلم الشعبي هو العلم الذي يقدم بفحواه وطرقه وفلسفته بصورة مبسطة تفهمها الجماهير، بينما "العلم" المبتذل لا يعدو عن كونه تشويها وابتذالا للعلم، يفقده الصفة العلمية، كما يجري احيانا في بعض الكتابات والاذاعات التلفزيونية بهذا الصدد.

ليس من واجب العلم الشعبي القيام باكتشافات علمية اختصاصية او تطويرها، انما يقتصر واجبه على نشر العلم والنظرية العلمية في اوساط الجماهير.

رغم الارتباط الوثيق بين العلم الاختصاصي والعلم الشعبي، توجد فروق واضحة بينهما. فالعلم الاختصاصي يعنى بالكشف عن القوانين والروابط والحقائق الموضوعية في الطبيعة والمجتمع، ويهمل جوانب اخرى في عملية المعرفة، كالعوامل الشخصية والعاطفية في تطور العلم، وكفاح العالم من اجل نشر المعارف الجديدة، والظروف الاجتماعية والطبيعية التي احاطت بالاكتشافات العلمية، والتأييد او المعارضة التي تلاقيها الآراء العلمية (بالقدر الذي لا تكون فيه هذه الامور موضوعا للعلم الاختصاصي نفسه، كما في تاريخ العلم مثلا). اما العلم الشعبي فلا يقتصر على نتائج البحث العلمي وحدها، انما يمتد الى عملية الابداع العلمي كلها، بكل جوانبها الشخصية والعاطفية والاخلاقية والجمالية والاجتماعية...، وعلاقة العلم بالناس بجميع الاشكال والمستويات. بهذا المعنى لا يقتصر العلم الشعبي على الارتباط بالعلوم الاختصاصية وحدها، انما بالفن والادب ايضا.

لا يمكن للعلم الشعبي طبعا ان يعوض عن البحث العلمي. ولكن العلم الشعبي يمكن ان يحفز

العلماء على البحث العلمي بشكل من الاشكال. فاكتشاف مندليف للنظام الدوري للعناصر الكيمياوية، واكتشاف لوباتشيفسكي للهندسة اللااقليدية، كان بتأثير من اشتغالهما بالتعليم. وقد اصبح العلم الشعبي يعتبر الآن عاملا فعالا في كل جهد يرمي للتوصل الى معرفة جديدة. والانسان الاختصاصي نفسه يستخدم في بحثه الكثير من المفاهيم والآراء والمقارنات التي يتضمنها العلم الشعبي.

لقد كان العلماء الانكليز اليساريون، الذين دأبوا على نشر العلم الشعبي، باحثين ومعلمين في آن واحد. وقد نبههم نشاطهم ذاك في نشر العلم الشعبي الى بعض الثغرات في بحثهم العلمي، وقادهم الى اثارة قضايا لم يجر البحث فيها بصورة منظمة الا بعد ذلك بوقت طويل. ففي سعيهم لأيضاح النتائج الاجتماعية لاستخدام العلم واجهوا الكثير من القضايا المتعلقة بتأثير المجتمع على البحث العلمي وتطوره، فأشاروا الى الصفة الجماعية التي اصبح البحث العلمي يتصف بها، والى ضرورة تخطيط العلم في اطار المجتمع بأكمله، كما فكروا بكيفية التغلب على التناقض الذي ينشأ بين نظريتين في مجرى تاريخ العلم.

يساهم العلم الشعبي في بلورة الرأي العام والنظرة العلمية للعالم لدى الجماهير، وبهذا ينعكس فعله على الاختصاصيين ايضا. وهو اذ ينبه الجماهير الواسعة الى النتائج الاجتماعية للتطور العلمي واستخداماته العلمية، فانه يمس بصورة مباشرة او غير مباشرة المسؤولية السياسية والاخلاقية للعالم الباحث نفسه. وهكذا نشأت حركات العلماء الديمقراطيين (مثل اتحاد العلماء العلمي وغيره من المنظمات غير الحكومية) التي تلعب في زماننا هذا دورا مهما في صيانة السلم والحياة على كوكبنا.

مهام العلم الشعبي

١- تقع على عاتق العلم الشعبي مهمة تفسير المكتشفات العلمية الاساسية والجديدة في العلوم الطبيعية والتكنيكية والاجتماعية، وشرح تأثيرها الاجتماعي، ومعالجة المشاكل المتعلقة بالتقدم العلمي- التكنيكي في بلدان العالم حسب نظمها الاجتماعية المختلفة، وبث الروح العلمية الموضوعية، والنظرة العلمية الشاملة للعالم، ومكافحة الخرافات والطلسميات، واحترام الافكار الانسانية النبيلة، وكسب الشباب للعلم، واثارة حب الاطلاع العلمي لديهم بروح انسانية تقدمية، وشرح صورة العالم العلمية، وعرض تطور العلوم الطبيعية والتكنيك والمجتمع تاريخيا، وشرح قوانين ذلك التطور، وارتباطه بالتطور الاجتماعي.

العلم الشعبي يحمل في نفس الوقت راية الكفاح ضد جميع تشويهات العلم، واساءة تفسير الاكتشافات والنظريات العلمية لأغراض ظلامية معادية للعلم والتقدم. كما يجاهد العلم الشعبي ضد استخدام الانجازات العلمية والتكنيكية لاغراض تدميرية معادية للانسانية.

الكثير من الناس يعتبرون السيارة والطائرة والتلفزيون من الامور الاعتيادية، وهم يستخدمونها دون ان يعلموا شيئا عن الاسس العلمية التي سهلت صنعها.

لقد ارتفع محصول الهكتار الواحد من الحبوب في بعض الاقطار المتقدمة في الخمسين سنة الاخيرة من طن ونصف الى ثمانية اطنان. وارتفع استهلاك اللحم في بعض الاقطار الاوربية خلال قرن ونصف

من ٢٠ الى ٩٠ كيلوغرام للفرد الواحد في السنة. وانخفضت وفيات الاطفال الرضع الى معدل واطئ جدا يقارب الصفر، كما ارتفع معدل العمر المتوقع للناس الى ٧٠ عاما. ولم يكن كل ذلك من فعل الصدفة طبعا، انما بالعلم. وبالعلم ايضا اصبحت الملاحة الجوية بين القارات ممكنة.

الجماهير لا تلمس في الواقع الا هذه الاشياء، اي الانجازات التكنولوجية، ولا تلمس العلم الذي تعتمد عليه. لهذا اصبح على العلماء ان يوضحوا الاختلاف الاساسي بين هذين الشيئين: العلم والتكنولوجيا، وان يبينوا ان هناك حاجزا اجتماعيا- اقتصاديا بين نتائج البحث العلمي وتطبيقاته التكنيكية. فالجماهير لا تعرف بدقة ما هي الكروموسومات او الانزيمات او الحيويات المضادة (انتي بيوتيكا)، ولا الاسس العلمية للراديو والكمبيوتر... فعلى العلماء ان يوضحوا ذلك بشكل مبسط "شعبي"، كما عليهم ان يبينوا ان وراء ذلك تكمن معرفة نظرية واسعة امكن بواسطتها تحقيق نتائج التقدم التكنيكي والسيطرة عليه.

ان ٩٠ بالمئة من نتائج البحث العلمي يمكن استخدامها لاغراض مختلفة متناقضة، مفيدة وضارة، سلميا وعسكريا. فما ذكرنا آنفا من الانجازات المفيدة التي حققها العلم تقابلها انجازات ضارة كمنتجات التسلح النوعي.

٢- يجب على العلم الشعبي ان يشرح كيف يجري البحث العلمي، وكيف يعمل العلماء. من المعروف ان الروايات والافلام السينمائية قد تعالج اية قضية، ويأتي الكلام فيها عن كل المهن تقريبا، عن المحامي والمجرم والمحقق والجندي والملاكم ولاعب كرة القدم والمعلم والعامل والفلاح، اما العلماء فلا يأتي ذكرهم في تلك الروايات والفلام الا نادرا جدا، وإن اتى فبشكل يشوه العلم كما يشوه حياتهم.

يتحمل العلماء انواع العناء: اولها عناء البحث والوقوع في الخطأ، وفحص الافكار فحصا صارما. فيعمد البعض منهم الى التجربة لفحص صحة نظريته او خطأها، وقد يلجأ الى فرضيات جديدة قد تكون اكثر تواؤما مع التجارب والارصاد، حتى يتوصل في الاخير الى ارض الحقيقة التي يستطيع الوقوف عليها.

يتمسك المشتغل بالعلم تمسكا قويا بحرية النقد، فالتحري عن حقائق جديدة يتضمن عدم الاطمئنان الى النتائج العلمية التي تم التوصل اليها، اي اتخاذ موقف نقدي منها. ويتجلى هذا الوضع حينما يأتي البحث بنتائج تتعارض مع المبادئ المسلم بها في حينه. عند ذاك يجب التخلي عن الافكار القديمة والمجئ بمبادئ جديدة تتفق مع الواقع الجديد، وتستطيع في نفس الوقت تفسير الواقع القديم المعروف في السابق. كل هذا يعني ان ليس هناك في العلم عقائد جامدة (دوغما) يعتقد بانها تتمتع بصحة مطلقة ابدية.

وبسبب الجرأة في ابداء الانتقادات ضد الاوضاع الرديئة السائدة في بلدانهم، يوجد في كل العالم كثير من العلماء في السجن، او هم رهن التوقيف او يعيشون في المنفى او محرومون من العمل!

والمشتغل بالعلم يطمح الى حريات خاصة الى جانب حقوق الانسان العامة. فهو يريد ان يكون حرا في المساهمة في احد المشاريع العلمية- التكنيكية او رفض المساهمة فيه، وان تضمن له الحرية في نشر نتائج بحثه، اذ يعاني هذا تضييقا شديدا.

٤- يعتقد الكثيرون ان العلم سيحل جميع المشاكل الاختصاصية: كالطعام الكافي، والطاقة اللازمة، واشفاء مرضى السرطان، والقضاء على الملاريا والبلهارزيا عالميا، وتقرير جنس الطفل في رحم امه منذ البداية،... غير ان الامر ليس بهذه السهولة. فالعلم وحده لا يستطيع ان يجد حلا لكل هذه القضايا. لذلك وجب على العلم الشعبي ان يضع العلم في مكانه الصحيح، ويبين موقعه في المجتمع، وقدرته في اطار الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية. يتضح ذلك جيدا في مكافحة الاوبئة.

استطاع العلم انجاز الكثير في مجال التنبؤ بالمستقبل. ومن النافل ان نقول ان التنبوءات العلمية تختلف في طبيعتها واهميتها اختلافا جذريا عن التنبؤات غير المستندة على العلم كالتنجيم واخذ الفال. فمن امثلة التنبؤ العلمي الدقيق، التنبؤ بالخسوف والكسوف، او بحالة الطقس في الغد، او بتطور السكان في قطر من الاقطار في السنوات العشر القادمة.

يستطيع العلم ايضا دراسة المشاكل العالمية، اي القضايا التي تمس البشرية جمعاء، لا قطرا واحدا او منطقة واحدة: كالبيئة والبحار والغلاف الجوي للارض. فمعالجة هذه القضايا تستلزم النظر الى الارض كوحدة واحدة بأجمعها. هنا تشترك علوم الرياضيات والفيزياء والبيئة وغيرها.

٥- العلم جزء من ثقافتنا كالأدب والفن. هذه الصفة الثقافية للعلم لم تنشأ بسبب اهمية العلم والتكنيك في حياتنا اليومية الراهنة.

من المعروف ان العلم ليس الثقافة، ولا الثقافة العلم. ولكن العلم جزء من الثقافة. فهو يساهم في تعميق تمتعنا بالحياة وتذوقها وسعادتنا فيها. اما الجهل، مقاسا بالنسبة لمرحلة تطور معينة، فيرتبط بالسطحية والملل، وقد يؤدي الى التحلل والجريمة.

والآن، في نهاية القرن العشرين الذي اصبح قرنا تكنيكيا بدرجة عالية، قد ينسي المرء واجب العلم التنويري، اي تفسير ظواهر الطبيعة والمجتمع تفسيرا عقلانيا. وهذا التنوير هو عنصر ثقافي اساسي. افليست معرفة سبب سقوط التفاحة مثلا من شجرتها على الارض (سؤال نيوتن) بدل ان تطير في الجو، او لماذا تدور الارض حول الشمس وليس العكس، افليس كل ذلك من المسائل الثقافية؟

من معالم التقدم الاساسي في موقف الانسان الفكري الاعتراف بتعقد الواقع. واكبر خدمة ثقافية يستطيع العلم ان يقوم بها هي ان يبين للناس تعقد العالم. فهذه القضية لا تنحصر في كونها قضية فلسفية اساسية (الواقع لا ينفد ولا يفنى، ولا يوجد شئ كامل الى الابد) بل تتعدى ذلك حتى تصبح جزءا اساسيا من نظرتنا الصحيحة للعالم. فمن الخطأ والسذاجة ان يعتقد المرء ان بالامكان ايجاد حل بسيط لقضايا معقدة مثل البطالة ونزع السلاح ومرض السرطان، او يعتقد ان هناك عاملا واحدا هو المسؤول عن ظواهر معقدة كالحروب وسباق التسلح وانتشار الاوبئة.

هذا التعقد لا ينحصر في الطبيعة الفيزياوية وحدها، انما يوجد ايضا في البنى الاجتماعية. فالمجتمع لا يمكن النظر اليه بشكل بسيط. والبحث العلمي بهذا الصدد يزداد تعقده. انها عملية التغير، عملية تكوين البنى. وتتمتع هذه العملية بفاعلية ثقافية غير قليلة.

من اهم معالم الثقافة العلمية صفتها العالمية، اي انها مفتوحة لكل البشر. ومن المؤسف ان العلم لا يتبناه كل انسان، ولم يصبح ملكا لكل البشرية. والتقدم العلمي- التكنيكي يتصف بتنافس لا يرحم، ولا يقرره حب العلم بالضرورة. فالمصالح الاقتصادية والسياسية تزيد من حدة التنافس بين المؤسسات والاشخاص والمختبرات، بحيث يزداد الضغط على المشتغلين بالعلم، وبهذا يفقد العمل العلمي الكثير من المزايا التي كان يتصف بها في السابق كالنقاء والتجرد من المصالح الشخصية.

سيتجاوز العلم في المستقبل تلك الحدود، ويرفض التعاون على الصعيد العالمي. وسيساهم التفاهم العالم بين العلماء في تطوير ثقافة علمية هي الآن في طور النشوء، وستؤدي الى توافق وانسجام اقوى بين الناس والشعوب.

المشاكل الكبرى اليوم ليست كما كانت في القرن التاسع عشر، اي السيطرة على الطبيعة. وهذا لا يعني ان العلم قد اكتشف لكل سؤال جوابا، فذلك غير ممكن، لأن الاسئلة تزداد بزيادة علمنا. ولكننا نعرف اليوم كيف نحل المشاكل التي تعترضنا، اذ نعرف الطرق والوسائل اللازمة لحلها. على هذا الاساس نستطيع ان نثق بالعلم.

من المشاكل الكبرى.النظرية والعلمية في عصرنا هي السيطرة على العلم وتكنولوجياته، اي توجيه العلم في المسالك الصحيحة، نحو اشباع حاجات المجتمع السلمية، لا الى الحرب والموت الجماعي.

لكن كيف يمكننا السيطرة على قوى الانتاج الجديدة -العلم وتكنولوجياته- حيث تكمن قوى ذات كفاءة عالية جدا، الا انها فوضوية متجددة باستمرار؟

كيف يمكن للعلم ان يكون جزءا اساسيا في تفكير الناس الى جانب اشكال المعرفة الاخرى المخزونة في رؤوسهم؟. كيف نستطيع التوصل الى صورة موحدة للعالم؟

اننا سوف لا نستطيع ان نفتح طريقا لنظرة انسانية جديدة دون الاستناد الى القوى الشعبية وتشجيعها على اكتساب. العلم لتعبر عن وجهة نظرها المستندة على العلم، ولا يجوز للقلة ان تتخذ قرارا حول القضايا المهمة دون مشاركة الشعب. ولكن الناس لا تستطيع اتخاذ قرار صحيح حول تلك القضايا ان لم تعرف.تلك القضايا بالتفصيل. لهذا يجب ان نقرب العلم للجماهير، بحيث تفهم افكاره واساليبه واتجاهاته وامكانياته.

اننا لا نستطيع ان نمارس السياسة لصالح الجماهير، دون نشر العلم بين الجماهير! و "النظرية تصبح قوة مادية حالما تتبناها الجماهير".

لمن يتوجه العلم الشعبي؟

يتوجه العلم الشعبي الى جميع الناس على اختلاف اعمارهم ومهنهم. ويتحمل العلماء واجب بث العلم بين الجماهير، وايقاض حبهم له. وذلك امر في غاية الاهمية، لان التقدم العلمي والتكنيكي لا يتحقق الا بتعليم الجماهير.

ان انقسام العلوم الى حقول اختصاصية، واندماج بعضها بالبعض، وزيادة "تريضها" (استخدام الرياضيات فيها)، تزيد من تعقد العلم. فان لم يعرض العلم عرضا شعبيا مبسطا فسيبقى منحصرا في اوساط ضيقة بحيث لا يفهمه الا المختصون. والعلم الشعبي يوسع دائرة المهتمين بالعلم، الناس البسطاء والذين لهم بعض الالمام به، بل وحتى العلماء الذين يودون الاطلاع على المجازات العلم خارج اختصاصاتهم. وباختصار انه يشمل دائرة واسعة متباينة من المهتمين به.

يعتمد اختيار المعارف العلمية وتفسيرها على الموقف الايديولوجي لمن يقوم بنقل العلم للجماهير، وهذا مشروط بأهداف ومصالح محددة سلفا. لهذا اصبح للعلم الشعبي نوعان: تقدمي ورجعي. فالعلم الشعبي التقدمي ينظر للعلم نظرة موضوعية ترتبط بمصالح الجماهير، ويستهدف نشره بينها، لاسيما النظرة العلمية للعالم، ومساندة جماهير الشعب من اجل التقدم الاجتماعي. اما "العلم الشعبي" الرجعي. فيتخذ في الغالب طابعا معاديا للعلم، لاسيما في ظل الامبريالية، اذ ينشر "علما" زائفا، خاصة في مجال العلوم الاجتماعية، ولا يكون هدفه الاساسي تنوير الناس واغناء حياتهم، انما يتوجه ضد التقدم وروح العلم الانسانية. لقد اصبحت ادبيات "العلم الشعبي" في الدول الامبريالية ميدانا واسعا للربح تحتله احتكارات كبيرة. وفي سعي تلك الاحتكارات لكسب الارباح العالية، وطبع نسخ اكثر من تلك الادبيات، ونشر الاعلانات المتبجحة بأسلوب متهافت، وبالسعي المتسرع للسبق الصحفي، والمبالغة في اهمية بعض الاختراعات، والتبسيط المبتذل للعلم، اصبح ذلك "العلم" في الغالب سطحيا فاقدا للصفة العلمية.

للعلم الشعبي طابع طبقي لا يبرز في اي مكان في العلم مثلما يبرز فيه.الكفاح في سبيل الحقيقة والعلم، ضد تشويه الحقيقة الذي تقوم به القوى الرجعية المعادية للعلم، يفترض التحزب للعلم. هنا يقترن العلم بالتحزب اقترانا قويا ضروريا يتجسد بوضوح في العلم الشعبي.

التحزب في العلم الشعبي يعني فهم المعارف العلمية ونقلها الى الجماهير بلغة مفهومة وشكل مبسط ممتع، يثير اهتمام المستمع او القارئ، ويفتح عيونه لفهم الواقع. لهذا فالتحزب هنا لا يعني نقل النصوص العلمية، او ترديد الشعارات السياسية بعبارات طنانة فارغة، فذلك لا يقنع احدا، بل يجلب الملل للسامعين، وقد ينفرهم ويبعدهم عن العلم والسياسة، ويضعهم تحت رحمة دعاة الفكر الرجعي.

اسلوب العلم الشعبي

عند نقل المعارف العلمية نقلا شعبيا يجب على العالم ان لا يبقى حبيسا في العلم الاختصاصي،

كما يجب ان لا ينزلق الى الابتذال والتسطيح البعيد عن العلم. فالمادة العلمية لا تصبح شعبية بعرضها عرضا مسطحا مبتذلا، والبسيط المفهوم لا يعني السطحي المبتذل، انما على العكس، لا يمكن جعل العلم شعبيا الا عندما توضح مشاكله المعقدة بصورة بسيطة مفهومة. كما يجب ان لا يقتصر العلم الشعبي على عرض الانجازات العلمية الكبيرة، اذ ان العلم لا يتألف من انجازات كبيرة فقط.

على العلم الشعبي أ ن يقود القارئ او السامع او المشاهد الى الافكار العميقة الجادة، وان ينقله الى مسائل جديدة دائما. فمتقبل العلم يستطيع التفكير معنا، ويرغب بالاستفادة منا. لهذا علينا ان نقدم له العلم بلغة بسيطة واضحة، دون استعمال المصطلحات الثقيلة والكلمات الغريبة بغير ضرورة.

اما اذا تجاوز الكاتب او المحاضر حدود العلم، اي اذا غادر ميدان العلم، وانتقل الى التخيلات الخالية من الاساس، فانه يغادر في نفس الوقت ميدان العلم الشعبي. ولهذا فما يسمى بـ "الروايات العلمية الخيالية" ليست من العلم الشعبي، انما هي في احسن الاحوال جزء من الآداب والفنون.

بينما يحتل الجزء العقلي من عملية المعرفة المجال الأوسع عند عرض العلم الاختصاصي، ويعزل الجانب العاطفي هناك، يكتسب الجانب العاطفي في العلم الشعبي اهمية كبيرة. فمن اجل اثارة اهتمام المستمع او المشاهد، وتيسير فهم العلم له، من الضروري التوجه الى عواطفه واحساساته.

قضايا نظر معرفية في العلم الشعبي

من اهم اهداف العلم الشعبي اثارة اهتمام من يتوجه اليه بالعلم، وبث النظرة العلمية للعالم، وتطوير القناعة العلمية من اجل نقل ما يعتقد بصحته وعمليته الى التطبيق العلمي. ولتحقيق هذا الهدف يستهدي العلم الشعبي التقدمي بنظرية المعرفة العلمية.

الاتجاه العام في العرض العلمي الاختصاصي هو استخلاص العام من المحسوس، والجوهر من المظهر، واللاشخصي من الشخصي. اما في العلم الشعبي فيجري عرض المعارف العلمية بربط العام، اللاشخصي، الاجتماعي، بالخبر الحسية والشخصية للمعني بتقبل العلم. لهذا على العلم الشعبي ان لا يقف عند حد المحسوس والشخصي، كما هو الحال في الطريقة المبتذلة في ممارسته، انما عليه ان يبين كيف يرتبط الحسي بالعام، والشخصي بالاجتماعي الكلي، والقوانين التي يعتمد عليها ذلك الارتباط. وبكلمة اخرى: عليه ان يساعد المعني بالعلم لان يرتفع من النظرة المباشرة، الحسية، الشخصية، الى التفكير التجريدي- النظري. وهذا التفكير التجريدي النظري، يجب ان يكون بدوره مرحلة انتقال الى مستوى اعلى من المعرفة، اي العمل. وبدون هذا الانتقال يبقى العلم الشعبي حبيسا في المرحلة التجريدية الاكاديمية التي تعد من السمات المميزة للعلم الشعبي الرجعي.

هناك فكرة خاطئة عن العلم الشعبي، مفادها ان هذا العلم يعنى كليا او بالدرجة الرئيسية بتبسيط المعارف العلمية الموثوقة المتوطدة، وعرضها عرضا شعبيا. اما المسائل غير المنتهية، والتي يجري حولها النقاش، فتستبعد من ميدان العلم الشعبي. غير ان ذلك غير صحيح، فالعلم الشعبي الحقيقي، غير المسطح المبتذل، يجب ان لا يعرض الاكتشاف العلمي كعملية خالية من التناقض والمشاكل. وليست

المعارف العلمية الموثوقة وحدها هي التي تصح ان تكون موضوعا للعلم الشعبي، انما المشاكل غير المحلولة والمتنازع عليها ايضا، حينما تعالج بصورة علمية وبشعور بالمسؤولية العلمية. وذلك ضروري لتوسيع افق الانسان غير الاختصاصي. علينا ان نبين له ان بعض ما يعتبر موثوقا قد يظهر بعد مدة من الزمن غير موثوق به تماما، وقد يثبت خطأه. فالمعارف العلمية تنشأ وتتطور خلال صراع مضن بين الافكار، وتثبت بطريق مليء بالتناقضات والمشاكل، والكفاح ضد التقاليد البالية وضيق الافق.

ان العلم لا يتألف من المعارف الموثوقة وحدها. لهذا يجب ان لا يقتصر على المعارف الموثوقة فقط عند نقل العلم للجماهير، انما يجب ان يلعب الشك الابداعي الخلاق دوره في العلم الشعبي. ويفهم من "الشك الابداعي" درجة من المعرفة يدرك بها عدم كمال ذلك الحقل من العلم، ويفسح بها المجال امام احتمال ان تكون بعض اوجه ذلك الحقل صحيحة او خاطئة. والشك الابداعي، لا الشك الهدام، مهم جدا في نقل العلم الشعبي، وبناء القناعة العلمية، اذ لا يمكن التوصل الى قناعة علمية راسخة ابداعية، لا نصية، الا حينما يفهم مستوى المعرفة المعروض للجمهور، بما في ذلك المعارف الموثوقة، كنظام من الحقائق النسبية القابلة للتطور، وليس كنظام من الحقائق المطلقة الابدية. لهذا كان من وظائف العلم الشعبي اثارة الشك الابداعي كأحد جوانب عملية المعرفة.

الشك الابداعي مرحلة معرفية يعتمد عليها بناء القناعة العلمية- والمرحلة التالية هي الايمان بالعلم، بما في ذلك الفرضيات العلمية التي لم تتأكد بعد، ما دامت تلك الفرضيات تنطلق من معارف علمية او تنسجم معها. اما المعتقدات الاسطورية فهي تمثل وعيا غير علمي، اذ تستند على الاعتقاد بكيانات غير طبيعية، وقد تستخدم لغايات رجعية. اما الفرضيات العلمية فتلعب دورا مهما في التفكير العلمي. فلتطوير معارف علمية جديدة تكون الفرضية، اي التسليم بصحة مقولات لم يمكن التحقق منها حتى الآن، وسيلة ضرورية لاكتساب المعرفة العلمية.

الجوانب الاخلاقية والجمالية في العلم الشعبي

حب العلم، والعمل في سبيل تقدمه ونشره بين الناس، قضية اخلاقية ايضا. لهذا ليس من المستغرب ان يكون للعلم الشعبي جانب اخلاقي واضح.

"الاخلاقي". بالمعنى العام مفهوم يعبر عن اساليب السلوك (في التعامل والتفكير) والصفات والعلاقات التي تربط، على اساس الادارة الحرة، ما بين المصالح والاهتمامات الشخصية والاجتماعية بشكل متناسق منسجم، او تجعلها متعارضة فيما بينها. فالسعي من اجل ربط المصالح والاهتمامات الشخصية والاجتماعية ربطا متناسقا هو التعبير الاخلاقي المباشر عن ارتفاع المعرفة من الملموس والشخصي عبر العام والاجتماعي الى العمل. لهذا يربط العلم الشعبي المعارف العلمية بمشاعر متلقي العلم الاخلاقية وافكارهم، فيساعدهم على تطوير اخلاقهم. والمجال هنا فسيح، فهو يشمل المزايا الاخلاقية للعالم: كالصدق، والاخلاص في العمل، والاصالة والابداع، والاعتراف بأولوية المصالح الاجتماعية في العمل العلمي، ومعرفة اهداف الجماهير الشعبية، وتأييد حركات التحرر والديمقراطية

والسلم. هذه المزايا الاخلاقية يجب ان تترافق مع الابتعاد عن السطحية وضيق الافق والتعصب والفردية الانانية والتحذلق والوصولية وطمس الحقيقة، واي شكل من اشكال معاداة العلم.

يعرف التاريخ العديد من الامثلة عن علماء ذوي اخلاق سامية كانوا مستعدين للكفاح من اجل الحقيقة في العلم رغم الاضطهاد (غاليلو، برونو). ونحن اليوم نبجل تبجيلا عاليا العلماء الوطنيين والتقدميين الذين يكافحون بجرأة في البلدان التي تسيطر عليها الرجعية، من اجل بث النظرة العلمية للعالم. ومن واجب العلم الشعبي ان يكشف المزايا الاخلاقية الراقية للعلماء الذين يقودون الكفاح بنكران ذات من اجل التقدم العلمي والاقتصادي لشعوبهم المناضلة ضد الدكتاتورية. فبواسطة هذه القدوات الحسنة يستطيع العلم الشعبي ان يساهم في تربية الشخصية الوطنية والتقدمية.

لا يقتصر الامر في العلم الشعبي على الحقيقي والجيد، انما يحوز الجميل ايضا على اهمية كبيرة. ففي العلم الشعبي يمكن ان تستخدم التجارب الشخصية، والمراسلات، والتقارير الصحفية، والنكات، والكتابات الساخرة، والحوار، واللغز، والشعر، والقصة، والاساطير، لشرح بعض الافكار والمواقف. ويتصل بهذا جمال اللغة، اذ يعتمد مدى نجاح العلم الشعبي في افهام المستمعين والقراء واقناعهم واثارة اعجابهم على اللغة الفصيحة والواضحة وجمالها واسلوبها.

ولكن جمال العلم الشعبي لا ينحصر في شكله ولغته، انما يشمل محتواه ايضا. فالجمال الذي يتمتع به تسلسل الافكار في الرياضيات مثلا معروف بصورة جيدة. وفي العلم الشعبي يزيد جمال تسلسل الافكار من فاعليتها بين الناس. هنا يجب ربط الفن والجمال بالعلم- وهذا ما جسده مفكرون بارزون في شخصياتهم: كدافنتشي وديرر وغوته.. هنا يندغم العلم بالفن، ويتحد الحقيقي بالجيد والجميل، فيكتسب العلم الشعبي جمالا في الشكل والمحتوى.

تلخيصا لكل ذلك: يمثل العلم الشعبي:

- تأليفا متنناغما بين الحقيقي والجيد والجميل في العلم.
- انتقالا من عالم المعرفة العلمية المكثفة الى عالم المعرفة العلمية المبسطة للجماهير.
- استخداما لافكار العلماء المختصين في حركة الجماهير الشعبية.
- معيارا لارتباط العلم بالشعب.

مناقشات

اليمن:
من الوحدة الى الحرب

نضال الليثي

بعد اربع سنوات من الوحدة بين شمال اليمن وجنوبه، تفجرت الحرب بينهما معلنة انهيار الدولة الموحدة التي قامت على اساس الاتفاق بين الحزب الاشتراكي اليمني وحزب المؤتمر الشعبي العام، وتوضح الآن ان اعلان الوحدة وقيام الدولة اليمنية الواحدة لم يكون تلبية لـ "مطمح جماهيري" كما اعلن وقتها، بل للخلاص من الازمة التي كانت تمسك بخناق السلطتين الشمالية والجنوبية وتهددهما تهديدا جديا.

فقيادة الجنوب الماركسية شعرت بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وما سمي بدول المنظومة الاشتراكية وتوقف المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي كانت تقدمها لها، حيث شكلت ٧٠٪من موارد ميزانية البلاد، قد نزع عنها الغطاء والمشروعية لحكمها اليساري واصبح ظهرها مكشوفا تماما، فيما كانت هناك استحقاقات داخلية واقليمية حان وقت دفعها. وباختصار فان قيادة الجنوب شعرت ان سلطتها مهددة حقا. وان المشروعية الثورية للدولة بدأت بالتآكل والانهيار. وتضافر مع هذه العوامل، سوء الاداء الاقتصادي وضعف الادارة الاقتصادية وانعدام موارد جديدة للدولة تستطيع الاعتماد عليها في تمويل انفاقها اضافة الى البيروقراطية والتخلف الموروث. وزادت الامر سوءا احداث كانون الثاني "يناير" ١٩٨٦ والصراع المسلح في داخل الحزب الاشتراكي اليمني الذي حسم بهزيمة الرئيس السابق علي ناصر محمد، ادى الى انشطار الحزب ومجتمع الجنوب الى شطرين. وحاولت قيادة الجنوب رأب

الصدع الداخلي والانفتاح على قوى سياسية وقبلية واصلاح البيت، الا ان الوقت فات للقيام بمبادرات جديدة بعد حسم الصراع عسكريا.

وضاقت النخبة المثقفة الشمالية ذرعا بالتحالف العسكري القبلي الحاكم ممثلا بمؤسسة الرئاسة، فبدأت تعبر عن تذمرها من عدم قدرة النظام على بلورة حكم مركزي يحد من مكانة المشايخ القبليين وحواشيهم في الدولة. وفاقم قلقها تصاعد "الاسلام السياسي" بقوة على الخارطة السياسية الشمالية، حيث تحت واجهات حزبية قبلية، اضافة الى الانقسامات الطائفية والمذهبية. ولم يكن اقتصاد الشمال في وضع يمكنه من تأمين مستوى معاشي مقبول في الحدود الدنيا للمواطنين، وتزايدت المعاناة من سوء الادارة واهدار ونهب الموارد الشحيحة اصلا وتعاظم الانفاق العسكري، الا ان افضليته على الاقتصاد الجنوبي اعتماده المبادرة وتشجيع المشاريع الفردية والاستثمار الخاص ودعم الدولة لهذا التوجه في حدود امكانياتها، وحتى هذه الميزة بدت عاجزة عن تعويض نتائج ازمة الاقتصاد ان لم تكن احد مسبباتها.

وجد الحكمان الشمالي والجنوبي ضالتهما في الوحدة واعتبارها قارب الانقاذ للسلطتين، الجنوبية "الماركسية" والشمالية "التحالف القبلي العسكري". فقيادة الاشتراكي ارادت بالوحدة وسيلة لاستبدال مشروعيتها الثورية السابقة بمشروعية وطنية جديدة كانت في امس الحاجة اليها، اما قيادة الشمال فوجدت في الوحدة ضالتها لتقرير مكانتها داخليا واكتساب المشروعية وسط النخبة المؤثرة وكذلك اقليميا ودوليا. الميزة التي تحققت للشعب اليمني هي التأكيد على ربط الوحدة بالديمقراطية وبناء الدولة الحديثة كما نصت عليه الاتفاقات الوحدوية: لكن ذلك لم يكن ممكنا بسبب الدمج الكمي للدولتين المأزومتين في وحدة اندماجية، لم تستوف شروط مكوناتها بعد، وكانت قيادة الحزب الاشتراكي اليمني، وقيادة المؤتمر الشعبي العام في وضع لا يسمح لهما، لأسباب عديدة، بينها ما هو خاص بكل منهما، بالالتفات الى قضية الديمقراطية والتحديث باعتبارها قضية وطنية اساسية، على ان الحزب الاشتراكي اليمني كان، رغم ثقل تراث ومفاهيم الحزب الواحد، اكثر تفهما لمتطلبات الحداثة والمجتمع المدني على الاقل نظريا، بينما الثاني المتحالف مع حزب تجمع الاصلاح تحالفا قبليا وعسكريا، اور د هذين المفهومين لاعتبارات متعلقة بالمراهنات السياسية لاستمالة فئات اجتماعية والظهور بمظهر الحزب الحديث.

عند اعلان الوحدة كانت اللوحة السياسية على النحو التالي: في الشمال يوجد حزب المؤتمر الشعبي العام الذي يرأسه الرئيس علي عبدالله صالح وهو الحزب الحاكم ويقيم تحالفا للقيادات العسكرية والقبلية من قبيلة حاشد ذات النفوذ التي ينتمي اليها الرئيس وبعض مشايخ القبائل الاخرى والنخب المثقفة التي كانت اقرب الى قيادات بيروقراطية، وبعض القيادات الاسلامية المعتدلة، وهناك حزب تجمع الاصلاح برئاسة الشيخ عبدالله بن حسين الاحمر شيخ مشايخ حاشد. وهذا الحزب لا يختلف عن حزب المؤتمر الا بكون الاستقطاب القبلي في داخله اشد لصالح قبيلة حاشد، ويضم تيارا اصوليا متشددا وقويا برئاسة الشيخ الزنداني الذي قاتل في افغانستان، والحزبان الشماليان في توافق ويعيشان حالة تبادل

الادوار اكثر من حزب حاكم وحزب معارض. وهناك احزاب معارضة سرية كالجبهة الوطنية التي قادها التنظيم الشمالي للحزب الاشتراكي اليمني، وتضم بعض الأحزاب الصغيرة وهي ذات نفوذ محدود بعد الضربات التي وجهت لها، اضافة الى الحزب الناصري الوحدوي وحزب الحق. اما عن الجنوب الذي حكمه الحزب الاشتراكي اليمني، فلم يشهد حركات سياسية معارضة مؤثرة، عدا القيادات السياسية والقبلية التي غادرت الجنوب منذ عام ١٩٦٧ بعد تبني الجبهة القومية للماركسية واحتفظت ببعض نفوذها السياسي والقبلي السابق.

اعلنت الوحدة وتشكلت الوزارة الوحدوية من الوزراء الشماليين والجنوبيين، فيما ادمج برلمان الجنوب وبرلمان الشمال غير المنتخبين بشكل حر في برلمان الوحدة الجديد، واعتبر ذلك تسوية مقبولة لحين اجراء الانتخابات التشريعية رغم اعتراض المعارضة على اقتسام السلطة. الجنوبيون كانوا راضين عن حصتهم في مؤسسات الدولة الجديدة، حيث كان لهم ممثلان في مجلس الرئاسة، وبددت بعض مخاوفهم من قيام الشمال الاكثر عددا بضمهم او الحاقهم به.

المشكلة الاولى التي واجهت اليمن بعد الوحدة هي حرب الخليج الثانيه واحتلال الكويت من قبل الجيش العراقي واتخاذ علي عبدالله صالح موقفا مؤيدا لصدام حسين، مما اثار حفيظة دول مجلس التعاون الخليجي وقيامهم بطرد اكثر من مليون يمني يعملون فيها، وتشكل تحويلاتهم احد المصادر الرئيسية للعملة الصعبة الضرورية للبلاد، ولم يرض الحزب الاشتراكي عن موقف الرئيس لكن الخلافات لم تظهر حينها الى العلن، وتلقى الاقتصاد اليمني ضربة موجعة.

توضحت ابعاد الخارطة السياسية اليمنية وقواها الفاعلة ومحاور الصراع بعد اجراء اول انتخابات نيابية، فقد فاز ممثلو الحزب الاشتراكي اليمني عن المحافظات الجنوبية والشرقية وهي معاقلهم السابقة، بينما فاز ممثلو المؤتمر الشعبي العام وحزب الاصلاح عن المحافظات الشمالية والغربية، وبقيت الاحزاب الصغيرة الاخرى خارج البرلمان. تحالف المؤتمر الشعبي العام وحزب تجمع الاصلاح شكلا اغلبية برلمانية مؤثرة وحاسمة، بينما كان الحزب الاشتراكي يمثل الاقلية البرلمانية. تعامل علي عبدالله صالح مع نتائج الانتخابات البرلمانية بحذر واضح، ولم يخضع للضغوطات العسكرية والقبلية لعزل الاشتراكي كليا عن السلطة والوزارة، فكان يريده شريكا ثالثا مع حزب تجمع الاصلاح وليس شريكا رئيسيا كما كان قبل الانتخابات، واراد سد الطريق عليه باشراكه في السلطة لمنعه من استقطاب المعارضة التي بقت خارج البرلمان، ويحقق صالح وحزبه ميزة اخرى باشراك الاشتراكي في الوزارة ليبعد عن نفسه وعن حزبه تحمل مسؤولية تدهور الاوضاع الاقتصادية. لكن نتائج الانتخابات اعطت الاشتراكي اوراقا سياسية جديدة، فقد اظهرته الانتخابات ممثلا دون منازع للجنوب لكن علي عبدالله صالح الذي لم يرد التخلص من الاشتراكي فورا، قرر اضعاف نفوذه، فقلص عدد الوزراء الذين يمثلونه في الوزارة، واضيف الزنداني كعضو في هيئة الرئاسة كممثل لحزب تجمع الاصلاح، ولم يقبل الرئيس انتخابه مع نائبه البيض على لوحة انتخابية واحدة، واراد من البرلمان ان ينتخب الرئيس الذي يعين بدوره نائبا له، وهذا لم يرض لا الاشتراكي ولا البيض، واعتبروه تعزيزا لنفوذ الرئيس في مؤسسة الرئاسة وتقليصا لصلاحيات نائبه.

ومحور الصراع الثاني في البرلمان كان حول اعتبار الشريعة الاسلامية المصدر الوحيد للتشريع، وطرح الاشتراكي صيغة بديلة تنص على اعتبار الشريعة الاسلامية مصدر التشريع الرئيسي، لكن هذا لم يرض الاصلاح والمؤتمر الشعبي.

ولم تتخذ الاجراءات لتحسين الاوضاع الاقتصادية في الجنوب، فلم ينفذ مشروع المنطقة الحرة في عدن، وبقت بعيدة عن ان تكون العاصمة الاقتصادية للبلاد او العاصمة السياسية الثانية بعد صنعاء، وتدهورت الخدمات الاجتماعية وارتفعت اسعار السلع والمواد الاستهلاكية بعد تقليص الدعم الحكومي لها، وهو امر لم يكن معتادا في الجنوب، فقد كانت تباع هذه السلع باسعار رخيصة ومدعومة، وظهر في الجنوب مزاج معاد للوحدة عبرت عنه المظاهرات التي استقبل بها الرئيس في احدى زياراته الى عدن، وخرجت مظاهرات تطالب بتحسين الاوضاع الاقتصادية في تعز وبعض المحافظات الشمالية، واستخدم الجيش والامن المركزي في قمعها، واعتبرها علي عبدالله صالح موجهة ضده، واعتقد ان الحزب الاشتراكي وراء المظاهرات والاحتجاجات. وما لم يستطع الطرفان الاتفاق عليه هو دمج الجيش والقوات المسلحة الاخرى في مؤسسة عسكرية واحدة، فالجيش الشمالي بقى شماليا من حيث قياداته والجهات التي يأتمر بأوامرها، والجيش الجنوبي يبقى تابعا للحزب الاشتراكي اليمني، فيما كان الرئيس علي عبدالله صالح يرفض سحب الوحدات العسكرية من المدن تخوفا مما قد يثيره الاشتراكي من تظاهرات ضده حسب تصوره.

بعد هذه الاحدث حاول الطرفان تجميع ما بوسعهما من اوراق سياسية استعدادا للمعركة القادمة، فعلي عبدالله صالح وجد ضالته في القياءميين السابقتين من انصار علي ناصر محمد، بينما عمل الاشتراكي على اعادة قسم منهم الى صفوفه، وسعى الرئيس الى كسب قبائل شبوة وأبين والمؤيدة لعلي ناصر والتي استبعدت من السلطة والادارات بعد احداث كانون الثاني يناير ١٩٨٦، واكد تحالفه مع حزب تجمع الاصلاح. وكانت هذه الاوراق محدودة قياسا الى الاوراق السياسية التي اخذ الاشتراكي بتجميعها، فقد عزز من تحالفاته مع احزاب المعارضة الشمالية التي لم يتسن لها الدخول الى البرلمان، وتغير خطابه السياسي مما جعله اكثر حربا من النخبة المثقفة اليمنية واغلب الشخصيات السياسية الشمالية المستقلة وحظي بتعاطفها، واستثمر الخلافات القبلية وراهن على قبيلة بكيل الشمالية الاكثر عددا من قبائل الشمال والاقل حظا في التمثيل على صعيد السلطة ومراكز القرار وقيادات الجيش، وتشكو الظلم والحيف الذي تعانيه، وفتح قنوات الحوار مع الشخصيات الجنوبية التي غادرت الجنوب منذ عام ١٩٦٧ واعترضت على التوجه الماركسي للبلاد مثل عبدالله الجفري وعبدالقوي مكاوي والاصنج وهي قوى سياسية وقبلية مؤثرة داخليا واقليميا. وابقى الحوار مفتوحا حول سبل حل الازمة في اطار لجنة الحوار الوطني التي ضمت كافة القوى والاحزاب السياسية اليمنية ومثلت فيها فاعليات وشخصيات سياسية مستقلة وصاغت وثيقة العهد والاتفاق ووقعها علي صالح والبيض في عمان قبل اقل من شهر من الحرب.

اختار علي عبدالله صالح شن الحرب واخضاع الاشتراكي وحلفائه الذين يؤيدونه متجاوزا وثيقة العهد والاتفاق، حيث كانت تشكل اجماعا وطنيا شاملا، وتجاوز الوساطات العربية التي كانت تقوم بها الامارات العربية المتحدة ومصر والاردن لاعتقاده: ١-ان ميزان القوى العسكري والبشري كان الى جانبه . ٢-ان وثيقة العهد والاتفاق التي وقعها في عمان اضطرارا كانت اقرب الى آراء ووجهات نظر الاشتراكي اليمني وحلفائه منها الى آراء المؤتمر الشعبي العام وحزب تجمع الاصلاح. ٣-كانت هناك شكوى لدى الرئيس علي عبدالله صالح بوجود موقف متحيز لدى الدول الاقليمية وخاصة مصر ودول مجلس التعاون الخليجي نتيجة لمواقفه اثناء حرب الخليج الثانية وتأييدها لانفصال الجنوب. ٤-المراهنة على موقف فرنسي معارض لتدويل الازمة اليمنية وعرضها على مجلس الامن . ٥-الاستناد الى ما يسميه الشرعية الدستورية واطلاقه صفة الانفصاليين على القادة الجنوبيين خاصة بعد اعلان قيام جمهورية اليمن الديمقراطية مجددا.

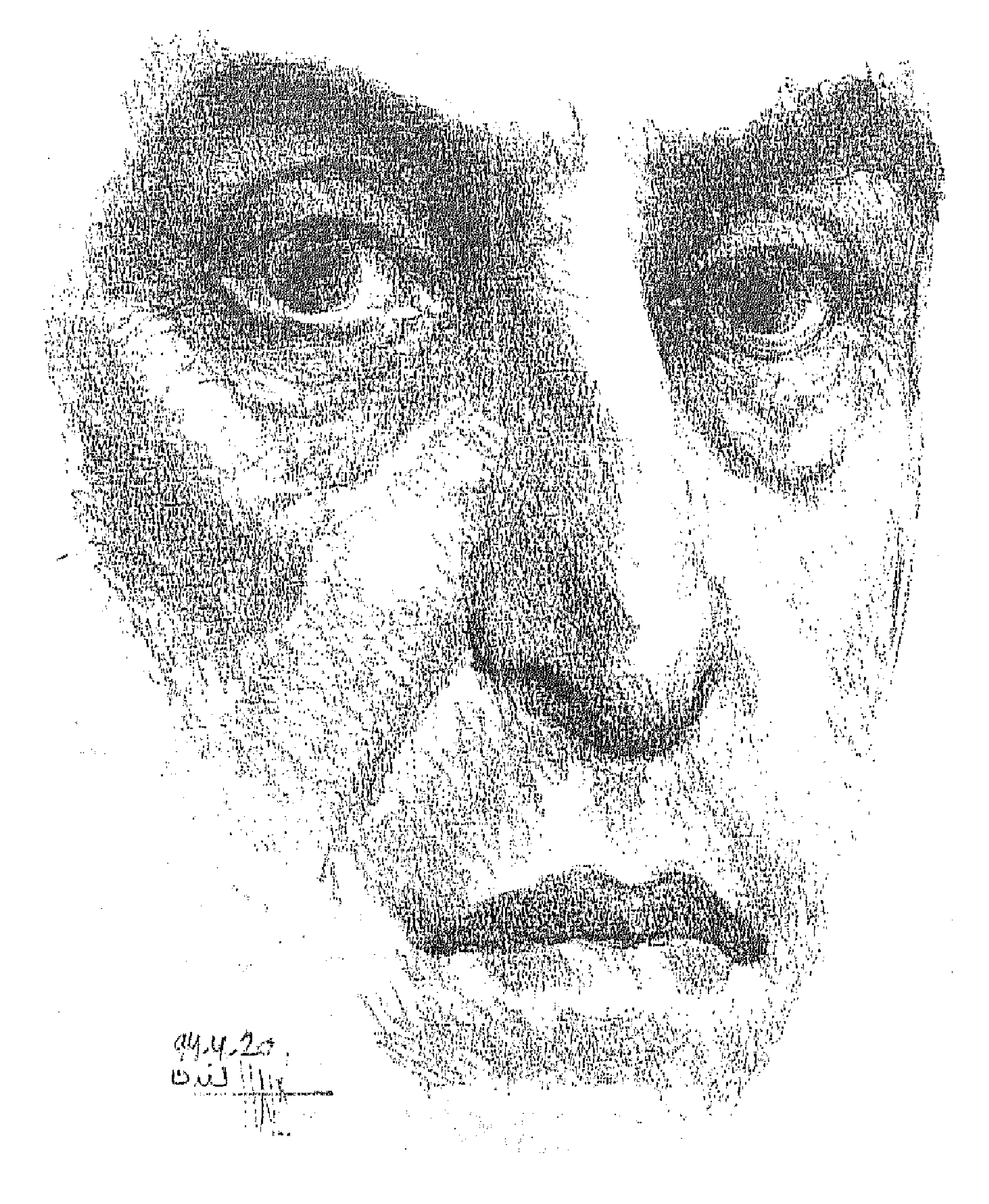
وراهن الجنوبيون على انهم لن يكونوا البادئين باستخدام الحرب، وسيساعدهم لجوء الرئيس الى الخيار العسكري لضم الجنوب بالقوة على انحياز قوى سياسية وقبلية شمالية الى صفهم، آخذين خبرتهم السابقة بنظر الاعتبار، وعلى الرغم من ان هذا الرهان لم يتحقق حتى الآن على نطاق واسع، الا ان اصرار الرئيس علي عبدالله صالح على استمرار القتال ودخول عدن بالقوة واحتلال اجزاء واسعة من الجنوب واطالة فترة الحرب مع ما ينجم عنها من تدهور الاقتصاد وارتفاع الاسعار وما يتحمله المواطن من اعباء وزيادة الضحايا، اضافة الى ما يظهره الجنوب من صمود قد يجعل هذا الرهان واقعا حتى في المستقبل القريب، وربما يؤدي برأس صالح نفسه. وقد تنقلب عليه قوى تقف الى جانبه الآن، واقليميا كانت التوقعات اقرب الى تصورات القيادة الجنوبية.

ويريد صالح الآن على الاقل توظيف انتصاراته العسكرية للحصول على مكاسب على الارض ونصيب من الثروة النفطية، لذلك فانه يناور ويراوغ للتملص من وقف اطلاق النار وتعزيز مكاسبه العسكرية، ورهانه الكبير على شق قيادة الحزب الاشتراكي.

١٩٩٤/٦/١٧


أدب وفن

في ستينية سعدي يوسف



تخطيط للفنان فيصل العيبي

في ستينية سعدي يوسف

لقاء مع سعدي يوسف: الشعر واليسار والديمقراطية

في البدء نتمنى لكما الاثنين اجمل التمنيات: الحزب الشيوعي العراقي في ميلاده الستين، وسعدي يوسف الشاعر في ميلاده الستين ايضا. ترى، وانتما معا قضيتما عمرا ليس قليلا في النضال على مستويات عدة، هل تصوب نظرتك الآن الى الماضي لتعتمد عليه، ام تصوبها الى المستقبل؟

* في التحية التي ارسلت الى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بمناسبة ٣١/٣٤ العيد الستين لميلاده، اوردت جملة ادعو فيها الى اغلاق باب مدرسة الاعوام الستين، والخروج الى الساحة، وربما كنت اعني بهذا ان العبرة ليست في السنوات، وانما في المنجز المتحقق بالفعل. انا ايضا اضع نفسي موضع من يتقبل المساءلة عن اعوامي الستين. فيما يخصني يمكنني القول اني تركت المدرسة منذ زمن طويل، وطلبت التحرك في الساحة. اما عن اهمية المتحقق لدي اولا ولدى من تابعوا ما اكتب، لا شك ان اي منجز ان ظل بدوره في فلك الفرد فسوف يكون منجزا محدودا. اعتقد انني كنت شخصا فاعلا ضمن حركة لا تزال لها احلامها العريضة في التغيير وفي تجديد الحياة، من هنا اشعر بأن عملي هو ذو مغزى، ومما يشعرني بالرضا حين اراجع سيرتي، انني كنت مهتما بجدل الحياة اكثر من اهتمامي بإشكاليات العمل السياسي المباشر، وربما لهذا السبب ظللت لصيقا بالفن وبحالة التغيير في آن . اي انني لم اجد نفسي يوما في تناقض صريح بين المسعى الفني، ومسعى التغيير الذي اعمل من اجله، وضمن اناس اشاركهم احلامهم وسيرتهم. ظل الحزب الشيوعي العراقي، وحتى اليوم يعاني من نقص في الجهد الثق افي، وكان لظروف العمل الصعبة التي مر بها الاثر المباشر في هذا النقص، ولست ادري، ان كان بمقدوره تلافيه يوما ما. بالرغم من الجسد الثقافي الضخم المحيط بالحزب، لكن هذا النقص ادى وبمفارقة عجيبة الى ان تمتلك ثقافة اليسار حرية مرموقة ظهرت نتائجها في التجديد المستمر، والبحث، وتعدد الاشكال، وتمايز وجهات النظر، والاجتهاد في مختلف الشؤؤون الثقافية، والتفتح على التيارات الفكرية، والمدارس الفنية في العالم. كل هذا جعل ثقافة اليسار القريبة من الحزب تؤثر فعلا في مجمل

الثقافة الوطنية العراقية. وخلال تجربتنا القريبة، اي تجربة الاعوام الخمسة عشر الأخيرة اتضح امران:

الاول: هو ان مثقفي اليسار حينما اخذوا المبادرة في اعادة تجميع قواهم والانطلاق من اعادة التجميع نحو آفاق في العمل الثقافي والنشر ومتابعة الابداع، حققوا منجزا مهما، هو رابطة المثقفين الديمقراطيين.

- الثاني: وهذا يحدث لاول مرة في تاريخ الحزب، هو ان عددا من الحزبيين ارادوا ان يمسكوا بخناق الجسر الثقافي العريض، فقاموا بشبه انقلاب، لكن النتيجة التي حدثت بسرعة هي التفكك الذي اصاب الرابطة، وانا اعتقد ان لنا في هذا درسا كنا في غنى عنه.

الافق الآن، يتطلب ان نتجاوز هذه العثرة، ولكن بشكل مختلف، اي ان نضع اسسا اكثر ملاءمة تتناسب والوضع العام للمثقفين، تتناسب والاوضاع، وتداري وتهتم بعنصر الحذر من اي شكل تنظيمي للمثقفين اليساريين، ومن هنا صعوبة العمل. علينا اعادة الاعتبار الى اولويات الثقافة بما تتضمنه من حرية واجتهاد ولبرالية وانفتاح واشكال فضفاضة للتجمع، مع حد ادنى من التنسيق، وأفضل ان يكون الحد، هذا الحد الادنى متمثلا في جهود ثقافية ملموسة كاقامة معارض. او انتاج فلم، او اصدار مجلة، او افتتاح منتدى في بلد او في آخر، اي القيام بعمل مياني.

* تمر الثقافة العراقية بوجه خاص في محنة كبيرة، سواء من حيث التعبير او من حيث الاهداف.. والمتتبع لها يجدها في ازمة حقيقية، فما ينتج منها في الداخل يعاني الغربة والمنفى، وما ينتج منها في الخارج يعاني كذلك الغربة والمنفى، كيف ترى الامر، ونحن نعيش هذه المحنة المزدوجة؟

– اعتقد ان المنفى قائم في الحالتين: داخل البلد، وخارجه، وربما كان المنفى الداخلي اشد قسوة، لان المرء في المنفى الخارجي يتمتع بحرية التفكير في الاقل، وبامكانية النشر في هذا المنبر او في ذاك. لكني اصر على طروحة الثقافة الوطنية الواحدة، وهو شئ طبيعي، هل يعتبر برشت خارج الثقافة الالمانية على سبيل المثال يوم هاجر من المانيا، او هل يعتبر ستيفان زيفايج، او باسترناك خارج الثقافة الروسية؟ غير انه لا بد من رصد ظواهر معينة ادت الى تمايز بين ما ينشر خارج البلاد، وما ينشر داخله، هذا التمايز ناتج بالتأكيد من حرية النشر المتوافرة خارج البلد. ونحن الآن نلاحظ النماذج الروائية الجيدة التي تصدر خارج العراق، ولكن من يدرينا بانه ليس ثمة داخل العراق نماذج توازيها، او قد تفوقها لو اتيح لها النشر.

اتذكر قولا لأحد الشعراء، يقول ان الفلاح وحده لا يستطيع مغادرة ارضه، وانا احمل ارضي معي اينما حللت، وبهذا لم اشعر بالانقطاع الابداعي، مسألة الغربة اعتيادية داخل البلد وخارجه، وهي واحدة ما دامت تجد مسافة بين الواقع والحلم.

* تجري الآن تغيرات جذرية على خارطة الشعر العربي الحديث، فبعد فترة الستينات لم يعد هناك مفهوم لجيل واضح للشعر العربي.. هل يعزى ذلك الى تغيير جديد في الحساسية الشعرية، ام ان طرقا فنية جديدة بدأت تفرض حضورها الفعلي في بنية القصيدة.. ام ان العقدة تكمن في مسألة الاجيال نفسها؟.

الشعر والاجيال

– اتذكر مقولة الشاعر الانكليزي اودن الشهيرة، لا ينتهي جيل شعري الا بانتهاء ممثليه جسديا. وانا الى جانب هذا الرأي. اعتقد انه جدير بالملاحظة في النظر الى مشكلة الاجيال، اعتقد ان جيل بدر شاكر السياب لم يعد مؤثرا، وهذا شئ طبيعي، بينما الجيل الثاني الذي منه ادونيس ما زال مؤثرا. الآن ايضا استطيع القول ان الجيل الثاني بدأ تأثيره يضعف، وهذه مسألة طبيعية جدا، ونحن الآن ننتظر الأضاءة الجديدة الكبرى بعد جيلين من ارساء قيم فنية وتوصل الى نتائج فعلية غيرت عميقا في طبيعة الشعر العربي واشكاله وموضوعاته، وزوايا الاهتمام، وتشكيل الذائقة الشعرية لدى الناس، ماذا ننتظر الآن؟ اعتقد ان من الصعب الاشارة الى تيار متبلور، اي الى جيل. اعود مرة اخرى للشاعر اودن، الذي يقول ايضا، لا يتكون جيل شعري الا بضرورة ومنجز، تفرضهما عوامل كثيرة تعلن بوجود منجز متميز، عندئذ نستطيع لملمة معالم جيل، هل امامنا لوحة سهلة القراءة؟ انا لا اعتقد، هناك خلل في تكوين بنية الشاعر نفسه، هناك احادية المنبع بشكل ما او بآخر. وبالضبط اعني هناك التأثر بالشعر الفرنسي المترجم، مع جهل يكاد يكون عاما بروافد اخرى كالشعر الاوربي والامريكي، دع ع نك الشعر الياباني والصيني والافريقي، كلها روافد لكنها لا تزال مجهولة. واذا اضفت الى هذه المسألة نشوة الحديث عن القطيعة مع تراث الشعر العربي القديم والراهن تبدت محدودية التجربة.

هناك شئ من انتقائية المنبع وانتقائية المنهج النقدي المصاحب له. هاتان المسألتان اثرتا سلبا في علاقة النص بالمشكلات الجوهرية الراهنة، ثمة مناهج تنفي اية علاقة بين النص والناس، بحيث نرى الشعر الامريكي الآن اكثر نقدا للحياة الامريكية من نقد الشعر العربي للحياة العربية. ان هذا المنحى التغريبي لم يأت عبثا، وانما هو نتيجة لتخطيط مسبق.

صحيح انه في الابداع لا يوجد آخر، فالجهد الانساني مشترك وطموح، لكن عندما نقول ثقافة الآخر تتلبس المسألة رأسا لبوس العلاقة السياسية، واحيانا اميز تماما بين الوان اللوحة الثقافية في العالم، واعتقد ليس ثمة اشكالية كبيرة بهذا الصدد.

* المتتبع لقصائدك الاخيرة، يجدها اكثر اختزالا، في نواحي عدة منها اللغة، والصورة، والاحالة.. فبعدما كان الموضوع خارجيا، اصبح الموضوع موصوفا من خلال اللغة الشعرية.. هلا حدثتنا عن التطورات التي اصابت حساسيتك الشعرية في السنوات الاخيرة، ثم ما هي مصادر هذه النقلة؟

– بدأت منذ سنوات، بمحاولة مترددة، ومتواضعة، ولربما كانت نتيجة لقراءات في فلسفة الفن وفي نظرية الشعر، وعلم اللغة، واعلم تماما انني قضيت فترة لا بأس بها متعلقا بدراسات من هذا النوع، وكان الكثير من هذه الدراسات بغير اللغة العربية، وكانت النتيجة ان ادت هذه القراءات الى ان اقرأ النصوص الشعرية قراءة اخرى، قراءة نقدية، وصرت اعقد علاقة بين اهمية نص ما واقترابه من نظريات معينة في اللغة، وفي مادة الفن، وعلى كل حال الشئ الاكثر تعقيدا في هذه الناحية هو تطبيق فكرة

معينة عن اللغة داخل النص الشعري، يعني ظلت المسألة تؤرقني كيف اتوصل الى استخدام اللغة باعتبارها مادة خاما. ولربما كان جهدي في السنوات الاخيرة ينصب في معظمه على هذه الناحية، اللغة كمادة خام والصورة المتولدة عنها. الحقيقة التي غابت لأسباب كثيرة هي الأولية في الشعر، واعني بالاولية الجذور الحقيقية لكل ابداع شعري. كانقطاع القصيدة الحديثة عن القصيدة العربية الاساسية- اعني القصيدة الجاهلية- والاغتذاء على مدارس متأخرة في الشعر، حولت الشعر الى عبث ألفاظ وليس الى جهد التعامل مع اللغة.

في محاولاتي الشعرية الجديدة، بدأت بترجيح الاشارة على الدلالة. انك لا تستطيع الوصول الى الاشارة لانها مسألة عسيرة جدا، في حين كان الانسان البدائي، يصل اليها بسهولة، هذا التعامل مع اللغة جعلني ابتعد قليلا عن الدلالة المباشرة، وبالتالي اظل مطمئنا الى انني اتعامل بالاساس مع اللغة. اي مع النص الذي اكتبه، لان الدلالة تأتي من داخل النص الذي اكتبه، كما تأتي من داخل تركيب الاشارة. وكان تساؤلي دائما كيف تكون اللغة الشعرية اقرب الى عالم الاشارة؟ كيف تتعامل مع الشيء؟ هذا هو المجازي الاخير في هذا الاتجاه. وكانت حصيلة هذه المحاولة، انني تخليت عن اساليب معينة كنت توصلت اليها في فترات سابقة ومختلفة، استدعت مني التخلي عما هو زائد وملحق وان لم يكن مثل هذه المحاولة واردا عند الكثيرين، في حين الغيت الاضافة الوصفية، والحال، والمصدر، والكثير من الملحقات تخليت عنها، كما بدأت التعامل مع الاسم الجامد، بدلا من الاسم المشتق، وبدأت بالاقتصار على اللغة المادية.. لذلك اعتقد ان اعادة النظر في عموم شعرنا الراهن تقتضي فعلا عدم التساهل في مشروعية الاداة المستعملة في النص، لكن الخطورة في الموضوع انك تجد كثيرا من النصوص كنت تعتقدها مهمة، تجدها اليوم تعاني من خلل واضح... اعني انها تحمل كمية كبيرة من الكذب.

* يلاحظ ان القصيدة الحديثة عندك، تقترب في صياغتها من فنون عدة، هناك التشكيل، وبناء الصورة، واللغة الايحائية، المضمرة، هل ما زالت القصيدة تخضع لتعمل فكري، ام انها نتاج العفوية؟

- لنقل ان آليات العمل الابداعية واحدة، هناك الشيء المشترك فيها، خاصة للفن التشكيلي، وللموسيقى... والقصيدة، مهما يكن شكلها، او تكن بنيتها ليست عفوية، ولكن الاستقبال فيها حر، متعلق بآلية العمل الابداعية، وعموما تظل الحياة المنبع الدائم لكل ابداع.

* بوصفك احد الشعراء المهتمين بالشعر الكردي المعاصر، هلا اوجزت لنا، التطورات الجديدة التي اصابت القصيدة الكردية الحديثة؟ وهل ما زالت القضايا الكبيرة، مادة لها؟ ام ان تطوراتها الحديثة جاءت نتيجة لنقلة في وعي الحداثة؟

- قام الشعر الكردي الحديث بنقلة اساسية من اجل تمييزه كشعر امة، فقد تخلى الى حد ما عن الاوزان العربية والفارسية. واستخدم الاوزان المحلية كالتي في الاغنية والشعر الشعبي، وهذه مسألة بدأها الشاعر عبد الله كوران، وكانت من اهم ميزات شعره. النماذج الحديثة للشعر الكردي التي اطلعت

عليها حديثا، يمكنني القول انني انظر اليها كما انظر الى الشعر العربي، الحديث، وشعر الامم الاخرى. هذه النماذج متصلة بتيارات الشعر العربي والعالمي، وتجد فيها كل تعقيدات القصيدة الحديثة. من الشعراء الجيدين في هذا التيار، عبدالله بشيو، شيركو بيكه س، رفيق صابر، كزال، وكثيرون غيرهم.. يبدو ان الجهد من جانب الشعر الكردي ينصب حول احياء التراث القومي، التراثي اكثر من الاهتما بالثقافة المعاصرة.

الاشارة والشعر

* يلاحظ المتتبع لانجازك الشعري، ان روافدك، ومصادرك المعرفية كثيرة، ما الجديد في هذه الروافد، وما الكيفية التي استفدت منها في بناء القصيدة؟. وهناك دراسة خاصة لك في تيارات المعرفة، وبخاصة اللغة والاشارة والدلالة؟.

– روافد الشعر الحديث كثيرة، ومتنوعة، بمعنى ان التراث الشعري العالمي، هو احد منابع القصيدة عندي، فهو في متناول يدي. كما ان غياب الاسطوري في شعري لان بداياتي ومكوناتي الاولى كانت مختلفة، انا كنت منتميا الى حركة المجتمع، كنت اهتم بالانسان الذي يمشي في الشارع، اهتم باشياء الواقع لاجعل منها المادة الاساس لشعري. كما ان الشعر العربي القديم مادة اخرى للشعر عندي، هناك مهيار الديلمي، بشار بن برد، الشعر الاموي، كل هذه المنابع كانت قريبة من الشعر الجاهلي. اضافة الى ذلك هناك روافد اخرى للقصيدة عندي، هي الرواية والقصة والثقافة الانسانية الواسعة. في كتابة القصيدة الحديثة، ما زلت اذكر احد النقاد الامريكيين لشاب يكتب القصة القصيرة، جاء يسأله عن الكيفية التي يكتب بها القصيدة. قال له الناقد اذا اردت ان تكتب قصة قصيرة عن رحلة ما.. ابدأ هكذا: فكر اولا اذا كنت في بيتك، ابدأ بغرفتك، ثم بعد ذلك انتقل منها الى غرف البيت الاخرى، ومن بعدها الى غرفة الجلوس- المعيشة- وبعد زمن افتح الباب، واكتب عن عبورك خط المشاة من رصيف الى رصيف آخر، وعندما تنجح في ذلك كله يمكنك التجول في المدينة. فعلا كنت في احد الايام افكر ك يف اعبر ممر المشاة فنيا، فوجدت المسألة معقدة الى حد مذهل، هذا الدرس الاول الذي تعلمته، ومن ثم اقمت عليه تجاربي في العلاقة بين الاشارة والشعر، واضيف لك، ان للقصة القصيرة تأثيرا مباشرا في الشعر، القصة القصيرة علمتني متابعة الحدث، والاختصار والاقتصاد باللغة، علمتني ملموسية اللغة، هناك قصص لوليم ساروريان وتراث القصص الامريكي، هناك تشيخوف، توركينيف، غوغول، بيول، الايطاليون، كل قصص هؤلاء مادة استفدت منها في بنية القصيدة الحديثة. كما استفدت كثيرا من الرواية، فالرواية تتيح لك الاحاطة بجوانب الموضوع، الرواية رؤية شاملة للعالم، ورؤية شاملة للظاهرة، واية حادثة اذا لم تنظر اليها باحاطة وشمولية تظل نظرتك اليها جزئية الى حد ما. انت لا تستطيع تفكيكها الى مفردات، فالعمل الفني يعتمد على مجموعة اجزاء الظاهرة.

* قرأت لك رواية "مثلث الدائرة" ووجدت فيها ما يمكن ان يقال انها رواية عراقية صميمة، كيف

بدأت فكرة الرواية؟ ومتى، وهل تسعى لان تؤكد من خلال الرواية الاحداث التي لم تظهر بعد في نتاجك الشعري؟

- في عام ١٩٨٢ فكرت بكتابة الرواية، ووضعت مخططا لها.. ما قرأته اخيرا، هو المخطط الثالث لها، كان المخطط الاول مليئا بما هو ذاتي، وكان يعتمد على شخصية واحدة اساسية في العمل، بمعنى ان الاحداث تدور حولها وتنبثق منها، المخطط الثاني كان في عام ١٩٩١، عندما كنت في باريس الا انه لم يخرج كثيرا عن ابعاد وبنية المخطط الاول.. عندما جئت الى عمان صرت اقرب الى نبض الاشياء في العراق، فوضعت المخطط الثالث لها، وكان المخطط هذه المرة تحت تأثير مباشر لمصائر الاشخاص والاحداث. فابتدأت تماما عندما تبدأ الاشياء بالتأثير. كنت اقرب نبضا الى المكان الذي اعرفه اكثر من غيره -واعني البصرة- احسست ان الدائرة قد اكتملت في المخطط الثالث، وكان ١٩٩٣ بالنسبة لي نهاية لانتظار طويل، الحركة القلقة على مصائر الشخوص والاحداث توقفت، ووجدت نفسي في مناخ الاحداث، وما الانتظار الطويل، ومخططاته الا تمهيد لكل ما حدث في المخطط الثالث. لذلك كتبتها في شهرين ونصف تقريبا. ومع انني كتبت عن مصائر لشخوص واحداث اعرفها، الا ان ذلك لا يعني انني اغلقت الدائرة، بل تظل مصائرهم مفتوحة، وانا على قناعة بأن هذه المصائر لن يحدث لها تغيير مفاجئ لاحقا.

كان احساسي في البداية ينصب على مصائر الاشخاص. انا مهتم برفاقي الذين نضجوا في العراق، اشعر بمسؤولية تجاه مصائرهم وخطواتهم وتصرفاتهم، لذلك لم اضمن الرواية اي راو، او لم استخدم الراوي المهيمن. هذا شئ مهم، مع ان هذه الطريقة الفنية التي استعملتها متعبة كثيرا، التناوب في الحدث، هو تناوب رواية الاحداث، تناوب ليس عن تضاد، وانما لاتمام المشهد والنقلة بين الاحداث.. بعد ذلك تواجه الشخصيات الثلاث المركزية مصائرها. صحيح انها رواية عن تجربة سياسية لكنها في مسار العملية الفنية تتحدث عن تجربة لخطوط متوازية لشخوص يحملون مصائرهم الكبيرة تاريخيا ومكانيا. لذلك كنت مهتما بان لا تكون روايتي رواية شخصيات، لو كانت لدي طاقة فنية لجعلت شخوصها خمسة بدلا من ثلاثة. وهناك مشروع آخر، وهو مشروع رواية جديدة..

* الشاعر الكبير، مشروع كبير، ترى ما هو مشروعك الفكري والثقافي الخاص، وانت تبلغ الستين.. هل مجلة "المدى" جزء منه؟ ام ان المدى، ليست الا الشرارة الاولى فيه؟.

المدى

- مشروعي الخاص، هو مجلة "المدى" او لنقل ان "المدى" جزء منه فهي الاطار الاول، وتحقيقا لثقافة وطنية حرة، فالمدى اميل للناحية الابداعية، واميل لتقليل المترجم فيها، نحاول من خلالها تكوين هوية عربية واسعة كي تدخل للبلدان العربية كلها.. ولذلك نسعى لان يكتب فيها كتاب من جميع البلاد العربية. لاننا وبصراحة امام مسؤولية واضحة وصعبة. فبعد توقف مجلات مهمة مثل الكرمل، ومواقف، وكلمات، واخرى قد توقفت، وجدنا ضرورة مجلة عربية ذات افق ارحب. مجلة المدى

تحتفظ وبوضوح وبمسؤولية بالمسألة العراقية، وهذا هو شئ لا مجال للشك فيه، ومن مهماتها اعطاء اهمية استثنائية للثقافة الوطنية في العراق، واعتقد ان من مهماتها ايضا الغاء ما يسمى بثقافة الداخل وثقافة الخارج، هناك ثقافة وطنية عراقية واحدة.

و "المدى" بكل طموحاتها جزء من مشروع ثقافي له امتداداته في عالم النشر، وعقد الندوات، والموائد المستديرة. اما مشروعي الخاص، فهو تأسيس "بيت الشعر"، وهذا المشروع الشخصي يحتاج الى تمويل وحماسة من قبل جهات اخرى. حتى الآن لا يوجد شئ من هذا الدعم، ولكن قد يبدأ بداية متواضعة جدا. "بيت الشعر" مشروع كبير، ومهم، واعتقد انه سيحقق الكثير للشعر العربي..

* لنتحدث عن انهيار المعسكر الاشتراكي، والاتحاد السوفيتي منه بالذات، ومدى تأثير ذلك كله على الماركسيين العرب، وعلى الماركسية كفكر وكأحزاب.. وهل هناك تصور فكري خاص لك حول مستقبل الماركسية؟

- الماركسيون لم يتضرروا من الانهيارات التي حدثت، وانما هم الآن امام فرصة تاريخية مهمة، لان يعملوا مجددا على الارض وان يحفروا باظافرهم طريقهم الجديد، عليهم ان يكونوا على علاقة اقوى بمشكلات المجتمع، وان يكونوا اكثر اعتمادا على الذات.

الضرر الذي اصاب الاحزاب الماركسية كبيرا، وكبيرا جدا، ولكن الماركسيين الحق لم يتضرروا.

* نعود لخارطة الشعر العربي الحديث اليوم، فالمتتبع لها يجدها خارطة متغيرة المعالم، وثمة ظاهرة ملفتة للنظر، ان العراق لم يعد مثل ما كان بلدا للشعر... وبوصفك اكثر الشعراء تنقلا وحضورا لدى الشباب وغير الشباب، هلا القيت ضوءا على الخارطة الجديدة للشعر العربي الحديث؟

- من الصعب القول بوجود خارطة للشعر العربي، كما اعتدنا تسمية ذلك في الخمسينات والستينات، والسبب ان سنوات الانقطاع والقطيعة، ومنع المنابر العربية الحقة من الدخول، اثرت كل هذه تأثيرا سلبيا، ومن ناحية اخرى تجد لكل بلد خارطته الشعرية الخاصة. بمعنى انك تجد مركزا شعريا في المغرب، وقد تستغرب اذا قلت لك ان مركزا شعريا اخر في عمان، مثلا ومثله في الجزيرة العربية، كل هذه المراكز لم تكن موجودة، ولكن ظهور شعراء جدد، وحركة شعرية لها حيويتها ومقدرتها ولدت مثل هذه المراكز.

خذ قصيدة النثر، الان يكتبها الآلاف. في سوريا وحدها يوجد الف شاعر يكتب قصيدة النثر. في مصر كذلك والتي كانت بلد شعراء لا مركزا شعريا. في مصر الآن مركز شعري مهم، ولم يعد العراق باهميته السابقة مركزا للشعر العربي، لقد تغيرت الخرائط.

لبنان وحده هو المختلف، حيويته الثقافية وطبيعته المستقبلية جعلته بلدا مفتوحا على تجارب الآخرين. خارطة الشعر العربي صعبة التحديد، عليك ان تقتني بالخارطة الشعرية لكل بلد.. وعندئذ ليس بمقدورك تشكيل اللوحة العريضة للشعر العربي.

في الشعر العراقي الحديث، وبخاصة الذي يكتبه الشباب شئ من البروق. من الامور والاشياء التي

تبقي حدا من التماسك في الشعر العراقي، ذلك الاساس القوي والعميق لميراث الشعر العراقي. هذا الميراث الذي يتسم اساسا بالجدية في تناول النص الشعري، لكن التدمير الطويل للثقافة حتى في تجلياتها الاولية: اي من التعليم الابتدائي وحتى التعليم الجامعي، هذا التدمير لابد وان يلقي بمفعوله وظلاله بشكل مباشر وغير مباشر على الثقافة الابداعية. هناك نقص واضح في الاساس الثقافي، نقص في الاطلاع، نقص في المتابعة، لما يجري في العالم اليوم، نقص في الكتب التي تصل، هناك منع للكتب وللمجلات وانقطاع مميت للمراسلة، وهناك تغييب متعمد للوعي الثقافي وعلى كل المستويات.. كل هذا النقص يلقي بظلاله على المثقف، وبالتالي يضعف الثقافة ككل بما فيها الشعر. من الشروط الاساسية، هو ان تكتب يعني ان تقرأ.. لابد من توافر حد ادنى من الامان الشخصي حتى تكتب، ينبغي لك ان تكون قادرا على الاتصال بالآخرين وان ترى المدينة والقرية، وان تزار وتزور.. كل هذه المفردات العملية مؤثرة في اية ثقافة وطنية يراد لها ان تكون مؤثرة.

* ماذا تتصور وضع الحزب الشيوعي العراقي، بعد مؤتمره الخامس، ضمن اطاره الخاص، وضمن اطار حركة المجتمع العراقي ككل؟.

- اعتقد انه لا امل للحزب الشيوعي العراقي بلا حركة ديمقراطية، وان الجهد الذي ينبغي بذله بصورة ملحة هو المساعدة في تطوير تيار ديمقراطي رصين يؤدي الى حركة ديمقراطية واسعة، قد يكون الحزب الشيوعي الايطالي مثال على ذلك، لقد قاد اليسار الديمقراطي. نحن بحاجة الى ان نخرج من مدرسة السنوات الستين الى الساحة العامة.

في سبعينية سعدي يوسف

الى سعدي يوسف مع كل المحبة

بلند الحيدري

اذن، لقد بلغت الستين من عمرك يا سعدي.. لشد ما كانت هذه السن بعيدة عنك وعن زملائك وانتم تملأون غرفكم الصغيرة، والتي اطلقتم عليها اسم "المرفأ" والمنزوية قرب جدار مهجور في "اتحاد الادباء"، بشعركم الفتي المتمرد علينا جميعا، ولشد ما كان الشيوخ منا يضيقون ذرعا باحلامكم وشعركم ونواياكم... وبقيت معكم، وانا ابرر مسعاكم في الهيئة الادارية للاتحاد، وكان الجواهري الكبير يكتفي بزم شفتيه، او بتعليق هامس تتبعه ابتسامة كلما جئنا على ذكركم.

ويوم ان تأسست "مطبعة الاتحاد" وصدرت عنه مجلته، كان ديوانك هو الديوان الوحيد الذي صدر عنها، وكنت قد تفضلت علي بأهدائه لي... "النجم والرماد".. كان ذلك في اوائل الستينات يا سعدي.. وكان رفاقنا قد علمونا ان نظل قريبين من الموت، الموت من اجل الوطن، بل كان بعضنا يحلم بتلك الميتة المشرفة التي تحولنا الى رايات في طريقنا الى الوطن، حيث نريده كبيرا وعلى مستوى طموحنا فيه، كان علينا ان لا نفكر بالهرم ولا بعصي نتوكأ كليها في شيخوختنا، فالوطن باشد الحاجة الى فتوة لا تهرم.. وها قد بلغت الستين، وتجاوزت انا السابعة والستين... ومات بدر شاكر السياب غريبا عن وطنه ومات رشدي العامل غريبا في وطنه، ومات الكثيرون ابطالا كبارا في ١٩٦٣ ومات آخرون صغارا... واكتب عن واحد منهم:

وددت لو قتلت يا صديقي

وددت لو شنقت

لو علقت في اعمدة الطريق

اذن لقلت ذلك الشامخ الف راية

صديقي

وتكتب عن غير واحد منهم.. ثم تجمعنا السجون، ايادي مغلولة، وشفاها موصدة في "نقرة السلمان" في "قصر النهاية" في "خلف السدة".. وغيرها وغيرها.. واكتب عن ذلك كله:

في "خلف السدة" ساومني جبني

ولدت...ولكني

قالوا: ابصق..ابصق

كدت..ولكني

اكبرتك في غير شهيد وقتيل

في هذا السجن وذاك السجن

فقلت لهم: كلا... كلا.. هذا وطني

هل يمكن ان يبصق انسان في وجه الوطن..؟!

ويشت بنا الزمن من منفى، وكأصوات صفارات الحراس الليليين في حاراتنا القديمة، كنا نقول لبعضنا البعض ما زلنا يقظين، ولن نخون مهمتنا، مهمتهم، كنا نكتب لبعضنا البعض، لنؤكد بأننا ما زلنا أحياء وما زلنا يقظين، وان سعدي يوسف لا يزال يتنفس برئتيه المحبوسة في بغداد، وان قسمه في قصيدته التي ختم بها "النجم والرماد" لا يزال عالقا بشفتيه:

لن نهاجر

انا سنبقى في الخنادق

حرسا اماميا.. سنحلم في الخنادق

وعلى مفارقنا نجوم ظهيرة وسماء شاء

سنظل في بغداد نطعمها البشر

ويظل ثمة امل يراودني:

يقال ما اتعس ما يقال

ان ليس في مدينتي رجال

......

لكنني اعرف يا مدينتي الصغيرة

يا عرق الرجال في الظهيرة

يا كسرة الخبز للدماة على حصيرة

اعرف ان اعين الرجال في مدينتي

لا ترقد

وان ملء صمتهم مناجما تتقد

غدا اذا ما انفجرت

سينحني لها الغد

وفي اول رسالة تصلني من منفاه في "الجزائر" ومؤرخة في ١٩٦٤/٦/٢٤ يكتب الي قائلا: "وبعد.. فقد وصلت بعد رحلة مضنية الى الجزائر، انا الآن أشعر بالراحة.. نمت لاول مرة "ويوصيني خيرا بمجموعته: "القتلى يسيرون ليلا"، والتي كنت قد تكفلت بنشرها في بيروت واذا "وجدت هناك حراجة في طبع القصائد كاملة، فلك الحق في حذف قصيدتين او ثلاث على ان لا تكون- مرثية الالوية الاربعة عشر من ضمنها"..

وتتواصل صفارات الحراس المنفيين، وتزداد حروف رسائلنا عتمة ونحن نرى اصدقاءنا يسقطون واحدا تلو الآخر مضرجين بنزيفهم الداخلي "وبعد يا بلند والحديث عن بدر فهو زهرة اخرى يصوغها المناخ الوحشي حيث الموت نفسه لا يكفي ليكون بابا للخلاص... اقل الوفاء يا بلند ان نقول كلمة الحق عنه.. ان نقول من هو بدر".

وفي ١٩٦٤/٧/٢١، يبعث الي بقصيدته "لمحات جزائرية" ويوصي بعدم نشرها، ولا ادري ان كانت قد نشرت ام لا..؟

مقهى على البحر

والغصان على المقهى

توشوش الموائد الفارغة الخمس

سدى

سيدة تبكي وحيدة

في الغسق الصيفي

والبحر الذي ينصت والمقهى

☆

فوق قميص العامل الازرق

فوق عيون الطفل والراقص والبحار

فوق البيوت البيض والساحة والازهار

والدمع والفرحة، والخندق

سارية تخفق، عبر الريح والمرمر

في الافق الاخضر

في الافق الابيض.. في الافق الاحمر

☆

صنوبرات التل تعطي القمر النعسان

نافذة زجاجها اغصان

وشرفة يلمح منها المرفا الغائم

يمنحه بحرا سماويا

ونورسا يهبط في بستانه النائم

شيئا فشيئا

دون ان تتبعه عينان

☆

بعد قليل تولد الساحة

تتركها باصات نصف الليل احجارا واشجارا

تتركها واحة

بعد قليل تسمع الساحة

آخر ما يهمسه العشاق

اول ما يقوله الحارس والافاق

بعد قليل تسمع الساحة اشعارا.

وشيئا فشيئا تصير رسائلنا الحزينة زادنا اليومي، وان كان هذا الزاد ليس بأكثر من خبز يابس.. الح عليه بان يكتب لي اي شيء عن سماء جزائره، عن نجومها، عن آلامه، عن اخبار العائلة، وكيف هم واين هم..؟ .. ويكتب الي: "كيف حالك..؟ هل تتلقى رسائل من الاصدقاء؟ ما اخبار الوطن الغائم..؟ وأنباء اصدقائنا..؟ انني هنا في انقطاع شبه تام.. انقطاع يكاد يكون جدارا.. اكتب الي.. اكتب عن كل شيء.. اكتب حتى الثرثرة ان شئت.

بدأت الجذور تعاني مرارة الارض الغريبة.. انني القى صعوبة في الكتابة.. باستطاعتي ان اكتب حين اريد.. لكن لم يعد باستطاعتي استساغة كل ما اكتب يا بلند".

آه يا سعدي.. ما زلت احمل رسائلك معي من ارض الى ارض، وكلما احسست بان صورة احدنا صارت اكثر بهوتا في عين الآخر عدت اليها لأجدد ودا كبيرا، ما زلنا بحاجة اليه.. ايها الصديق الكبير، الذي بلغ الستين، ولم يبلغه اذ لا يزال في عز شبابه.. ما زال كما كان في "المرفأ" لاتحاد ادبائنا في الستينات..

اشد على يديك ..واسلم ايها العزيز.



في ستينية سعدي يوسف

تسعة من أربعين!

"احتفاء بستينية الشاعر المبدع سعدي يوسف"

محمد سعيد الصكار

* الفضاء الثقافي في البصرة

ربما كان عام ١٩٥٥ أنشط أعوام الخمسينات ثقافيا في مدينة البصرة. فالرابطة الثقافية التي كان يرأسها محمد جواد جلال، وتضم في عضويتها الشاعر كاظم مكي حسن وعبد اللطيف الدليشي وعلي السعد وسالم علوان الجلبي وكاتب هذه السطور، تواصل امسياتها الثقافية شهريا، وتعقد دورات خاصة لتدريس الفلسفة والمنطق وعلم الفلك يديرها محمد جواد جلال نفسه. وفرقة مسرح نادي الاتحاد الرياضي التي اسسها الفنان المبدع المرحوم توفيق البصري، وكاظم البكري وكاتب هذه السطور، تقدم مسرحياتها بانتظام في بداية كل شهر. والفرقة الموسيقية في هذا النادي تنمو وتنمومعها مواهب ياسين الراوي وعبد الحسن تعبان ولويس توماس ومجيد العلي. وصحف البصرة تحفل بكتابات سالم علوان الجلبي وكاظم مكي حسن وعبد الله النفيسي وعدنان المبارك ويوسف يعقوب حداد وسعدي يوسف وزكي الجابر وعبد الرزاق حسين وخيري الضامن وغالب الناهي، وكثيرغيرهم. والمناسبات

العامة تستقطب الشعراء والخطباء من ابناء البصرة وغيرها. وكان السياب والشيخ احمد الوائلي وعلي البازي ومحمد علي اليعقوبي وعبد اللطيف الدليشي، يتألقون في هذه المنابر الخطابية. وكانت اسماء الشعراء والأدباء من امثال محمود عبد الوهاب ومحمد جواد الموسوي وعبد الغفور النعمة ومحمود الحبيب وزاهد محمد وعبد الرضا ملا حسن وآخرين على كل لسان.

اما السياب ومحمود البريكان ومهدي عيسى الصقر، فكانوا ممن يفخر بهم ابناء البصرة، ويتابعون انتاجهم بحماس هذا الى جانب ما كان يدور من نقاش مع الادباء الذين يزورون البصرة، مثل موسى النقدي ونزار عباس وخضير الولي ومعن العجلي وآخرين.

وكانت مكتبات عبد الله فرجو ومحمد هاشم الجواهري وصبري ومكتبة البصرة ومكتبة الجميع، في العشار، ومكتبة الاديب ومكتبة فيصل حمود في البصرة، والمكتبة العامة التي كان يديرها الصديق محي الدين الرفاعي، مراكز ثقافية، وملتقيات للأدباء والفنانين البصريين الذين جعلوا من القراءة تقليدا ثابتا بين الشباب، بحيث صار ظهور الشاب في الشارع دون كتاب، امرا محرجا له، حتى ولو كان من انصار فريد الاطرش!

ولم تقتصر الحركة الثقافية على هذا المراكز فقط، انما كانت هناك منافذ اخرى تدور فيها نقاشات، وتنطلق منها آثار فنية وأدبية، اسوة بتلك التي ذكرناها. فقد كان الحوار يجري في مقهى البدر على شارع الكورنيش، مثلما يجري في مطعم حداد وستوديو الصكار للخط والرسم وخان اسماعيل الجاسم ومحل يوسف رؤوف ومجلس السيد سعيد الحكيم في العشار مجلس محمد جواد جلال والسيد عباس شبر وآل باش اعيان في البصرة ومجلس الشيخ محمد جواد السهلاني في المعقل.

وكانت المطبوعات العربية، موضوعة ومترجمة، تصل البصرة حال صدورها، الا ما كان يخضع للرقابة والمنع، وهو قليل. فكانت منشورات دار الكاتب ا. ري وسلسلة الألف كتاب ومطبوعات كتابي ومجلات الاديب والآداب وكثير غيرها، ميسورة في كل مكان.

* اللقاء الاول

ومن بين الاحدث الثقافية البارزة في هذا العام، معرض جماعة الانطباعيين الذي اقيم في مديرية التمور، على الكورنيش، وضم اعمالا لحافظ الدروبي وحياة جميل حافظ ومظفر النواب وأرداش كاكافيان.

في زيارتنا الاولى لهذا المعرض، انا وعدنان المبارك وتوفيق البصري وعدد من الاصدقاء، تعرفنا على الفنانين، وقامت علاقة فورية حميمية بيننا وبين مظفر النواب وأرداش، على الاخص، واستمرت الى يومنا هذا.

كان من جملة الرواد في هذا اليوم، شاب نحيل طويل القامة، ذو سحنة بصرية جنوبية ، ومشية متميزة بخطواتها الواسعة وانحنائها، يطوف في القاعة، ويبدو ذا علاقة بالفنانين. وقبل ان أسأل عنه، قال لي عدنان: هذا سعدي يوسف.

اذن فهذا هو الشاعر الذي كنا نقرأ له قصائد وترجمات ينشرها هنا وهناك، وصاحب قصيدة القرصان التي حصلت على الجائزة الاولى في المهرجان الشعري لدار المعلمين العالية في بغداد، والذي كنا نتحدث عنه في لقاءاتنا دون ان نراه؟.

وفي لحظات متوترة من الفجاءة والفرح، تم التعارف الذي لم ينقطع حتى هذه الساعة.

وما ان تعرفت على سعدي حتى عرفني بدوره على زميله في الدار، الشاعر زكي الجابر، وصرنا نلتقي بشكل مستمر، نحن الثلاثة.

ويذكر سعدي ما يذكر، اننا كنا نلتقي في محل الصديق اسماعيل الجاسم، الواقع في الشارع الموازي لسوق الهنود. وهو خان عتيق من مباني البصرة القديمة، يستخدم مستودعا للبضائع الاحتياطية. وفي الطابق الثاني من هذا الخان عدة غرف، يشغل احدها صديقنا يوسف رؤوف، المجلد البارع، ويشغل الثانية زاهد محمد الخارج توا من نقرة السلمان. وبين الغرفتين في الطابق الاعلى، وبين مكتب اسماعيل الجاسم للنقليات، في الطابق الاسفل، كانت تعقد لقاءات ادبية يومية، تناقش فيها شؤون الادب والفن بحماس وانفعال. فكان زاهد محمد يجيئنا كل يوم بقصيدة، وكنا نشترك، هو وعدنان المبارك وانا في كتابة اشعار حلمنتيشية نداعب بها يوسف واسماعيل. كما كان سعدي يحضر هذه المعمعة بين حين وآخر، وهو يحفظ عنها ذكريات جميلة.

في الفترة التي تلت، ظهرت مجموعة سعدي الاولى (اغنيات ليست للآخرين) و (مختارات من الادب البصري) و (مجرى الاوشال) لسالم علوان الجلبي، و (الحان الفجر) لعبد الله النفيسي، و (طريق ابي الخصيب) لعبد الجبار البصري.

وكان كتاب (مختارات من الادب البصري) حدثا ثقافيا برأسه. ضم قصائد للبريكان والسياب وسعدي يوسف وعبد الحسين الشهيار، وقصصا لمحمود عبد الوهاب وآخرين.

ولعل الطريف ان اذكر ان هذا الكتاب كان كتاب ينشر في البصرة ويعلن عنه بطريقة جديدة وغريبة على تقاليد النشر، وهو ان يطبع اعلان عنه، ويوزع على الناس في الشوارع، كما يعلن عن الافلام كل اسبوع. واذكر ان هذه الطريقة في الاعلان كانت موضع استنكار من عديد من الناس الذين يجلون الادب عن هذا الاسلوب الدعائي، ولكن الكتاب قوبل بحفاوة.

وكانت قصائد سعدي المنشورة في هذا الكتاب، تحمل نكهة محلية لم يسبق لنا التعرف عليها. وصار اسم (سالم المرزوق) قريبا الى قلوبنا، وصارت اسماء الاماكن البصرية كالدواسر وكردلان وحمدان وغيرها من الاسماء اكثر الفة، كما صار اسم سعدي من الاسماء التي تتصدر الواجهة الشعرية في البصرة.

* شراب البحارة

في امسية صيفية التقيت بسعدي عند الغروب بالقرب من مكتبي (ستوديو الصكار للخط والرسم)

الواقع في نهاية سوق الهنود، قرب الجسر، فاقترح علي ان نتمشى على الكورنيش. عبرنا الجسر الجميل واتجهنا الى مخزن (طليا)، واشترينا قنينتين صغيرتين من الويسكي وضعناهما في جيب البنطلون الخلفي وانحدرنا الى شارع الكورنيش ونحن نتحدث ونحسو من القنينة ونعيدها الى جيوبنا، حتى انتهى بنا السير، مع نهاية القنينة، الى فندق جبهة النهر. وهناك اقتعدنا مقعدين على البار، واقترح سعدي واحدا من اقتراحاته الجهنمية التي لم اكن اعرفها سابقا، والتي اعتدت عليها فيما بعد، وهي ان نحتسي شراب البحارة! ولم اكن اعلم ان للبحارة شرابهم الخاص، وبما ان سعدي (افقه) مني بالخمور، وافقت. وكانت خيبة مرة عندما مسحنا نكهة الويسكي اللذيذة بطعم الروم الذي لم اجازف ثانية باحتسائه.

* عبد الله في بلد السلامة

في عصر احد الايام، التقيت بزكي الجابر في مكتبة صبري، فاخبرني بان مجلة متخصصة في الشعر ستصدر في بيروت، وان سعدي سينشر فيها. وبعد مذاكرة قصيرة عن امكانية مشاركتنا فيها نحن ايضا، اتفقنا على ان نؤجل هذه المشاركة الى حين تبين توجهها الفكري، فقد كان ذلك من شروط مشاركتنا.

وظهرت (شعر) حاملة لنا (ميت من بلد السلامة)، وعددا من قصائد سعدي يوسف، كانت يومها مفتاح شاعرية هذا الشاعر الشاب ذي النفس الجديد والموضوعات المحلية التي صرنا نحبها، ونترقب المزيد منها. ولا شك في ان نشر هذه القصائد في هذه المجلة فتح لسعدي نافذة واسعة على الآفاق الشعرية خارج العراق، وأسس له علاقات ادبية واسعة.

ومن يومها صارت متابعة سعدي هما شعريا عندنا.

ومع ما لهذه القصائد من اهمية شعرية وتاريخية، الا انني احسست ان قصيدة (الخيط): "انني احسست بالموت قريبا"، كانت الانتقالة الاكثر وضوحا في تطور شعر سعدي في هذه المرحلة، وكانت يومها، مدار حديثنا، نحن اصدقاءه.

* المهرجان

في مساء صيفي من عام ١٩٥٧، جئت الى بغداد في سفرة ولا كالسفرات، والتقيت صدفة بسعدي في شارع الرشيد، وبعد حديث عام لم نتساءل فيه عن سبب وجودنا في بغداد، قادني الى فندق شعبي، ليلتقي بناظم توفيق الحلي، ويعرفني عليه. ودارت بينهما ذكريات الدراسة، واستعراض وجوه الزملاء، وانا ساكت. وانتهى اللقاء وافترقنا دون ان نتفق على لقاء آخر.

وبعد اربعة ايام، كانت دهشتنا ترقصنا فرحا، عندما التقينا نحن الثلاثة، في فندق صغير بدمشق، يضم اعضاء الوفد العراقي السري الى مهرجان الشباب والطلاب العالمي السادس الذي سينعقد في موسكو خلال شهر آب ١٩٥٧ .

ما من شك في ان تجربتنا في هذا المهرجان كانت اغنى واثمن ما اتيح لنا حتى ذلك الوقت، فقد

كانت رؤية ناظم حكمت وجورج امادو وبوريس بولفوي مؤلف (قصة رجل حقيقي) وغيرهم من اعلام الادب والفكر التقدمي، واللقاء بشخصيات عالمية وعربية، متاعا فكريا ووجدانيا في منتهى الروعة والاهمية.

* السفينة كرزويا

سافرنا في باخرتين منفصلتين، حملتانا من ميناء اللاذقية. سعدي على الباخرة (كروزيا) التي منحته قصائد (يوميات السفينة كروزيا)، وانا على باخرة (القرم).

في موسكو اطلعني سعدي على قصائده هذه. وقد ادهشني يومها طريقة سعدي في كتابة الشعر، اذ هيئ الي ان سعدي اشبه بالفلم الحساس، يستقبل التجربة ويعكسها فورا. والا فكيف تكتب سبع قصائد في اربعة ايام؟ وكيف تحول هذه الظواهر الحياتية البسيطة الى مادة شعرية؟ في حين كنت وآخرون، ننتظر (اختمار التجربة)، ونتحايل في اقتناص زاوية الدخول الى القصيدة، وقد تمر التجربة، وتضيع الوهلة الاولى، ولا تأتي القصيدة. ولا اكتمكم انني لم اتحمس كثيرا لهذه القصائد، اذ لم اكن قد الفت هذا النوع من الكتابة الشعرية.

ولكن المتابع لشعر سعدي يرى بوضوح انه روض نفسه جيدا على الاستجابة السريعة للحدث، وتمكن من تطويع ادواته الشعرية، لتكون جاهزة لاصطياد عصفور الشعر القلق المستفز النافر الشموس. وقد اسعفه في ذلك خيطان:

الاول، طبيعته الشخصية القلقة ذات الحيوية التي تأبى الاستقرار، وتريد ان تضع بصمتها بسرعة وتنتقل. والثاني، ثقافته التي اسسها بعناية وانتقاء، وظل يرعاها.

وانا افترض خيطا ثالثا من عندي، فاقول ان سعدي يعي ظروف الموضوعية وعيا حادا، ويتعامل معها على اساس كونها حقيقة قائمة تريد منه الاعتراف بوجودها، دون محاصرتها بالمنطق الذي لا يبدو منطقيا في كثير من الاحوال. انه صياد الوهلة الاولى- وهي لا شك مادة الشعر الاساسية- لا يدعها تفلت من يديه، ولا يسمح للأناة والتروي ان يغيرا الوانها، لذلك فهو يأسرها في لحظة ولادتها، ويكسوها ريشا من رصيده المعرفي، ويطلقها تهرول مسربلة بحرارة كينونتها، ولا يلتفت اليها بعد. ولا شك في ان قداسة الوهلة الاولى التي يؤمن بها سعدي، والمقبولة شعريا، قد سببت له حرجا في المواضعات الاجتماعية، وجعلت موقفه متناقضا احيانا. ولكن سعدي المولع باصطياد الوهلة والعارف بدواخل العملية الشعرية، والمدرك لعلاقات الشعر بالمحيط، والمنفتح على تجارب ثمينة ومتنوعة، يعي جيدا ان القيمة الثابتة والنهائية للشعر هي خارج حدوده الزمانية، بل هي ايضا خارج ظروفه. ولذلك فلا حكم على الشعر من خارج منطق الشعر الخاص، القائم على حقيقة كون الشعر ابقى، وان ما يحيق بالشاعر من ظروف وعلاقات، ما هو الا غمامة يقشعها الزمان، ولا قيمة الا للشعر وحده. فالشعر اولا، والمو اضعات الاجتماعية تأخذ مجراها في الحياة، وهو على هذا الاساس، ينطلق في بناء علاقاته المنسجمة او

المتناقضة دون اعتبار لما هو خارج الهمس الاول، النقرة الاولى على عصب القصيدة.

هذه الطبيعة القلقة المتجددة، وهذه الثقافة المكينة المتنامية، وهذا الوعي بقيمه ما هو كائن كما هو، هي -في ما ارى- مرتكزات شخصية سعدي الشعرية. وقد كان لـ (يوميات السفينة كروزبا) فضل انتباهي الى ذلك لاول مرة.

* خان أيوب

بعد عودتنا من المهرجان ظللنا فترة في بيت (التجمع) الذي سيسميه سعدي، فيما بعد "خان ايوب" والذي استأجره الوفد في حارة الميدان بدمشق، بعد ان اكتشفت السلطات العراقية امرنا، ونشرت اسماءنا في جريدة (الشعب) ببغداد، واصبح كل منا مسؤولا عن تدبير امره.

وفي هذا البيت (الكومونة- كما كان يقول سعدي يومذاك) كانت حياتنا حياة جماعية، موزعة فيها المسؤوليات على الافراد بانتظام، وقد كانت مهمتي فيها هي كي الملابس التي تغسلها زميلاتنا في الوفد. ولكنني سرعان ما غادرت الكومونة الى غرفة استأجرتها في الحي نفسه، وظل سعدي هناك.

كانت تزورنا في الكومونة، وجوه وطنية عراقية وعربية، من بينها عبد القادر اسماعيل وعبد الجبار وهبي (ابو سعيد) ونبيه رشيدات وعبد الوهاب البياتي، وشخصيات سورية. وكنا في الاماسي نلتقي في بارات الشام ومقاهيها، وفي النهارات في مقهى الكمال والهافانا، حيث يرودهما الشعراء والكتاب: احمد الصافي النجفي وشوقي بغدادي وسعيد حورانية وعادل قرة شولي وزكي الارسوزي ومطاع صفدي وعبد الوهاب البياتي ويوسف العاني وابو سعيد وصفاء الحافظ وكاظم جواد ومحمود البريكان ورشيد ياسين ومجيد الراضي وناظم توفيق وفايق ابو الحب وغيرهم.

في الايام الاولى، قبل حصولنا على عمل، وقبل ان تقفز الجيوب، كنا نلتقي، سعدي وانا، واحيانا المرحوم فائق ابو الحب، في حانة بغداد القريبة من ساحة بغداد. وذات يوم التقيت بالشاعر المرحوم كاظم جواد، فسألني اين اسهر، فقلت له مع سعدي، في حانة بغداد. فقادني من يدي وقال: تعال، هنا حانة بحجم جيبك، تشرب فيها بليرة واحدة، وتسمع فيها الوسيقى مجانا طيلة الوقت. واخذني الى حانة في منتهى الصغر، مطلة على بردى، عند مدخلها صندوق موسيقى آلي، وقال: أرأيت، تجلس قريبا من الصندوق، وتطلب ربع بطحة، وتسمع كل ما يطلبه الآخرون مجانا!

* الفأر

وحصل ان دبر سعدي امر عمله مدرسا في الكويت، فغادرنا تاركا لدي اوراقا وافلاما، هي كل متاعه من المهرجان. وبعد فترة طلب الاوراق فارسلتها اليه، وابقيت الفلم عندي على سبيل الصيانة، وخشية ان يضيع في البريد، وكنت حريصا عليه، فأختلط بين ما أعتز به، ونسي. ويبدو انه ظل بين الاشياء الاثيرة عندي انقلها معي اينما حللت، وبينها افلام لي لم اراجعها. وكم كانت دهشتي كبيرة عندما اتيح لولدي مازن وقد صار رجلا ومصورا فوتوغرافيا ان يلتقط بعد ثمانية وعشرين عاما، فلم

سعدي من بينها!! وطبعه فلم اتعرف عليه الا بعد تمحيص، فقد تبدلت الوجوه، وابتعدت المناظر في صميم الذاكرة. وكان ان اعيد الفلم الى سعدي بعد هذا الزمن الطويل.

لم يمر على سعدي وقت طويل في الكويت حتى بدأت رسائله تترى الى ناظم توفيق الذي وفق في الحصول على عمل وعنوان ثابت في جسر الشغور، واشتغلت انا معلما في قرية (قرقانيا) الى شمال حلب، قريبا من لواء الاسكندرونة. فكان ناظم يبعث الي بصورة مما يرد اليه من سعدي من قصائد واخبار، مع قصائد لزكي الجابر كانت تصل سعدي. وكان من بين قصائد سعدي التي وصلتنا، قصيدة (الفأر): ها انت وحدك مرة أخرى كأنك لم تسافر. وقصيدة (الصوت): البحر في عينيك والارض النبية في جبينك. وقصيدة (عبد السلام- صار اسمها في "٥١ قصيدة" عبد الرحيم): سأظل ابحث عنك في الآفاق.

* ايام الضياع في الكويت

ويبدو لي انه من المفيد ان انقل هنا حرفيا إحدى رسائله الي في تلك الايام التي كنت فيها معلما في قرقانيا، بفواصلها وتقطيعها، لانها تفصح عن ومضعه النفسي يومذاك، وتؤرخ لأحداث مرت في الوطن:

الكويت

١٩٥٨/٤/٢٧

سعدي يوسف

أخي محمد...

ما لي لا اكتب اليك؟... ما لي لا اكتب لأحد؟. اتكون الايام الثمانية والاربعون المتبقية من السنة الدراسية تحمل تركيزا مريعا لآلام سنة كاملة. ثم اني قريب من مدينة "ريحها الرطبة" قادمة إلي من هناك... من النخل والنهر والكازينوات الكسلى؟

ايكون الشعور بالحزن؟ ايكون الشعور بالضياع؟ عندما كنا في البصرة وجهنا ملاحظة الى قول السياب في انشودة المطر "من أيام الضياع في الكويت"... ولكنني الآن أغفر للسياب... إن الضياع يتمثل هنا، أمام ناظريك، ويلقاك كل يوم بابتسامة رملية كالحة... لا حدود... لها... لا حدود ...... ورسائلي تأتيني من بلاد انت تعرفها... إلا أنها لا ترد عني الابتسامة الكالحة إلا زمنا قليلا... وأعود... أعود... لقد عرفت حتى طعم الدمع الملح...

انني لا اتذوقه في اليقظة التي تخبزها الشمس والريح... ولكنني أحس طعمه على شفتي في الليالي المربدة النجوم...

أخي محمد...

هل اكتب اليك حقا رسالة؟... هل تستأثر مشاعر ضائعة بأكثر الرسالة، انني إذا اعتذر... ناظم لم يرسل لي رسالة منذ زمن...

وزكي أرسل إلي معايدة عليها سفينة ونخل وماء وبناء جمعية ما للتمور... وشجرات وشارع... أما قصيدته فقد ضاعت مني... انها قصيدة رائعة.. ولقد ارسلت نسخة منها الى ناظم.. وأنت تستطيع طلبها من هذا المتروج الهادئ في جسر الشغور.

اليوم وردني قبول من الجامعة الأمريكية ببيروت حيث سأدرس الماجستير بـ... بـ... التربية وعلم النفس. وعلى هذا فسوف لن أقضي كثيرا من العطلة في الشام، وانما سأتوجه إلى لبنان بعد مكوث قصير في دمشق، حيث أجدد جواز سفري... قل لي: هل برزت صعوبات لبعض الاصدقاء بخصوص تجديد الجوازات؟

انني اود معرفة شيء عن الأمر إن أمكن...

وبعد...

فأنا الآن أكتب اليك من المدرسة...

إنها المكان الوحيد الذي أرتاح فيه... ليس لأنني أحب طلبتها او جوها.. ولكنني احب بناءهما ومراوحها وماءها المثلج...

انني اجمع الآن وانظم قصائدي المتبقية في الذاكرة او التي بعثها إلي بعض الاصدقاء، وقد اجتمع عندي عدد لا بأس حوالي ٦٠ قصيدة، وسوف اطبعها هذا الصيف ببيروت... انني اخشى ان تحترق مرة اخرى فلا استفيد منها شيئا... هذه المخلوقات العزيزة علي.

وانت كيف حالك؟ كيف حال الشعر، الظاهر من "ستكون الشمس عمودية" ان شعرك بخير عميم... انني ارجو هذا، واود ان اطلع على بعض انتاجك الاخير...

ان هذه الظروف الجديدة تفعل فعلها...

والعراق... أتريد أخباره؟

لا شيء الا مقاطعة الانتخابات والتكتل الوطني النشط، وعودة صدور "الجريدة" بعد ان تعطلت مدة بسبب غارة "موفقة" على مطابع. تجد في الرسالة بيانا (عنها) أعيدت طباعته في الكويت، ارجو ان يحمل اليك رائحة البارود والدم الذي لم يجف...

وبعد...

صفحة رابعة... ماذا سأتحدث فيها؟ ... لا شيء... لا شيء... سوى أريد ان اكتب اليك... يا معلما للحرف في قرية على الحدود الفاشستية...

ختاما... احتفظ بما لديك من ودائع... انني نسيت... هل اودعت لديك أفلاما وصورا؟ أرجو إخباري.

ختاما...

مرة اخرى...

تحياتي الى والدتك...

الى ناظم...

الى زميلك العراقي في فرقانيا

والى اللقاء

المخلص ابدا

(توقيع)

ملاحظة

لا تقطع عني رسائلك.

الطير المهاجر والمرفأ

في اواخر عام ١٩٦٠ كنت في موسكو منتظرا بداية العام الدراسي للالتحاق بجامعتها، واذا بالرفيق الشهيد جمال الحيدري يتصل بي بالتلفون لينقل الي رغبة الحزب في عودتي الى العراق، وتأجيل دراستي الى السنة التالية، وذلك لمواجهة موجة الهجرة من العراق التي شاعت في الوسط الثقافي نتيجة التوتر السياسي في البلد. كان الحزب يريد ابقاء عناصره الثقافية في الوطن لرفع معنويات المثقفين الوطنيين. بعد يومين كنت في بغداد لأشهد حدثين يتعلقان بسعدي، اولهما قصيدته (الطير المهاجر):

... سنظل في بغداد نطعمها البشائر

وضراوة الإصرار والعمل المثابر

يوما فيوما...

و"لتعلق" انت...

يا طيرا مهاجر.

وهي قصيدة لتعزيز التوجه الحزبي المذكور. (وهناك قصيدة أخرى "المحكومون" التي نشرت في جريدة ١٤ تموز بتوقيع محمد عبد الحسين او عبد الله عبد الحسين، لم اعد اذكر. وهي ايضا استجابة لتوجيه حزبي).

وثانيهما، اتفاق الزمرة المتمردة في اتحاد الادباء، وفي مقدمتها سعدي، على اتخاذ الغريفة المجاورة لمطبخ الاتحا منتدى لهم، يلتقون فيه ويشربون وينقدون ويكتبون بحيوية قصوى، وينشرون بانتظام. وقد اطلقوا على تلك الغريفة اسم (المرفأ)

كانت الزمرة المتمردة مؤلفة من مجموعة الاصدقاء الشباب الذين يلتقون يومياً في الاتحاد، يتناقشون

ويتابعون كل ماله علاقة بالادب والفن، ويجربون في الشكل والمضمون، ويعتقدون انهم مكلفون لاصلاح كل فساد الارض! وكانت هذه الجماعة مؤلفة من سعيد يوسف ورشدي العامل وجيان (يحيى عبد المجيد) ونزار عباس وأنا. وأول لقاء بهم، يوم عودتي، شرح لي رشدي مشروع المرفأ، فوافقت عليه، فصفق الزملاء وشربوا نخبي، ورحنا نعمل.

كان رشدي يشرف على تحرير صفحة الادب والفن في جريدة (صوت الاحرار) للطفي بكر صدقي، وقد حول اسمها الى (المرفأ)، وأغناها بحيويه واصالته الادبية، وخبرته الصحفية، وفتحها على آفاق تفوح بشذى الفتوة وعنفوان الشباب وتطلعاته المفتوحة. وكانت اسرة المرفأ وراءه تكتب وتستكتب. واتسعت الأسرة بانضمام علي الشوك وبلندا الحيدري وسلمان الجبوري، بتعضيد حسين مردان الذي كان (أعلى من الشراع) كما كتب يومذاك. وراحت تتطلع الى توسيع التجربة، فاتفقت مع فايق بطي على فتح صفحة للمرفأ في جريدته (البلاد) تولاها رشدي العامل، تاركاً لي تحرير مرفأ (صوت الاحرار). وما هي الا شهور قليلة حتى كانت هناك اربع صحف تحرر اسرة المرفأ صفحاتها الادبية، وهي: صوت الاحرار والبلاد و١٤ تموز وعالم اليوم التي سنعود الى ذكرها بعد قليل.

آفاق ابداعية.

كان سعيد يومذاك بين بغداد والبصرة، وكانت مساهماته لا تنقطع، ولا تقف عند نوع ادبي واحد، فكان يكتب القصائد والمقالات وادب المراسلات والتراث، ويتابع باهتمام الحركة الادبية والسياسية في العراق.

وكانت علاقتنا تتجاوز طبيعة الرفقة الادبية الى التأمل في كتابات بعضنا وكأنها جزء من كتاباتنا الخاصة، نتذوقها وننقدها وندافع عنها، دون ان يذوب احدنا في الآخر. وكان سعيد اكثرنا جرأة في التجريب واقتحام المناطق العذراء او الشائكة. وكان ذلك امتداداً لمحاولاته التجريبية الاولى:

معي كان في ٦/٥

لقد كنت اشرب صوته

(المسافر ـ ١٩٥٩)

والتجربة هنا على مستويين، مستوى ادخال الرقم وليس اسم الرقم (خمسة وستة)، ومستوى اقحام القراءة الشعبية لهذا الرقم ـ التاريخ.

وقبلها:

١٤ ذئباً بقتلك يفخرون

(اغتيال محمد بن عبد الحسين ـ ١٩٥٧)

وبعدها:

انت في عامك الـ ١٦ .

(قصيدة تركيبية ـ من ديوان نهايات الشمال الافريقي)

التي تجري نفس المجرى.

وقارئ سعدي يجد افانين البلاغة العربية تسير جنباً الى جنب مع تطلعاته المستمرة الى لغة جديدة، وبلاغة (يومية) مستمدة مما في لغة الناس الاعتيادية من ابعاد ذات تأثير خاص، لغة وإيقاعاً. ولذلك نراه لا يتردد في ادخال (الموال) العراقي الشعبي ضمن قصائده الفصيحة، متعاملاً واياه برفق وحصافة لا تخرج به عن طبيعته وحيويته، بل تقربه من الفصحى، وتوطئ الفصحى له. وهو بذلك يضرب مثلاً عملياً على ان التشبع بدلالات اللغة الشعبية، والتمكن من اسرار الفصحى، يذلل الكثير من مشاكل الفرقة بينهما، وخصوصاً اذا كان للمجرب ما لسعدي من صبر ووعي وحبة للغة. هذا الى جانب اهتمامه بتنويع الشكل، سواء في التكرار (قصيدة الساعة الاخيرة) او التلصيق (قصيدة البستاني) من مجموعة "الساعة الاخيرة" كمثال.

ولم يقتصر مسعاه على اللغة وحدها، وانما امتد الى كل فنون الادب، في الشعر ـ الفصيح منه والشعبي ـ والقصة والمسرحية والمقالة والترجمة ومجاراة التراث، الخ. ذلك انه حسم موقفه مبكراً لصالح الادب. وكانت الاوقات التي قضاها في التعليم عبئاً عليه، وكذلك التزامه السياسي، فهو ليس موظفاً ولا داعية، انه شاعر، والتزامه ينبع من كونه شاعراً اولاً، مع كل مافي الشاعر من تنغيص لرؤية السياسي، ووفق في ان يبقى شاعراً ويبقى ملتزماً.

وللنكتة، اذكر انه قال لي في اوائل السبعينات، عندما اطلعته على الابجدية الطباعية التي وضعتها: "عظيم يا محمد. صار عندك مشروع، شغلني وشاعر"! .

وكان على حق، فتلك هي المهنة الوحيدة التي يجيدها.

الناقد السينمائي

في الكلام عن (المرفأ)، ورد ذكر لمجلة (عالم اليوم)، تلك المجلة البيطرية المتعطلة التي ضمتنا واصدقاءنا اكثر من شهرين. كان يملك امتيازها الدكتور توما شماني، ولا ادري كيف خطرت الفكرة لأبو كاطع وعدد من الاخوان ان يستأجروها منه ويحولها الى مجلة ادبية استقطبت عدداً من الاقلام المعروفة عام ١٩٦١ ، اذ ضمت الى اسرتها، سعدي يوسف ومظفر النواب ورشدي العامل ويوسف العاني وصالح سلمان وحافظ القباني وسعدي محمد صالح ويوسف جرجيس حمد وكاتب هذه اسطور، ككاتب منتظمين في المجلة الاسبوعية التي كان لولبها شمران الياسري (أبو كاطع) وكانت حصة سعدي ومظفر النواب في هذه المجلة، اضافة الى مساهماتهما الادبية، هو تحرير النقد السينمائي مساء كل اربعاء، وهو يوم تبديل الافلام اسبوعياً، في حين كانت المجلة تصدر صباح الخميس.

وما ان مر اسبوعان حتى "علق" سعدي، ولحق به مظفر، والقيا على رؤية فلمين في ليلة واحدة، في

الدور الأول والثاني، والسهر الى الساعة الثانية او الثالثة لكتابة النقد السينمائي، ثم الخط والاخراج وصفحة المرفأ. في حين كان سعدي يسهر في جمعية الخريجين او اتحاد الادباء. وعندما التقيته في اليوم التالي، يذيب العتاب الحاد ويبدد الغضب بقهقهته المألوفة "ها ها ها".

الطفل الوديع

وفي عام ١٩٦١ جاء سعدي من البصرة، ونزل في فندق بائس قرب ساحة التحرير. وكان عندي يومذاك مكتب في شارع السعدون "مكتب صكار للدعاية والصحافة"، قلت له: لماذا تنزل في هذا الفندق، وتدفع ربع دينار كل ليلة؟ تعال الى مكتبي ونم فيه، ففيه غرفة مؤثثة احسن من الفندق. وكان من تقاليدي الا اتناول اي مشروب، ولا الهو في مقر عملي. فجاء سعدي واقام في المكتب مدة. وكان يغادره في الصباح، ولا يعود اليه الا في الليل، عندما اذهب الى بيتي. واعود في الصباح فأراه نائماً كطفل وديع فلا اوقظه.

وبعد اربع سنوات اخبرني رشدي ان سعدي كان يدعوه هو وجيان الى مكتبي، فيسهرون ويسكرون ويعبثون، وعندما يقترب الفجر يطردهم سعدي على عجل، يمضي في كنس الارض وترتيب الاثاث، ويركن الى فراشه.

وهو ما اشرت اليه في قصيدتي التي داعبت بها صديقنا الحبيب رشدي العامل، ومنها:

يامن تحل بمكتبي الحرمات حين يتاح سطو

هلا استحيت وانت تدلف مثلما ينسل جرو

للمكتب المهيوب تهتك ستره والليل خلو

قسماً بانك كنت قائدهم، وان العذر لغو

اما الزبانية الالى تبعوك حيث يتاح لهو

فهمو كشانك، ملح هذي الارض، مهما جار هجو

البصرة، المرفأ الاخير

في مساء يوم ٨ شباط ١٩٦٣ جاءني سعدي يوسف برفقة رفيق آخر، مبعوثين من قبل الشهيد عدنان البراك، ليختفيا عندي في المشتمل الذي استأجرته في ساحة الحرية. كنت جديداً على المنطقة، ولم يكن يعرفني فيها احد سوى الصديق عبد الله حبة، وكنا قليلاً ما نلتقي.

قضينا ليلتين مذهولين مشدودين الى الراديو، منتقلين من اذاعة الى اخرى. وما ان رفع منع التجول حتى تركنا صديقنا في البيت ونزلنا، سعدي وانا، الى ساحة التحرير لنرى ما يجري، ولأسحب

رصيدي في البنك العربي، وقدره ستة دنانير وكم فلس، لاقوم بأمور الضيافة. كان البنك مغلقاً. والشارع متوتراً. عدنا ادراجنا الى البيت بـ "تاكسي نفرات" ونزلنا في ابو قلام لنشتري ما نحتاج اليه من خضار وما شاكل. اختار سعدي رأسين من اللهانة (الملفوف) واضافهما الى المسواق، وقد استغربت من حرصه على وجود اللهانة، ولكنني لم أسأله. عندما حان وقت الغذاء انصرف سعدي يعاون امي في اعداد الزلاطة باللهانة بدل الخس! وكانت تلك هي المرة الاولى التي اتناول فيها زلاطة باللهانة. وقد تعودنا عليها طيلة وجود سعدي معنا.

مر اسبوعان من اغرب وافجع وأمر ما صادفنا في حياتنا. كانت الاعدامات تتوالى، والوجوه الحبيبة تختفي واحد اثر آخر، ولا أمل ولا اشارة الى انفراج. وكانت ايامنا تمضي خانقة متوترة، نقضيها بالرياضية البسيطة والشطرنج والدومنة، وبعض القرارات العابرة، والتحليل والتصور والترقب. واستعادة مآثر الشهداء.

فجأة، وون مقدمات، انبأنا سعدي قراره الحاسم في العودة الى البصرة فوراً، وبالطائرة! بذلنا ما وسعنا لنثنيه عن عزمه هذا فلم نفلح. في صباح اليوم التالي ودعنا، ونحن لا نفهم معنى قراره المفاجئ، وكان خوفنا عليه لا يقهر. وانقطعت اخباره.

* *

وبعد، فهذه بعض الذكريات الشخصية الحميمة للسنوات التسع الاولى مع سعدي يوسف، وقد رأيت ان ابقى في حدودها، تاركاً لاصدقائه الكثار ان يتولوا الجوانب الابداعية والحياتية الاخرى له، وما اكثرها واهمها، اما ذكريات الثلاثين سنة اللاحقة، فسأعدها لتنشر في عيد ميلاده السبعين.

فإلى عمر مديد، وإبداع متوهج، أيها العزيز سعدي.

في ستينية سعدي يوسف

سعدي يوسف : الطريق الى الفن اطول من حياة!

مهدي محمد علي

[الى شاعري واستاذي وصديقي]

لست انسى ذلك الخريف.. خريف عام ١٩٦١، يوم سلمت اولى قصائدي (لا اولى محاولاتي الشعرية) الى استاذي في اللغة العربية، ذلك العام، بل الى شاعري الاكبر قبل ذلك باعوام.. الى (سعدي يوسف).. سلمتها اليه باعتباره -بيني وبين نفسي- شاعري اولا، ثم استاذي، وتسلمها هو مني، باعتباري تلميذه حسب.. ومكثت اياما عدة، انتظر جوابه، وانا في بداية السنة الثالثة المتوسطة.

(منذ سنوات، قبل ذلك التاريخ، وانا اكتب الشعر، وخلال سنة من تلك السنوات، تأرجحت - وعذبني ذلك التأرجح- بين القصيدة والقصة القصيرة، ثم حسم الامر في روحي لصالح الشعر.. كل ذلك لم يكن يعرفه غيري، سوى صديقين او ثلاثة، لا اكثر.. لا اهلي يعرفون، ولا اساتذتي في اللغة العربية. انهم يعرفونني مميزا في درس الانشاء، حتى ان احدهم، ومن خلال موضوع انشائي، تنبأ لي، امام طلاب الصف، بانني سأكون يوما مثل الجواهري!!.. حتى هذا الاطراء لم يكسر عزلتي الاختيارية، ولم يغرني بالكشف عن سري، لذلك الاستاذ المعجب بسطوري النثرية عن (برعم يتفتح عند الفجر)

موضوع الانشاء الذي كتبته في الصف اثناء ما تبقى من حصة الرياضة، ولم اعكر سري بارسال اي نص الى اي صحيفة او مجلة).

لم يطل انتظاري كثيرا، ولكن شاعري واستاذي (سعدي يوسف) الذي كان يجمعنا به درس العربية كل يوم، لم يعد لي القصيدة، كما انه لم يتفوه معي بكلمة حول الموضوع، في حين كنت اغلي بصمت الانتظار، مرتبك الساعات والايام.. وكلما مر يوم ازددت اضطرابا، فاعود الى نسختي الخاصة من تلك القصيدة، علها تسعفني بجواب، حتى صرت لا اطيق عودا اليها.. وما هي الا ايام خمسة طوال(!!) حين رأيت قصيدتي منشورة -بعد تشذيب شاعري واستاذي- في الصفحة الثقافية لجريدة (صوت الاحرار) البغدادية!

اذن، اجابني شاعري بنشر القصيدة، بسرعة قياسية، واكتفى في اليوم التالي، حين التقيته صدفة في مكتبة المدرسة، بالقول: "شفت قصيدتك، مهدي؟!" وكان جوابي: "نعم استاذ.. شكراً". وتسلمت الكتاب المستعار ، ومضيت مثل طائر، جناحاي! نشر القصيدة، وسؤال شاعري واستاذي عن رؤيتي لها!

افرحني، وقتها، انني لم اكن تلميذا تقليديا، وان شاعري لم يكن استاذ لغة تقليديا، بل كان شاعرا حقا. ان هذا يعني ان صبري على "سري" كل تلك السنوات لم يكن خسارة، بل انه اوصلني الى الحالة التي طالما حلمت بها، وان حلمي قد تحقق بواقعية هي اشد رهافة من الحلم!

* * *

بيني -الآن- وبين ذلك التاريخ ما يزيد على الثلاثين سنة، جرى خلالها ما جرى.. لكنني ظللت اتابع شعري وشاعري، وسلالة الهم الجميل!

... المهم هنا، هو اللقاء الجديد بيني وبين شاعري، بعد هذه الرحلة التي يطول وصفها ويضنني.. اللقاء الجديد حدث بعد (قصائد باريس، شجر ايثاكا) هذه المجموعة الشعرية التي اعادتني الى تلك الايام، ولكن بامتياز جديد، والتي رأيت فيها سجلا لتجربة سعدي يوسف .. سجلا لجوهر تلك التجربة، وجوهر الشعر كما عاناه شاعرنا، ويعانيه.. وللحكمة التي بلغها.

.. وكان اللقاء سهرة عجيبة الجمال، جمعت تلميذ الامس الذي سمى نفسه شاعرا، بشاعره الاستاذ الذي غدا حكيما في الشعر الى درجة استشعار الخطر:

"ثم ماذا؟! الى اين نريد الوصول؟! القصيدة مخاطرة!؟"

هكذا ردد سعدي يوسف، تلك السهرة.

وكرر ذلك اكثر من مرة، وبأكثر من عبارة، في ذلك الربيع!

.. قد يسألني سائل هنا: كيف تتسق الحكمة التي هي "استقرار" مع الخطورة التي هي "اهتزاز"؟!

* * *

قلت، معتزا ومبتهجا بمجموعة (قصائد باريس، شجر ايثاكا): "ان هذا الديوان يمثل جوهر شعرك

ومساراته، انه يستعيد كل شئ بامتياز، يخلق جديدا يضفي على الجذور البعيدة اصالة تتمناها، والجديد الذي فيه انما هو من طبيعة الشعر.. فقصيدة (الديك) مثلا.. اعني اولى قصائد المجموعة، والتي حملت عنوان (واقعية)..هذه القصيدة لا يرى فيها الكثير من القراء وغير القليل من الشعراء، سوى "نزوة" ابداعية، ولكنني رأيتها ورأيتك، بل اضاءت لي قصائد اخرى، بل اضاءت تجربة عمر شعري كامل، وسجلت اشارات. هل هي لي بأن اسمعها منك الآن يا (ابو حيدر)؟! ام انك مثلي لا تحفظ شعرك؟!

- لا والله.. كنت احفظه، اما مؤخرا فيصعب علي التذكر.. سأحاول..

.. وجاء صوته الدافئ:

وهذا الديك

من ذهب وشذر

يطير

على البناية

وهو يمضي الى برج الكنيسة،

اي نجم

اتى بالديك

اي ندى مصفى

(وانقطع الشعاع.. ثم تتابع الالقاء):

ترقرق في بهاء الريش؟

طلقا

يطير الديك،

|

ابعد من سواري بناتنا

وابعد من نحاس

على برج الكنيسة،

|

اي ديك!؟

وعلى كل حال فان "الديك" كان راسخ العرف في نفسي، لانه (ديك الشعر). واعتقد انه يصبح

لي هنا ان اقول: اننا -معشر الشعراء- رغم انسحارنا بأشياء نراها او نسمعها، فان انسحارنا المتفرد هو في الخلق الذي نزجيه، حين نرتب الرؤية والرؤيا، والسمع والهاجس... وبدون ذلك لا نعود شعراءا

قال سعدي بلهجة دهشته المحببة: يا اخي! كل جملة شعرية هي عمر.. عمر كامل.. ان الحكم على الشعر، على القصيدة، امر خطير، مثلما الشعر خطير.. ان لكل كلمة، او جملة، او بيت تاريخا له وزن السنوات!

* * *

... ويستطرد سعدي في القول:

"ان الشاعر يظل دوما يضع الاشتراطات على نفسه، على صنعته الشعرية. ان اي حل لاي اشكال لديه، لا ينهي المشكلة، ولا ينشر السلام، فهو سرعان ما يتوق الى تجليات اخرى، ويدفعه التوق الى وضع اشتراطات جديدة..

.. الوزن لم يعد مشكلة.. الموسيقى بكل انواعها، لم تعد مشكلة.. حيثيات عديدة، لم تعد مشكلة.. غير ان هذا لا يدعو الى الاطمئنان، قدر ما يفتح ابوابا جديدة من القلق، وآفاقا عديدة من التوق، رغم اوهام الاكتمال المرئي"!

هنا.. علي ان اضيف من كلام الشاعر شيئا مما ورد في مجلته (ادب ونقد -العدد ٧٨/ شباط ١٩٩٢) انه يقول:

" نعم ما زلت اواصل اكتشافاتي وبمتعة ، الآن - وربما بدأ منذ عامين تقريبا - صرت اشدد شروطي في الكتابة. اضع شروطا اصعب مثلا، استغنيت كاملا عن استخدام المصدر والصفة -الا نادرا- ونعت المضاف والتشبيه.. اقول: هذه ليست شروطا تنزلت علي من السماء، ولكنها جاءت تبعا لتجربتي وقراءاتي، ومن خصائص عملي الفني. استغنيت ايضا عن اداة التشبيه، اقول "انت الحرير" كمبتدأ وخبر، ولا اضع نفسي في كسل التشبيه باستعمال الاداة، ينبغي ايجاد علاقات جديدة بين ما تكتب عنه، وهذا يتطلب مجهودا".

وفي موضع آخر يسطع قائلا:

"انا ارى انني شاعر مكثر، اكتب كثيرا، ديوان كل عام تقريبا منذ صدور (خذ وردة الثلج، خذ القيروانة).ثانيا، لا ارى انني شاعر كبير، بالعكس، اشعر انني دائما في حالة خطر، خطر ان اكتب مجموعة نصوص رديئة مثلا. انا يا اخي أخاف من القصيدة، واعتقد ان كل شاعر- صغير او عظيم- قد لا ينجز في حياته إلا بين عشر الى عشرين قصيدة، يمكن ان تدخل ملكوت الفن".

هنا..

هنا.. يروق لي ان اقول لنا وله، انه شاعر كبير، ودليلي اسوقه من بعض ما قاله حين تسلمه جائزة (العويس):

"انك، في العملية الابداعية، ستجدك ازاء احتكامات تطبيقية خطيرة، تدفع بك في قوة طاردة عجيبة، خارج المتداول السائد، مثلا: ما دامت الاشياء مادتك الخام، وما دامت اللغة رموزا للاشياء، وليست الاشياء، فماذا انت صانع باللغة؟

ومثلا: ان كان الفعل والاسم الجامد هما الاقرب الى توصيف المادة الخام، فماذا انت صانع بالمصدر والمشتق؟

ومثلا: ان كنت رأيت اخلاقية العملية الفنية متلازمة ومادتها الاولى، الاولية، وهي في ما توافر لديك: اللغة في لحظتها الاولى، فماذا انت صانع بالذاكرة؟

ابمقدورك ان تقدم الكأس هكذا، حرة، بين يديك... بينما الذاكرة مكتظة بالكؤوس: سقراط، الخيام، ام كلثوم؟

ومثلا: ان كان الشعر اعادة نظر في العالم ونقدا، وما دامت الصورة وسيلة في اعادة النظر، وفي النقد، فأي مكان يظل للفكرة؟!

بمعنى، هل الفكرة تسبق العملية الابداعية ام تتلوها؟ هل الشاعر هو الذي يتوصل الى الفكرة ام القارئ؟"

يهمني هنا ان اشيد بالتساؤل الاخير، ووحده، يمكن ان يكون ورقة رهاني على ان شاعرنا سعدي يوسف هو شاعر كبير حقا!

ولنمض مع شاعرنا وهو يتابع:

"اسئلة كهذه، لن تجد جوابها الا في التطبيق، اي في الكتابة، والا بعد زمن يمر، وسعي يتراكم، وستظل هكذا، ما دام الطريق الى الفن اطول من حياة. على الطاولة امامي. اربعة. وعلي ان العب للاشياء الاربعة نظامها المعروف المألوف. تنسى الورقة. تشكل اللفافة بعود كبريت. تدخن، ثم تضع اللفافة المتقدة في المنفضة، وهكذا نفعل كل يوم. لكن علي ان العب، ان اغير النظام المعروف المألوف، ان تكون قصيدتي مخالفة، مختلفة. وفي الوقت نفسه، علي ان احتفظ بمفاتيح لي وللقارئ. مفاتيحي هي الاشياء. هكذا سأخرج اللفافة من علبتها، واشعلها بعود كبريت. لكنني لن اضعها وهي متقدة في المنفضة. سادخل الورقة في المشهد. اضع اللفافة المتقدة على الورقة، واترك الاشياء تتفاعل، خارج السياق المألوف، اتركها تتفاعل في كيمياء الشعر".

...أخيرا، ليس لي الا ان اشير الى ان اقوالا وردت في المقتبس الاخير من كلام شاعرنا... انما تشير الى قول شاعر كبير:

[الطريق الى الفن اطول من حياة!

سادخل الورقة في المشهد!

اضع اللفافة المتقدة على الورقة!

اترك الاشياء تتفاعل خارج السياق المالوف!

اتركها تتفاعل في كيمياء الشعر!]

وطوبى لك يا شاعري واستاذي، وصديقي، ثم شاعري وشاعرنا!

طوبى لك ستين الربيع!

- - - - -

فنجان سعدي يوسف!

فنجان ١ من قصيدة بعنوان (ثلاثة فناجين)

مهدي محمد علي

من اليسار قرات:

كان راس سعدي يوسف

طالعا من بحر القهوة المتجمد

مثل تمثال من رخام هائل

بعده، وعلى الجرف

جلست فتاة بيضاء

شعرها الفاحم

يكشف عن عنق طويل،

خلفها امراة ظلماء

بعدها رجل يرحب

او يستغيث!

يتدلى نحوه شئ من قمة قريبة

بعدها ملكة على صخرة

متكاها ريح عمودية

بعدها فورة..

ثم تخفت

بعدها فورة عالية!

فنعود الى البدء:

فإذا صدغ سعدي الايمن

هو وجه اخيل جانبا

زرعت عليه لحية اديسيوس

يزم شفتيه اللتين

نفثتا -قبل لحظة-

دخانا لا يمضي

حاجب سعدي الايمن

بدا قلنسوة حربية لاخيل

وعينه اليمنى

هي اليسرى في وجه اخيل الجانبي

بها ينظر سعدي الينا

فيما ينظر بها اخيل

نحو الفورة العالية!

حلب

٩٣/٨/١١

في ستينية سعدي يوسف

سعدي وشرفته الاغريقية

هاشم شفيق

الحديث عن سعدي يوسف الشاعر والانسان والرحالة الذي ليس له من مستقر، له مسارب ومنافذ عدة، خصوصا اذا كان المتحدث مثلي، ايام سال فيها الشعر والخمر والكلمات، ونبتت للحكايات فيها براعم اورقت بفعل تراكم الايام حتى غدت اجمة كثيفة، حيث يتبدى وصف هذه الاجمة المتشابكة الاغصن والأوراق بحاجة الى حيز اوسع من هذه العجالة.

بدأت رحلتي مع سعدي يوسف منذ بداياتي الاولى مع الشعر، هذا الشعر الذي اخلص له سعدي وكرس له جهده الروحي وخياله.. وقد تكون هذه الخاصية العماد الارأس في توطيد هذه العلاقة.. علاقة امتدت لعشرين عاما، شاءت المصادفات ان اكون قريبا منه باستمرار.. ففي بغداد كنا نسكن في منطقة واحدة، وكنت ازوره في بيته الجميل.. اقرأ له جديدي ونتذاكر في الشعر، وكنا احيانا نرتاد الحانات الرخيصة الضاجة بالادباء والفنانين اليساريين المطاردين من السلطة ورجال مخابراتها في بغداد الواسعة.

كان سعدي في تلك الفترة في اوج صعوده الابداعي.. ان انطلاقة سعدي الحقيقية تبدأ في رأيي من "نهايات الشمال الافريقي"، وهي مجموعته الشعرية السادسة.. ربما لاننا نحن الشباب عهدئذ، كنا نجد فيها انفتاحا على المهارات الفنية الجديدة في الشعر الحديث.. كانت قصائد سعدي في ذلك الوقت تشغل مساحة تلك الفترة، اي انها كانت انيسا دافئا للجيل الذي كان يتناثر بين مقاهي بغداد وحاناتها ودور السينما وقاعات المسارح، وكانت قصائد سعدي حاضرة على نحو دائم لدى هؤلاء من الصفوة الثقافية الجديدة، واعني هنا جيلا محدودا كان منبوذا من السلطات القائمة، فقيرا ومعوزا ولا يمتلك حتى ثمن فنجاي الشاي في المقهى التي يجلس فيها، غير ان هذه الصفوة، وهي صفوة نشأت في خط

اليسار العراقي، كانت مفتونة بالشعر والفن والرسم والقصة والمسرح، وكان سعدي يتحرك ضمن هذه المجموعةالموزعة بين اتحاد الادباء وبار (جبهة النهر)، حانة البحرين، غاردينيا، مصايف لبنان المقابل لمكان عمله في التراث الشعبي في منطقة الكرادة، مشرب النصر المجاور لجريدة طريق الشعب. وبمناسبة ذكرى طريق الشعب، فان سعدي كان يقضي معظم عصاريه مشتغلا في الصفحة الثقافية للجريدة، وكان له د ور كبير في انشاء الصفحة المختصة بالادباء الشباب.

وفضلا عن ذلك كان المنشط الفعال للصفحة الثقافية التي شهدت ولادة اولى كلماتنا.

ان تلك المرحلة في اعتقادي كانت صعبة وخطرة، من جهة التكوين الشعري لفتى في العشرين.. اذ كانت تسود في تلك المرحلة الثقافية ذاتها، الانساق الذهنية والغيبية والتغريبية في الشعر، باستثناء اعلامها البارزين السياب وبلند الحيدري وعبد الوهاب البياتي.. وكانت تنطوي على اغراء جلي قد يحمل فتى العشرين وهو لم يزل في بداية السبيل الى منفذ مسدود قد يقضي بالموات على البذرة الشعرية التي بذرت فيه.. في هذا السياق كانت لسعدي يوسف الوجهة الأخرى والمغايرة التي رسخت ووسعت وانضجت تقاليد الشعر العراقي، مما ساعده من خلال موهبته وسعة اطلاعها ودربتها وتثقيفها الدائم على توجيه البذرة الشعرية الى الطريق الصحيحة، طريق ان تتفتح وسط الماء والظل والهواء.. وان ترى وتبصر وتحدق بالمناخ الذي يحيط بها.. ولكي لا اسهب وابتعد كثيرا، لاني لست بمعرض تقويم ونقد شعر سعدي الذي يحتاج لاكثر من مبحث ودراسة من دارس حصيف، فاني في هذا المقام، اتحدث عن سعدي الشاعر..سعدي المأخوذ بالمعرفة والحياة، يغتذي منهما ليقول قصيدته الخاصة.. فقصيدة نسيج نفسها.. وهنا ادين للذاكرة بشئ، او للذكرى بالتذكر. مرة نشر سعدي قصيدة في طريق الشعب، في منتصف السبعين ات، فسقط اسمه سهوا عنها. كنت وقتئذ في البصرة. جالسا في مقهى "الدكة" والجريدة كانت في يدي..قرأت القصيدة وقلت للاصدقاء الموجودين في ا لمقهى انها لسعدي يوسف.

كان عنوان القصيدة "هواجس " وفيها يقول سعدي:

"احيانا اصغي في الليل الى نفسي

احصي الطلقات المكتومة

وخطوط الهجس واسال عن حرسي"

هذا هو الشاعر الاصيل.. ان تتعرف عليه من خلال كلماته لا من خلال اسمه.. هذا هو سعدي، الذي لم ينقطع عن المعرفة وتحويل كل شئ يبصره او يتلمسه او يهجسه الى شعر، صاف وشفيف، عذب ورائق.

ففي شعره تجد اسماء اعلام ومدن واماكن سبرها بمسبار دقيق وماهر.. اقام في حواضر عدة محاورا فيها اماكنها ومواضعها واشجارها وطرقاتها..ناسها ومقاهيها وحاناتها.. متتبعا كل نأمة تنبض في هذه

المدن، ومن هنا تأتي الحيوية لقصيدته والتجدد والنمو الدائمان اللذان يسمان نسغ قصيدته الطرية ويعطيانها ضوءا فريدا يجري في بنيتها الكلية.

قلت انه اقام في حواضر عربية واجنبية عدة، غير انه لم يستقر في حاضرة.. كمثال لم اجد في البيوت التي سكنها، ما خلا بيته في بغداد، مكتبة تعج بالكتب الادبية والثقافية.. كان دائما لديه عينات قليلة.. ربما طغت الاجنبية على هذه العينات.

بسبب هذا التنقل، لم اجد سعدي في يوم ما حافلا بالاقتناء والتملك وحب الاحتياز للحاجيات.. كان حافلا بالشعر وحده، كما انه كان يستشعر خطر السفر، غير عابئ بالتضحيات التي سيولها من اجل هذه اللحظة. وهنا يدخل بيت المتنبي عنوة على الموضوع "على قلق كأن الريح تحتي".. قلق سعدي هو قلق المبدع الخلاق، ينضاف اليه قلق الاغتراب عن زرقة سماواته الاولى.

قبل عامين ونصف اتصلت بسعدي، لكيما اخبره باني قادم الى باريس لغرض المشاركة في اعمال الملتقى الشعري المقام في فرنسا، ومن خلل اسلاك البرق، كان صوت سعدي يأتي مترقرقا ومتموجا بفرح مفاجئ.. كان ثملا وفرحا بشيئ ما.. غير انه كان مغتما من تلك الاقامة البارسية، وبدا انه ينشد ارتحالا، حسبما تبينت من قصيدته "تنويع" التي قرأها علي عبر الهاتف:

"الخيل غربت النواصي نحو ارض الشام

حناء على ذهب

وماء في الترائب

يا تراب الشام

كم ضيعت!

لكن النواصي غربت

والخيل تنتهب الليالي نحو ارض الشام"

حين اكمل سعدي قصيدته شممت فيها رائحة مبيتة الرحيل، وقلت له ذلك، فانفتحت شهيته للحديث عن مدائن الشرق وعن كآبة هذه المدن الرمادية التي نقيم فيها.. اقام سعدي في دمشق وصار في متناوله البحر والشمس وبعض الهناءات القديمة، وصار قاب قوسين من صخور المواطن الاولى. لكن المفاجئ في الامر قصيدة سعدي الجديدة التي نشرتها مجلة "اللحظة الشعرية" وفيها يعلن سأمه.. من اقامته الجديدة حيث يقول:

"سوف تسأم زاوية الشام ايضا

ونبتها وهي تذبل خلف الزجاج".

هل اقول لسعدي وهو السباق لعشق تلك الارباض البهية، ان يدخر لنا شيئا من جمالياتها وينعم

بشمسها اللدنة ومائها الشفاف وهوائها الحريري. وما قصيدته "خان ايوب" وغيرها الا دليل بائن لمحبة هذه الامكنة.

ان شريط ذكرياتي مع سعدي يمتد الى بيروت واياميها الطوال كالسنديان... ايام الحصار الذي تقاسمناه معا .. والى قبرص حيث كان جاري هنالك، بين الجبل والبحر والاوزو الاغريقي البراق، وحيث هناك دائما "مائدة مهيأة للبحر".

ماذا عساني ان اقدم لسعدي يوسف ونحن نحتفي ببلوغه الستين، رغم اني لا اصدق شيخوخته.. ماذا عساني ان اقدم له، غير الشيء الذي احبه.. غير الشعر.

هنا قصيدة عن شرفة بيته في قبرص، كتبت القصيدة بتاريخ ١٩٩١/١٢/٢٠ ونشرت في جريدة الحياة في ١٩٩٣/١٢/١٠ .

شرفة سعدي :

شرفة سعدي

كانت تكتظ بانبتة

يورق فيها البحر

ويشتط الايراق

الى آخر نبت

في الافريز،

ورود لسان الثور

تدلت في آجر يوناني

بوقيات ذات شفاه

فطر بقلانس بيضاء

سرو مبروم بالمرجان

وريحان ناحل

شرفة سعدي

كانت تكتظ بانبذة

وجبال ذي اشراق بحري،

بطيور متسمة بالاطواق
ومتشحة برياح ذهبية.
شرفة سعدي
كانت تهفو
للقمر الصيفي البائت
في سعفات النخل
لرائحة القلين الطافية
على ضفة العشار
تعاشيب على المرساة
وابيات قوراء مفتحة
لهواء منخول ياتي
من لغة نهرية.

شعر

القمر وعشتار

صلاح نيازي

- ١ -

بالضبط ليلة امس

لمّا كان القمر مصقولاً وبياضه متخدراً

وحوله دارة وثيرة،

من الذي يزورك هذه الليلة ايّها القمر (١)؟

رايته من قبل بهذه الصورة الناعمة عشرات المرّات

وكيف تلد الارانب فراخاً (٢)بآذان طويلة منتصبة

وكيف تختلط اغاني العشاق باطراف المدينة، باصوات الطيور المهاجرة

إلاّ ليلة امسِ.

اكتسى بهاجس

على وشك، شيء ما على وشك الوقوع

خفتُ من جلاله الصامت، وسحره لايُقاوم

- الأشياء الصامتة مثيرة ومرعبة في آن واحد -

تشرّبته بقلق لذيذ، مثل صبي يمارس الخطيئة لأول مرة

بالثمل فقط ينتشر الجسد، وبالنشوة يصعد

تنبت فيه لغى الطير، واجنحتها لاحصر لها

كالريح ينتشر، كالغيم ينتشر.

عشرات المرات رايته كذلك وتملكتني رهبة صاكّة

إلاّ ليلة امسِ، انخطفته حقاً وهواجس العقل الباطن مربكة

شيء ما، تدركه الحواس ولا تدركه على وشك الوقوع

بابهى هالة يتحرك بلا حركة، وبياضه واجم

انتشر على الفرات من الضفة إلى الضفة

عناصر الطبيعة تتوحد، في لوحة واحدة

حتى الجماد حلّت به روح غريبة، فراح يتنفس

الكل يهمهم من اقصى الروح

ويكتمل الكورس بلغة كونية واحدة

الطبيعة معبدٌ على مدى البصر

النجوم سقفه، وجدرانه الغابات

هكذا ببساطة، حين تبلغ الأشياء اقصى نشوتها

تبدا المأساة. والفرح لاينتهي بالفرح دائماً.

بلغت الطبيعة اقصى قدسيتها واصبحت معبداً على مدى البصر

هنا يغترب الانسان عن نفسه، ويصبح شبحاً يجوس، مجرد شبح

واجزاؤه تنزع عنها الدنيوية: زمناً وهيولى.

بالضبط ليلة أمس

قررتُ الرحيل للمرة العشرين من شدّة التلوّع والياس

قلتها لعشتار وجها لوجه، ولم ارتجف

صمتتْ كانها متيقنة من ضعفي، كما في كلّ مرة

ـ بالغريزة تعرف المراة الرجل

كلمّا ازداد قوة، ازداد ضعفاً ـ

في كل مرّة انقض قراري واعود كما كنتُ، حتى اقلّ حجماً كحيوان منهور

ـ الانسان المستهان يبدو صغيراً ولو كان بطول نخلة ـ

انظر إلى المدينة نائمة فياخذني الندم

لماذا تثير المدن النائمة الشفقة؟

إلاّ هذه المرّة قررت الرحيل بكل جارحة

المدن النائمة لاتثير الشفقة، قلتها كاني اخاطب شخصاً آخر

الإرادة الضعيفة تخلق اجمل المعاذير. هذا كل ما في الأمر.

كنتُ راقداً اول الامر على الشاطئ الرملي

اصوات صغيرة تتشبث بالشاطئ الرملي

اذكر تماماً كيف وضعت قدمي في الماء بسجية سكران

وكيف صعدت النشوة إلى جلدة راسي

تشربت القمر، وناغيت النجوم بتهجد

نمتُ وفي جسدي الطبيعة برمتها

بكل لغى طيورها، واجنحتها لاحصر لها

كان جسدي يطفو على رؤوس الأشجار والمعابد

ويعوم في مجاهل لم ارها من قبل ويجوس كشبح

هل كانت ليلة امس؟ ام انها وعثاء سنين طويلة؟

بالضبط ليلة أمس قررت الرحيل النهائي بشق النفس

كمريض اقتنع على كل مافي الدنيا من مضض

لم يترك له الطبيب خياراً آخر

سوى بتر جزء من كيانه

لم اندم قطّ (ندمتُ لِمَ اكذب؟)

اغرتني المدينة بشتّى انواع الشفقة

وعشتار بجسدها الاقحواني اللّيّن ملء ناظريّ

بيني وبين العودة التفاتة صغيرة

لم التفت قطُّ وتصلبت رقبتي هذه المرّة

(التفتُّ كمدمن يقلع عن عادة فتمتلئ يده بالارتجاف)

ما من رجعة، قلتُ، ولو قابلني طوفان

لم اضعف هذه المرّة (هو ذا المدمن على وشك السقوط ثانية)

مجرد التفاتة، نصف التفاتة ورقبتي متصلبة

نصف التفاتة ورقبتي تزداد تصلباً

المدمن يتحدى ضعفه ويلتفت بكامل راسه

ركضت المدينة بكليتها إليّ تعانقنا من جديد

وفي البوابة عشتار تنتظر

يدها على ضفيرتها، وتتظاهر باللااكتراث

مررتُ قربها، فاصيب جسدي بالحمّى

انجذبنا وكدنا نلتصق

في العشق السرّي تتلامس الاجساد حتى على بعد امتار

وترتجف الملابس

بالضبط ليلة امس؟ استيقظت فزعاً متنملاً

لم انم إلاّ ليلة واحدة، وكنت احلم بعشتار تنتظرني كعادتها

نتلامس على بعد امتار ولو كنّا في حشد

هل كانت ليلة امس؟ أو وعثاء سنين طويلة؟

- اينما حللتُ، كهفي معي، و"كلبي باسط ذراعيه" -

ماالذي حدث؟ لايمكن ياربّ؟ اتلفت واصرخ لايمكن

مدينة بكاملها تمحى بكل كهنتها وعسكرييها

بكل اسرّتها وادوات طبخها، وعسسها وقواديها

بكل مرابيها واسواقها وآلاتها الموسيقية
أين الفرات ايتها الطيور المهاجرة؟
ليتني كنت احلم

- ٢ -

" قررت عشتار ان تنذر نفسها بغياً للمعبد"
بالضبط ليلة امس
وقفتُ امام عشتار، وفي صدري شتّى التلف
أرتجفت اول الأمر، وظلت تلعب بضفيرتها
- هذه عادتها في الإغراء وتغمض عينيها كانها تتوقع قبلة.
سرعان ما توحش ضعفي المخذول
اتخذ صيغة حيوان جريح
قلتُ لها وجهاً لوجهٍ، ولم أطرف هذه المرّة
فلتذهبي يا بغي إلى المعبد، وليضاجعك كل راعٍ
ما انت إلاّ نعجة منذورة وصوفك معثوث
آلهتك زناة، وكهنتك خراطيم خنازير
يبيعون المراة باوقية شعير
حين الغضب يصغر وجهها، ويحلو كالمهد
استحيل إلى طفل ونتشابق بحدّة
نموع كالشمع على حوافي الشمعة ونلتهب
لم التفت هذه المرّة، وتصلّبت رقبتي
حقاً مشيت بترنح، كان امامي اقوى العواصف
لابدّ من الرحيل، حتى لو كان جبلاً اتسلقه بلا انحناء!
هددها عشرين مرّة ولم تصدّق
صمتت لانها متيقنة من ضعفه الهشّ
لعبت بضفيرتها، واغمضت عينيها كطفلة تعنّف ولاتعرف اللغة

كلّما ازداد الرجل قوة ازداد ضعفاً

وفي المرّة العشرين، انتحر ابراهيم زاير

ولم تصدق، عاطت وخمشت خديها ولم تصدق

كان القمر مصقولاً وبياضه متخدراً

وحوله دارة وثيرة، دارتان

من الذي يزورك هذه الليلة ايها القمر؟

جسد ملفّع يطفو على رؤوس الأشجار والمعابد

اختطفته غيمة بيضاء وحجبت الدارة.

من يزورك هذه الليلة يا قمر؟ هذه الليلة.

في النهار تنفصل الموجودات.

الشجرة شجرة، والنهر نهر، والطريق طريق،

لكلٍّ اسم وهوية، والجبل جبل،

إلاّ في الليل تتنافذ فيما بينها إلى مالانهاية

حتى الجماد تعلو وتهبط فيه روح غريبة فيتنفس

ويصبح الإنسان بحجم الأفق والسماء.

ندمتُ للمرّة العشرين، ليتني لم أرحل

التفتُّ التفاتةً كاملة، بكل ما في أمواج البحر من اندفاع

كانت المدينة تطفو على رؤوس الأشجار

مدينة بكاملها تختفي

وانقطعت آخر أصوات العشاق والكلاب في أطراف المدينة

لم اصدّق عشتار اوّل الامر، وسخن خداي

وللتورمو في اذني دويٌّ كامد

أيُّ معبد يا عشتار؟ قلت بصوت مشروخ، ومَن نذرك بغياً؟

لاتكوني صورة خلاعية في المحلاّت العامة

لاتكوني شمعة بلافتيل

لاتكوني مومياء تمارس الحياة بالموت

لاتجعلي بستانك علفاً للثيران الهائجة

لاتجعلي حلمتك عقب سيجارة

آلهتك زناة، وكهنتك خراطيم خنازير

يبيعون عذوقك ولو كانت اكسيراً باوقية

جسدك حقلي الذي زرعته نبتةً نبتةً / هذه جغرافيتي

اكلت منه اشهى الاطايب، وشربت منه الدِّماء / هذه عافيتي

اعرف مواطن الندى والتاوه، واسراره مختلفة / هذا كتابي

رسمته بصفرة التعبّد،

وحركته بالأنفاس / هذا معبدي

اغترب فيك اغتراباً ابديّاً، وبين اترابي ذاهل

تاوهاتك ملء اذني

استعيدها فلا اقوى على الانتظار فآتيك بلا موعد

نتحدث كلمات خاصة بين الاتراب، فتحترّ وجوهنا

نتلامس على بعد امتار وترتجف ملابسنا

نفتش عن التنفس بشق النفس

ايُّ معبدٍ يا عشتار يا ابنة ملوك السماء والصواعق والفياضانات

من نذرك بغيّاً؟ وجعلك باباً مكسوراً "لايصدُّ الريح ولا العاصفة" (٣)؟

الصقر يتلقف حمامة آيبة مسرعة

مخالبه في خاصرتيها وهي تنزف دماً في الجوّ

مطراً احمر في الجوّ، غيمة صغيرة من لحم تنزف بارقٌ توسّل

تتفادى الخطر بكلا جناحيك وتقع في الفخ.

كنتُ عائداً من المدرسة وقميصي مهدّل فوق الحزام من الجوع

كانت تنتظرني لنلعبَ معاً،

صدرها مرتفع وقدماها على وشك الوثوب

انشّها. حطّت على التيغة اولاً، ثمّ طارت كانت تقول هيّا

هكذا تبدا لعبتنا بالفراق دائماً

تحوم حول البيت وتحلّق في الاعالي، وتتوسع دوائرها، اكبر فاكبر

رايتُ المدينة بعينيها، من اقصاها إلى اقصاها

وكل غزل البنات فوق السطوح، وايماءاتهنّ الجنسية

تاخذني معها ودوائرها تكبر

من اقصى بستان "زامل" إلى كتر الصبّة(٤)

البيوت متآصرة ببعضها تحت جناحي

غزل البنات يشتدُّ عند الغروب دائماً.

وهي تماطلني، وتطيل الفراق

وفي الدورات الاخيرة ينقطع الصبر

كدت أسمع صرير مفاصلها حينما اختطفها صقر

المخالب مغروزة في خاصرتيها كالمسامير المعقوفة

علّقها بقدم واحدة،

ونزل مطر احمر

كدتُ اسمعها تصيح باسمي

منذ سنوات بعيدة، والمخلب في خاصرتي

وحين اكون وحيداً اسمع اسمي،

التفت فلا ارى احداً.

كان جسدها اسود وذيلها ابيض

البيت مقعد الآن، ودفاتري المدرسية بلا هديل

تتوالى الايام فارغة وطويلة وكسلى. متشابهة.

آه يا ابنة ملوك السماء وانصاف الآلهة

يا ابنة الصواعق والفيضانات والأوبئة

عشتار يا عشتار يا عشتار

كيف تاسفين وانت بحيرة جبلية؟

وتتعفنين وانتِ رائحة الطلع في المطر؟

كيف تكونين نعجة، ايتها الحمامة العالية، واليتك إدام القدور؟

لم يبق في هذه الدنيا شيء مستحيل إذن.

احمل كابوسي في عينيّ في وضح النهار

اتفرد عن الناس، وتبتعد عني الدنيا وما من زخرف يأسرني

كان بيني وبين الحاضر قارات وأزمنة

نتكلم نفس اللغة، ومعانينا مختلفة

اتكئ على جذع شجرة وحيداً، كراعٍ بلا خراف

اتذكرك نبتةً نبتة وانت عارية بين الأغراب واتنقل

الكهنة يقراون حول سريرك الأدعية والطلاسم

ويذرّون بين ثيابك البخور والخدر الجنسي

هي يدك على ضفيرتك وعينك مغمضة تتوقعين قبلة؟

- لاتثارين إلاّ بقبلة طويلة، وتغيبين عن الوعي -

هل تتاوهين نفس التاوه

وتعضين الزند من فرط اللذّة؟

سياكل اشهى اطايبك، وتدلينه على هضابك ووديانك

هل تمارسين نفس الطقوس التي استعيدها فآتيك قبل الموعد

ونفس الكلمات التي جعلتني ذاهلاً بين اترابي

سمعت الفاس في جغرافيتي، فاتصدع

وحقلي يُقتلع نبتة نبتة كالاعشاب الضارّة

يمضغون قوتي امامي وانا جائع منبوذ

ينتحلون كتابي السري، ويكسرون باب معبدي.

قفي ايتها الريح وليجمد فيك كل صوت ولتَمُت عضلاتكِ

اتكات على جذع شجرة وحيداً كراعٍ بلا خراف

كان القمر مصقولاً وبياضه متخدراً

وحوله دارة وثيرة، ثلاث دارات

من الذي يزورك هذه الليلة ايّها القمر؟

مرّت اقدام عشتار، اعرفها وانا مغمض العينين،

خَلفها وصيفتها وفي يدها سفط الزينة والملابس الداخلية

كانت دائماً تحمل سفط الزينة والملابس الداخلية

وتحرس باب كهفنا في الليل

لم اعترض سبيلها كما قررتُ

لم اقطع الهواء امامها بسكين كما قررت

لم افجر الأرض تحتها كما قررت

لم ازلزل المدينة بنفخة ساحر، حتى ولم انثر ثوبها

نظرت إلى المعبد كانت فوانيسه تنفث السمّ والبرغش

وشممت بصعوبة كاني اقتلع جذوراً

ابتعدت المدينة وانقطعت آخر اصوات العشاق والكلاب

بيني وبينها قارات وازمنة فجاة

نتكلم نفس اللغة ومعانينا مختلفة.

ملقا ١٩٩٤/١/١١

١ ـ يعتقد العامة بالعراق ان القمر مزمع على وليمة حينما تكون حوله هالة.

٢ ـ اعتقاد شعبي ان الأرانب تلد كلما كمل القمر.

٣ ـ اقتباس من ملحمة كلكامش.

٤ ـ الصبّة هم الصابئة كما يسمّون بالعراق.

ثلاث قصائد

الليل

نبيل ياسين

الليل الابدي

يهبط مثل ستارة مسرح

يهبط مثل ضباب اسود

كنت اعاينه من نافذتي

وانا ارتشف القهوة من فنجاني

في البيت الوهمي

حيث يطل على كون آخر

الليل الابدي

يهبط فوق الحقل كسرب جراد

كنت اعاينه من نافذتي

فارى اسراب طيور الليل

تهبط فوق الشرفة

وتقتحم الحجرات

ذات الاعمدة الابنوسية

اسمع خفق الاجنحة المرتطمة

برخام الجدران

لا اعرف ماذا يحدث

يهبط صمت ابدي

صمت الليل الابدي

اسمع حشرجة

تخرق صمت الليل الابدي

هي ذي انة اوهامي

وانين يصعد من فوهة في الروح

ونشيج امراة

(امراة ام سعلاة؟)

الليل الابدي

يهبط في البيت كامراة في ثوب حداد

الليل الابدي

الليل الابدي

عادات

المرائي

تتراكم فوق الجنود

المرائي القصيرة

مرائي البلاط التي كلف الكتبة

بكتابتها

على عجل لترافق حفل وداع الجنود

والاناشيد في الاشرطة

اعدت من المكتبة

من رفوف علاها الغبار

والجنائز ملفوفة بالعلم

فوق مناضدها في الظهيرة في ساحة الاحتفال

والخطاب الحماسي يلقي عليه الخطيب

نظرة، ثم يحكم ازرار سترته

والمذيع يعد افتتاحية الحفل:

(ما اجمل الشهداء

وما اجمل الموت في الحرب)

والجنائز في صمتها الابدي

في ساحة الاحتفال

والظهيرة تمتد، والصمت يمتد،

والشهداء يداهمهم ضجر الانتظار

الماضي

تاتي القوافل من خراسان البعيدة

تحمل الفقهاء والمتكلمين

تحمل المتصوفين الى العراق

تاتي القوافل من خراسان الى بغداد

تحمل في بضائعها فلاسفة وكتابا

ومولى للخليفة، واصطلاحا آخرا

ياتي البريد وفي قوافله الخراج وآخر الاخبار في شيراز او سيحون

في الري البعيدة،

في مراعي الترك،

ياتي من بخارى، من سمرقند

الى اسواق بغداد الرصافة

والبلاد تموت في عجل

هل الدنيا تكرر نفسها في هيئة اخرى

وفي زمن جديد

ثم تكمل دورة الافلاك؟

ما نذر السقوط؟ وما علامات انهيار العقل؟

موت الفلسفات؟ ام اندحار الجيش،

ما نذر السقوط؟

هل انطفاء الروح، ام صمت القضاة عن العدالة؟

ام ان تاخذ الايام شكلا ثابتا؟

ام تنتهي الغربة لاعتياد ما تراه من مكان؟

قصتان قصيرتان

لؤي عبد الاله

آخر البيادق

انتهت المباراة بينهما، كالعادة، بالتعادل: الملكان الابيض والاسود وجها لوجه، ويقابل بيدق ابيض بيدقا اسود، وسط رقعة الشطرنج. وبرغم ان الوقت الذي استغرقاه في اللعب اربع ساعات تقريبا لكنها بدت للبيدقين الوحيدين اطول بكثير. قال المضيف لضيفه بارتياح كبير:

"كانت لعبة شيقة". - نعم، لكنني لو لم احرك الفيل في البداية، لكانت النتيجة مختلفة. - انت تردد ذلك دائما: لو لم احرك الفيل، لو لم احرك القلعة لو لم... - مع ذلك فقد كنت في موقع المهاجم طيلة المباراة. - العبرة بالنتيجة. حمل كل منهما كأسه، وذهبا الى الحديقة. جلسا على كرسيين هزازين وجها لوجه، فمضيا يحللان مجرى المباراة خطوة خطوة، ثم شربا نخب صداقتهما، مخلفين وراءهما الضجر، الذي حل بهما قبل البدء باللعب، وصندوقا خشبيا مملوءا بالقتلى. قال الملك الابيض لنظيره الاسود: - نحن كنا نعرف النتيجة. - نعم ولذلك لم نتأثر بمسار الاحداث العنيفة. - نحن في كل الاحوال لا يلحقنا ضرر كبير اليس كذلك؟ فشربا نخب صداقتهما المتجددة مخلفين وراءهما صندوقا خشبيا مملوءا بالقتلى. قال البيدق الابيض: غريب اننا بقينا احياء.

قال البيدق الاسود: نعم والاغرب منه اننا نتحادث الان معا بكل مودة.

قال البيدق الابيض: كنا مغفلين قليلا. قال الآخر: لم نعلم انها مجرد لعبة. شربا نخب سلامتهما، مخلفين امامهما صندوقا مملوءا بالقتلى، وبقعا حمراء على الرقعة المربعة، وعلى ملابسهما الممزقة.

الخان السعيد

حينما تم لارشد خان التخلص من آخر خصومه، قرر ان يهجع قرير العين يوما كاملا. ولكي لا تزعجه اي نأمة قد تفلت من خلف جدران قلعته المنيفة، امر رعيته بالاحتفال معه، نوما، لمدة يوم كامل مدفوع الاجر. مقابل ذلك، منع جميع الناس من مغادرة بيوتهم، نهارا وليلة واحدة، ولم يبق في الخارج سوى الحرس والعسس الذين ظلوا يجوبون الطرقات الفارغة، على رؤوس اصابعهم، حفاظا على الامن، محاطين بالصمت القسري والوحشة. لكن الاعداء تسربوا دون حياء الى سرير "ارشد خان"، لحظة دخوله مملكة الكرى، التي حرم منها اعواما كثيرة، ليعيدوه ثانية الى عالم الصحو المقفر. ظهروا له هذه المرة، في حمام شاسع ذي قبة ماسية، وبلاط من المرمر الزبرجدي. كان بامكانه رؤيتهم بوضوح، رغما عن انتشار البخار في ارجاء القاعة الدائرية، بعضهم من اقاربه، بعضهم من اصدقائه، بعضهم من وزرائه، بعضهم من ضباطه. ها هم، جميعا، يجلسون على حافة مصاطب دائرية، منتشرة فوق ارضية الحمام هنا وهنالك، مجاميع صغيرة متفرقة، يتجاذب افرادها اطراف الحديث المتواصل، بمزاج رائق ومرح. احيانا، كانوا يلتفتون اليه، ينظرون اليه قليلا، بحيادية مطلقة، ثم ينصرفون الى حواراتهم المتجددة. كم تمنى ان يكون مثلهم عاريا، الا من تلك الوزرة التي تلتف حول خصر كل منهم. لكن أنى له ان يتخلص من عمامته ودرعه وبرنسه الصوفي... ها هو جسده يغلي داخل صدفته الجهنمية، فيغرق بالعرق والخيبة، ليستيقظ ثانية في قلب الظلمة. ما جدوى نصب الاف المحارق والمقاصل للعصاة، اذا ظلت ارواحهم، من بعد، آمنة، مطمئنة، تحلق انى شاءت بين اجفانه... من نافذة ديوانه الواسع بدا العالم لعينيه الموغلتين في الارق، مزيجا متنافرا من اشباح واضواء، وفوق الافق تململ شفق ارجواني صوب سمت السماء مختلطا بزرقة داكنة. انه الليل قادما مرة اخرى، وعلى متنه يزحف الاعداء صوبه.

لكنهم هذه المرة مجردون من اسلحتهم، ومن اجسادهم، وخبثهم. للتخلص من خصومه الموتى نهائيا، سيعلنها حربا شعواء ضد ممالك الروم، تتيح لعدد هائل من اتباعه الاوفياء فرصة الانعتاق من اجسادهم... هنالك، في طرف العالم الاخر، سيقومون بمهمتهم الحقيقية التي اوفدوا من اجلها: مطاردة ضحاياه، والاقتصاص منهم دون رحمة. في اليوم اللاحق اصدر "ارشد خان" مرسوما يقضي بالغاء عقوبة القتل في سائر مملكته، وفي اليوم الثالث، كانت الحرب.

أخبار ثقافية

"البيت العراقي"... في الدانمارك

خلال السنوات الثلاث الاخيرة، نمت الجالية العراقية في الدانمارك نموا ملحوظا بعد وصول مئات العراقيين وبينهم عدد غير قليل من المثقفين والمبدعين، وكانت هناك محاولات وتجارب سابقة لتجميع العراقيين في ناد اجتماعي ثقافي، خصوصا في العاصمة كوبنهاكن التي تضم اكبر تجمع للعراقيين في الدانمارك.الا ان هذه المحاولات فشلت بعد اشهر قليلة من ولادتها نتيجة الحساسيات والمواقف المسبقة وما سببه احتلال صدام للكويت من تشوش في الرؤية وتقاطعات في المواقف والتقييم.

قبل سنة ونصف تجددت الحوارات، مرة اخرى، بين عدد من العراقيين للاستفادة من التجارب السابقة واعادة تكوين منتدى حضاري تسوده اجواء الديمقراطية والالفة. وقد اثمرت هذه الحوارات عن تشكيل لجنة تحضيرية هيأت الأجواء المناسبة لعقد المؤتمر الاول للبيت العراقي. وقد اختيرت مفردة البيت عنوانا لهذا المشروع الاجتماعي الثقافي لانها اكثر الفة وحميمية من مفردة النادي او المنتدى، وهكذا ولد البيت العراقي بعد مخاض عسير، واستطاع خلال عام من تأسيسه ان يثبت ضرورته وجدارته على المستويين الثقافي والاجتماعي. فبالاضافة الى الاجواء الديمقراطية وعلاقات الصداقة والمودة التي نمت بين اعضاء البيت ومنتسبيه فان نشاطا ثقافيا واجتماعيا كبيرا تم انجازه خلال هذه الفترة القصيرة، ويمكن حصر هذا النشاط في العناوين التالية:

أ- الشعر والقصة

قدم البيت العراقي خلال سنة منذ مؤتمره الاول خمسة نشاطات في مجال الشعر والقصة:

- امسية للشاعر عدنان الزيادي، قرأ خلالها مجموعة من قصائده الحديثة، مع مداخلة نقدية للقصائد قدمها الزميل عبدالقادر البصري.

- قدم البيت القاص سلام ابراهيم ليتحدث عن تجربته في الكتابة ويقرأ قصتين من انتاجه مع مداخلة نقدية لهما قدمها الكاتب شاكر الانباري.

- امسية لشاعرين من لاجئي رفحا وصلا حديثا للدانمارك، هما فلاح الصوفي ونوي ابو رغيف، حيث قرأ الشاعرين نخبة من قصائدهما مع تقديم نقدي للزميل شاكر الانباري.

- استضافة الكاتب محي الاشيقر المقيم في السويد بمناسبة صدور كتابه (اصوات محذوفة) وقد تحدث عن تجربة الكتابة والغربة وقرأ بعضا من نصوص كتابه.

- استضافة الشاعر الشعبي كامل الركابي المقيم في السويد ليقرأ مجموعة من قصائده الشعبية الجميلة.

ب — المسرح

- محاضرة للمخرج العراقي محسن السعدون عن تجربته الغنية خصوصا خلال سنوات غربته الطويلة في شيلي والارجنتين.

- استضافة فرقة سومر المسرحية المقيمة في السويد لتقدم عملين مسرحيين هما "أني امك يا شاكر" و "قارب في غابة" وهما من اخراج داود سركيس ولطيف صالح وتمثيل الفنانة العراقية الكبيرة زينب وانوار البياتي وابو صبا وابو حازم ونورية صقر وجلال غريب وزهير المادح.

- استضافة المخرج العراقي كاظم صالح بعد اخراجه لمسرحية كلكامش وتقديمها باللغة الدانماركية وبكادر دانماركي. وقد تحدث المخرج كاظم عن تجربته الاخراجية وتفسيراته للنص المقدم والصعوبات التي واجهها ومشاريع المستقبل.

- ندوة موسعة بمناسبة يوم المسرح العالمي في ٢٧/آذار ساهم فيها الدكتور فائز الزبيدي المقيم في السويد والفنانون محسن السعدون ومحمد زلال وكاظم صالح وطارق هاشم، وحضرها جمهور كبير، وقد اعقب الندوة تقديم مجموعة من الاطفال العراقيين لمشهد مسرحي من اخراج الزميل حيدر ابو حيدر.

جـ — الموسيقى

- قدم الفنان كمال السيد في محاضرة عن المطرب العراقي ناظم الغزالي بمناسبة الذكرى الثلاثين لرحيله، وقد رافق المحاضرة عرض فلم فيديو عن الفنان الفقيد.

-استضاف المطرب الشعبي صباح اللامي وفرقة موسيقية من العراقيين الموجودين في السويد، في حفلة ساهرة حضرها جمهور غفير من العراقيين وعوائلهم.

ساهم الفنان طالب غالي وكمال السيد وكوكب حمزة في احياء العديد من الحفلات الفنية داخل مقر البيت العراقي، وفي مختلف مناسباته.

د - الفن التشكيلي

استضافة الفنان اسماعيل زاير المقيم في هولندا، فقدم محاضرة عن الفن التشكيلي في الغربة وقد اثارت المحاضرة مداخلات حيوية وهامة من قبل جمهور الحاضرين.

هـ - ثقافة عامة

قدم البيت العراقي اثنين من لاجئي رفحا هما علي البلوشي وعاصم حيث تحدثا عن انتفاضة شعبنا العراقي في آذار ١٩٩١ مع معرض للصور والبوسترات.

ومن المهم الاشارة انه في جميع هذه النشاطات كان الجمهور يساهم في الحوار والمناقشة.

- وقد نظم البيت زيارة للمتحف المركزي في كوبنهاكن ساهم فيها عدد من عوائل اعضاء البيت.

داود امين

١٩٩٤/٤/٢٠

أحمد أمير

مبدع آخر يفارقنا الى الأبد



في كلمة الفولدر لأحد معارضه الأخيرة في منفاه قال الفنان البصري الراحل أحمد أمير:

الرسم كان لي دائماً كوناً مترامي الأطراف .. ثم انه أشبه بأزهار تتفتح بسرعة البرق وأشجار تتساقط ثمارها على رأسك حالما تنتهي من غرس بذارها. انه عالم سخي رحيب لا تترك كثافة ابداعه لحظة واحدة لك.. لتفكّر، لماذا أرسم؟

أما الناس، فأنا منطقياً واحد منهم. أنا المشاهد الأول لعملي والمشاهد الأ:ثر ظلما. مطالبتي لفني لا تعرف القناعة ومطالبتي للناس هي المطالبة ذاتها. لأنني لا أرسم لي فقط.. انما أرسم لنا...

رثاء

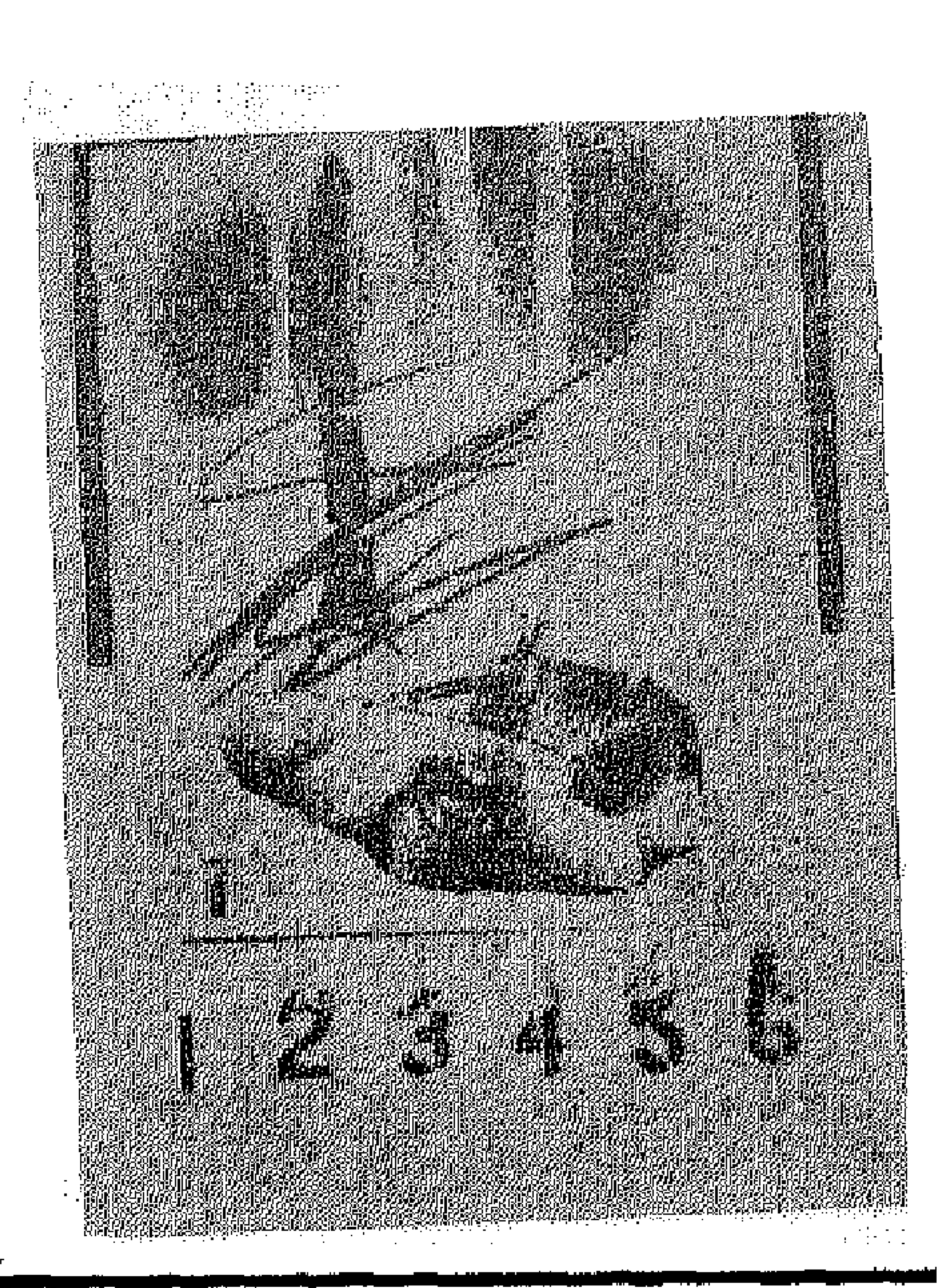
محملة حقائبهم بالمطر، وبثمار النخل، محملة رؤوسهم بالرعود وكأنهم رسل جاءوا ليرحلوا..

حملوا البصرة معهم إينما وضعوا اقدامهم، وصيروها سفناً ومرافئ، الواناً، وأشعاراً، صيروها لغة اعادوا لها مجدها وتراثها.. وها هو ابنها، يدفن في مدن الصقيع، يدفن شأنه شأن الاحياء الذين بقوا شواهد على الزمن المر، الزمن المحمل بكل ما هو ضد.

اليوم يرحل أمير، وبالأمس، رجل عبد اللطيف الراوي، وقبله رحل آدم حاتم، ومعهم رزم محسن اطميش حقائبه وغادرنا.. لماذا تجيئون أيها الاصدقاء وترحلون؟ هل ان زمننا مر إلى هذا الحد ؟ أم انكم رفضتم مرافقتنا أو تعبتم من السفر والتجوال؟ لأعتقد أن فرشاتك يا أمير ستجف، أو ان اللوحة ستتغير ألوانها، مازلنا نقرأ في رسوماتك وجه البصرة، وجه العراق، مازلنا نسمع نغمات صوتك وهي تردد اغنيات لم تكتب بعد كلماتها.. اجزم انك ستعاود الرسم، وسنعاود معك تفسير الالوان وسنقرأ جميعاً الفاتحة على الزمن القديم، سيكون قبرك قرب، ابن جودة، اليس كذلك، وستكون المقبرة مزهرة بعيون العراقيين المغتربين.. وستكون الأيام حزينة.. هذا ما اعتقده يا صديق.. ستحزن الازهار، وستحزن الرياح، وسيكون المطر خفيفاً حتى لاتتهدم الشاهدة...

سلاماً ايها الاصدقاء اينما دفنتم، واينما رحلتم سلاماً على ابداعكم، وثما تجاربكم، سلاماً على نخيل العراق وشطآنه والفراتين.

أبو نادية



إيضاح

نشريت ث ج في العدد الماضي رثاء للشاعر آدم حاتم كتبه الشاعر عواد ناصر، وهي مبادرة تسجل للمجلة وللصديق عواد. إذا لم نستطع متابعة منفانا ونتاجنا فيه، فلا اقل من ان نسجل شغل منجل الموت في مبدعينا المنفيين. ولكن من اجل آدم والحقيقة يجب تصحيح فقرة في الرثاء المؤثر. فقد اوقف الراحل مع غانم باهان بسبب مشاجرة مع سائق تاكسي، وليس بتهمة تعاطي الحشيشة. وقد زرتهما في سجن عدرا قرب دمشق. وقدمت لهما ما يتيسر مما يقدم للسجين، وسالتهما عن الخدمة التي يحتاجانها قبل ترحيلهما. (القانون السوري يقضي بابعاد كل عربي أو اجنبي يرتكب مخالفة) فطلب غانم السعي لبقائه في الشام، فيما طلب آدم ان اسعى بتعجيل ترحيله الى لبنان. واثمر مسعاي بالفعل: بقي غانم في الشام، ورحّل آدم الى لبنان ثم عاد، وبقيا في دمشق حتى النهاية المرة: غانم رحل الى منفى جديد، وآدم - بعد سنوات - الى لبنان حيث واصل غربته هذه المرة بشكل اقسى: الموت في الغربة.

لقد آلمتني نهاية ادم بشكل شخصي، لأنني اعتبرت نفسي مسؤولاً، بشكل ما، عن موته عندما قدمت له المساعدة التي طلبها من اجل السفر الى لبنان قبل وفاته باسابيع قليلة.

اعتقد ان حماسة عواد لتحدي آدم لمنفاه بالصعلكة هي التي خلطت الوقائع لديه فانسته ان تهمة تعاطي الحشيش ليست من القضايا السهلة في سوريا بحيث يمكن ان اتوسط انا او سواي بصددها، واعتقد أنني لن اجد في اوساط المعارضة من يقدم لي خدمة بهذا الشأن، ناهيك عن انها غير صحيحة.

ان حياة المنفى شاقة، والموت في المنفى اكثر شقاء. واعتقد ان احد اشكال الشقاء الحقيقي هو عيش وموت المبدع في منفى ضاعت فيه السبل وابتلع الضياع من هم الاكثر حساسية. والمأساة ان هذه الحساسية لم تكن مرئية من الجميع، فسهل على كثيرين اطلاق الاحكام على هذا المبدع او ذاك. وهو ما حصل مع آدم. والمفارقة ان الصديق الشاعر عواد حينما اراد الدفاع عن الراحل اخطأ الوسيلة. هذا من سوء حظ آدم وعواد ايضاً. هل ثمة من هو أسوأ حظاً من المبدعين المنفيين؟

ملاحظة:

في مقدمة "كتاب العراق" المنشورة لي في نفس عدد المجلة وقعت اخطاء مطبعية يهمني تصحيح واحد منها. فقد جاء في الصفحة ١٨٠ ما يلي:

"جمعت عشرات الكتب السياحية التي اصدرت منذ نصف قرن تقريباً فلم اجد فيها ما يشبه كتابي هذا"، والصحيح: فلم اجد فيها ما يفيد كتابي هذا. لقد اردت تقرير واقع حال الكتب السياحية فجاء الخطأ ليوحي باني انما اباهي بكتابي الذي يجري انجازه رغم كل الصعوبات.

وآمل ان يتفهمها الاخوة المشاركون في اصدارة

عامر بدر حسون

دمشق ٢٦ حزيران

الإصدارات

قصر البداية

عن دار صحارى للنشر في بودابست صدرت مجموعة الشاعر العراقي كريم الأسدي "قصر البداية" التي ضمت اثنتين وثلاثين قصيدة كتب أغلبها في برلين حيث يقيم الشاعر.

وكريم الأسدي من مواليد ١٤ تموز ١٩٥٨ في مدينة "الفهود" الجنوبية حيث أمضى طفولته وصباه في أجواء تلك المدينة، بساهمت طبيعتها المميزة في تكوينه.

جاء فيي كلمة الناشر عنه: "من ذلك القدم الموغل في الحضور، الذاهب إلى المستقبل، من الزمن برمته خرجت قصائد الشاعر موغلة في التأمل، في الألم، في الحنين، الحنين ليس إلى ماضٍ دارس فحسب، بل إلى زمن أبدي مورق بربيع جنة الشعر، زمن قصر يبدأ منه وفيه عراق الانسان وعالم الانسان".

من أجزاء المجموعة:

"اسميك

يسكر باسمك شعب من الحزن والأضرحة

اسميك

ينسل خلفي زمان ويأتي زمان

اسميك يوماً مضى

وفكرتُ أن لايعود

ولكنه عاد محتفلاً بالضفاف

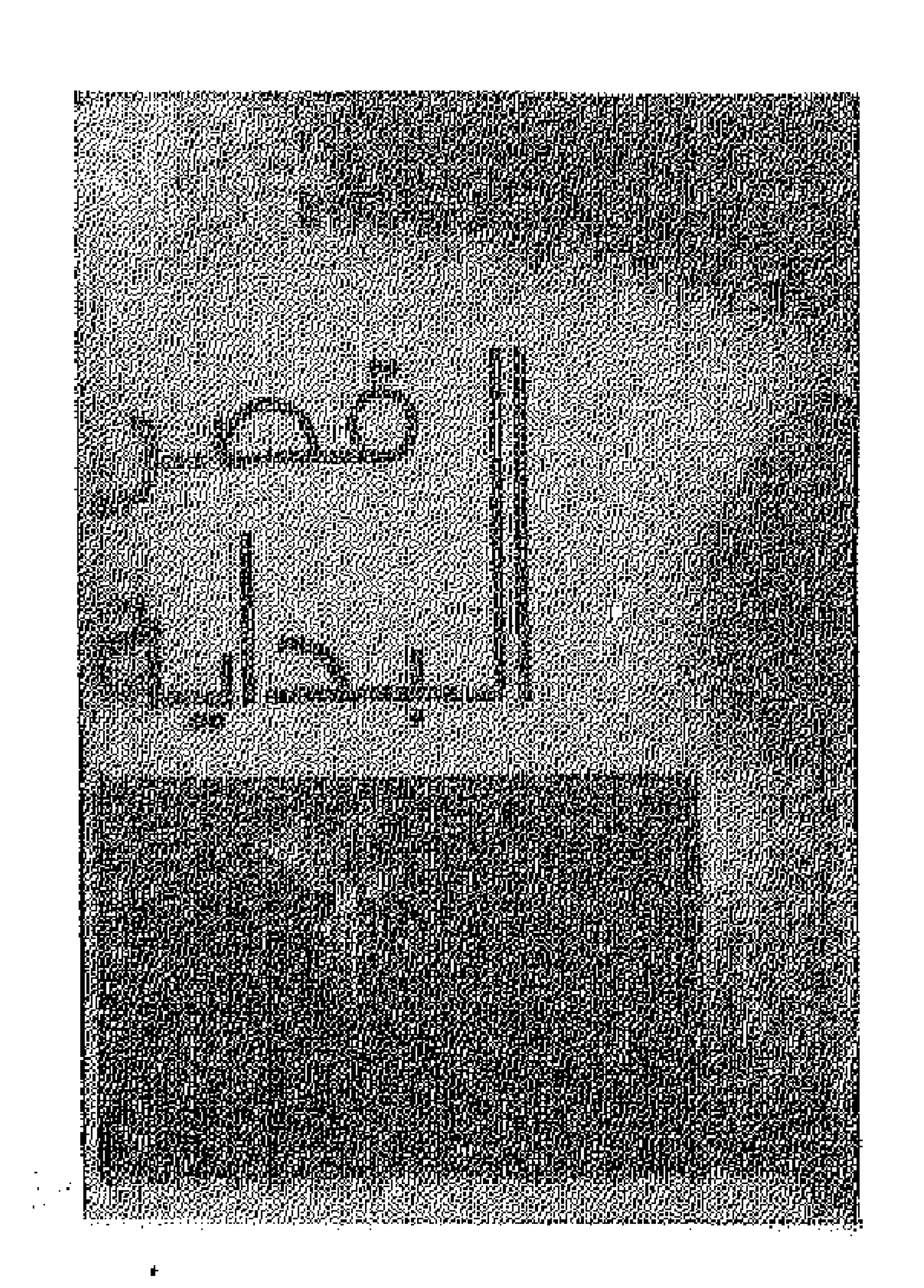
وزوجته الليلة البارحة

أسميك سكينة الخاصرة

ونصلاً من الدار في لجة القلب طاف

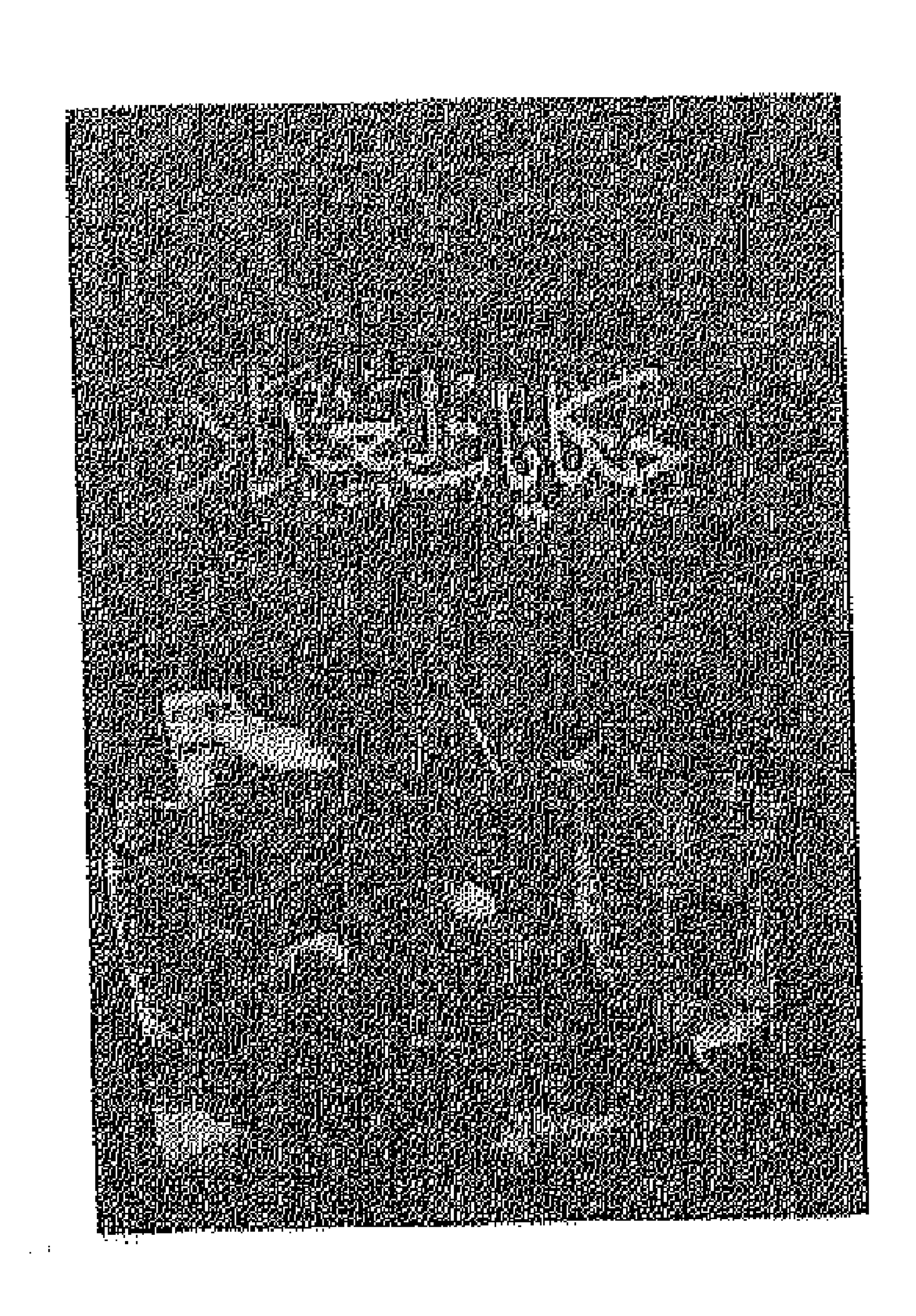
اسميك: تأتي القوارب،

تنأى الضفاف



في الأدب نشرت في صحف ومجلات عراقية وعربية، اضافة إلى مساهمات في الترجمة.

حكايات لبغداد



عن دار (بابل) للاعلام في براغ صدرت للقاص مؤيد عبد الستار مجموعة بعنوان (حكايات لبغداد) احتوت خمس عشرة قصة.

قدم للمجموعة القاص ابراهيم احمد ومما جاء في تقديمه:

"في أجواء قصصه نجد الأشياء بأسمائها، الوقائع والشخوص والأماكن يقدمها بوضوح وينشرها خلفية واسعة ومباشرة لحدث قصصي يجري بتصاعد سريع محكم، والنهاية تأتي مبتورة وسريعة لما يسبقها ويتلوها من شجن تشعرنا بالانقضاء المحتوم الذي لاتجدي معه مماطلة.

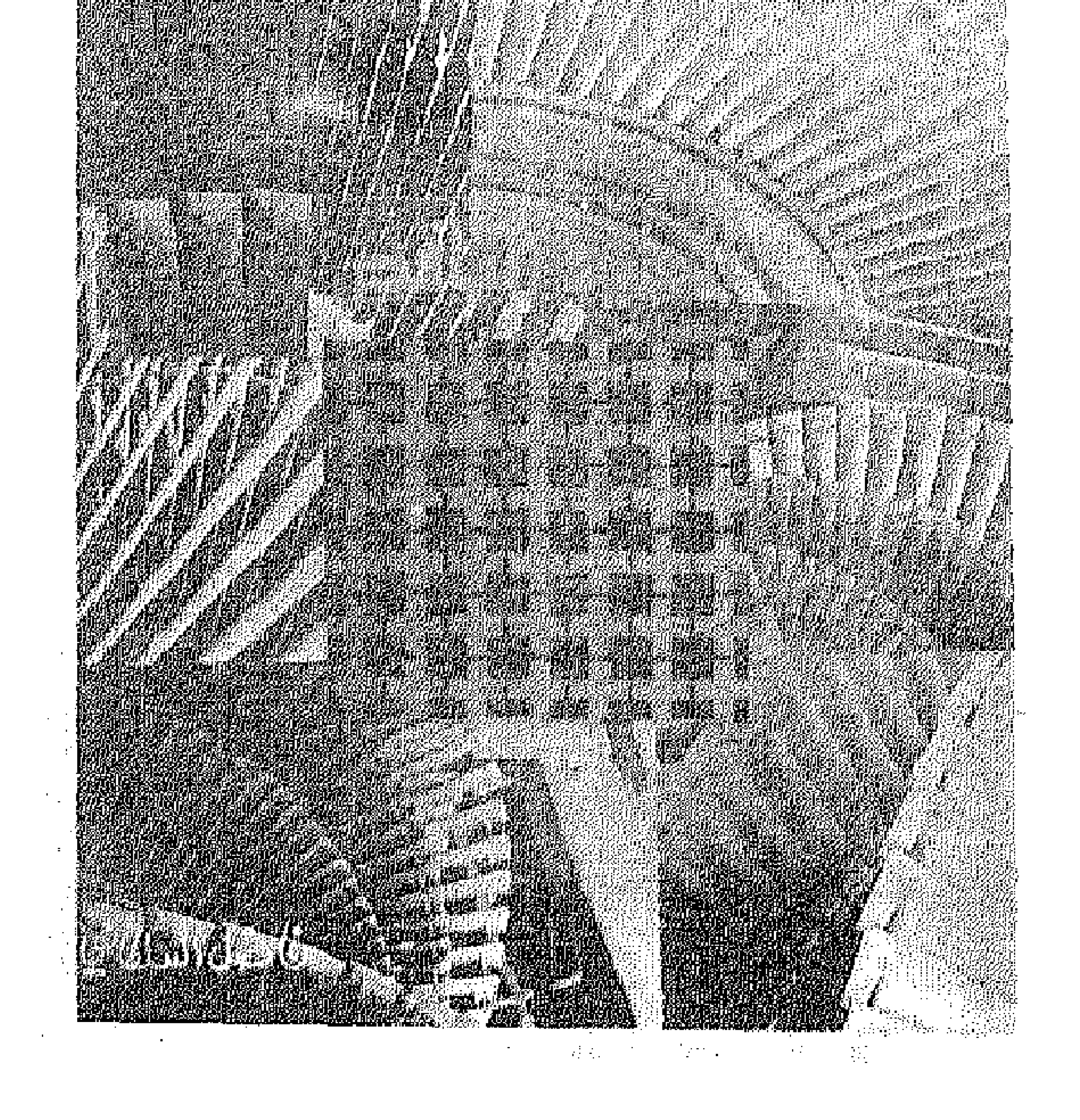
يقدم القاص ابطاله وحقائقه مهما كانت أليمة بحنو ورقة وتعاطف انساني..

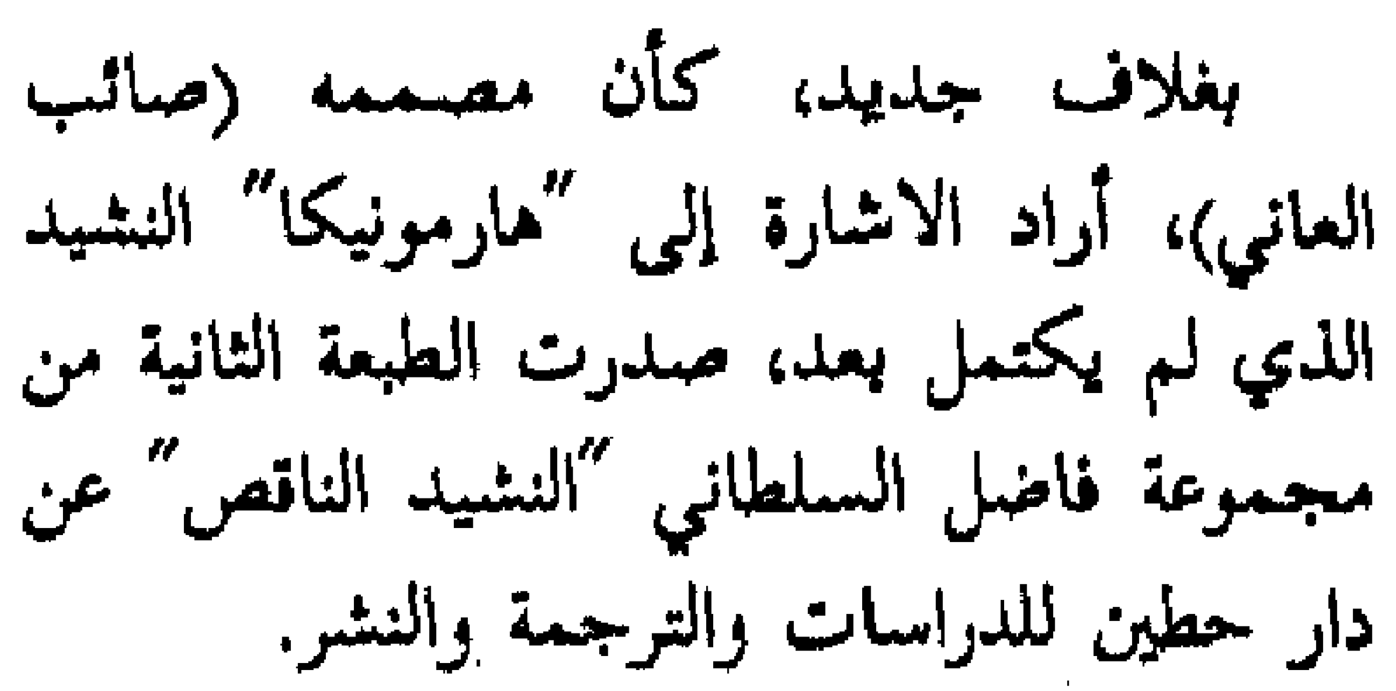
فكأننا مع الأب عندما قتل ابنه عادل في التظاهرة، ومع رياض في شارع الرشيد بين المقاهي ودكاكين الشربت والعرق.

القاص يلتقط بحاسة مرهفة تفاصيل الواقع العراقي ويقدمها بصراحة وحميمية". جدير بالذكر أن مؤيد عبد الستار كان قد أصدر مجموعة شعرية بعنوان (أجراس الرحيل) عام ١٩٨٧، وله كتابات في الشعر والقصة ومقالات

النشيد الناقص

بطبعة جديدة





بغلاف جديد، كأن مصممه (صائب العاني)، أراد الاشارة إلى "هارمونيكا" النشيد الذي لم يكتمل بعد، صدرت الطبعة الثانية من مجموعة فاضل السلطاني "النشيد الناقص" عن دار حطين للدراسات والترجمة والنشر.

أربع عشرة قصيدة تضمنت صوراً متراصة لهواجس ومشاعر الشاعر، بشفافية جميلة، تجاه محيطه: ومن يقرأ الديوان يقترب من مغزى تسميته "النشيد الناقص" فهو شاهد تواصل بين الشاعر، في أعماقه، وبين مفردات الحنين والحب للوطن، للرفاق، للاصدقاء وان كانت في كثير من الأحيان تحمل حرارة اللوعة، والحدية في النقد. وبكل الأحوال فإن قصائد المجموعة سيل من كلمات الصدق. من أجواء المجموعة هذا المقطع بعنوان "اصدقاء":

اراهم ... يحتجبون
وراء اثواب النساء
ويصغرون
في زحمة الصكوك والأوراق
ويفقدون
عاماً فعاماً ذلك الحب القديم... والعراق.

بعد مجيء الطير

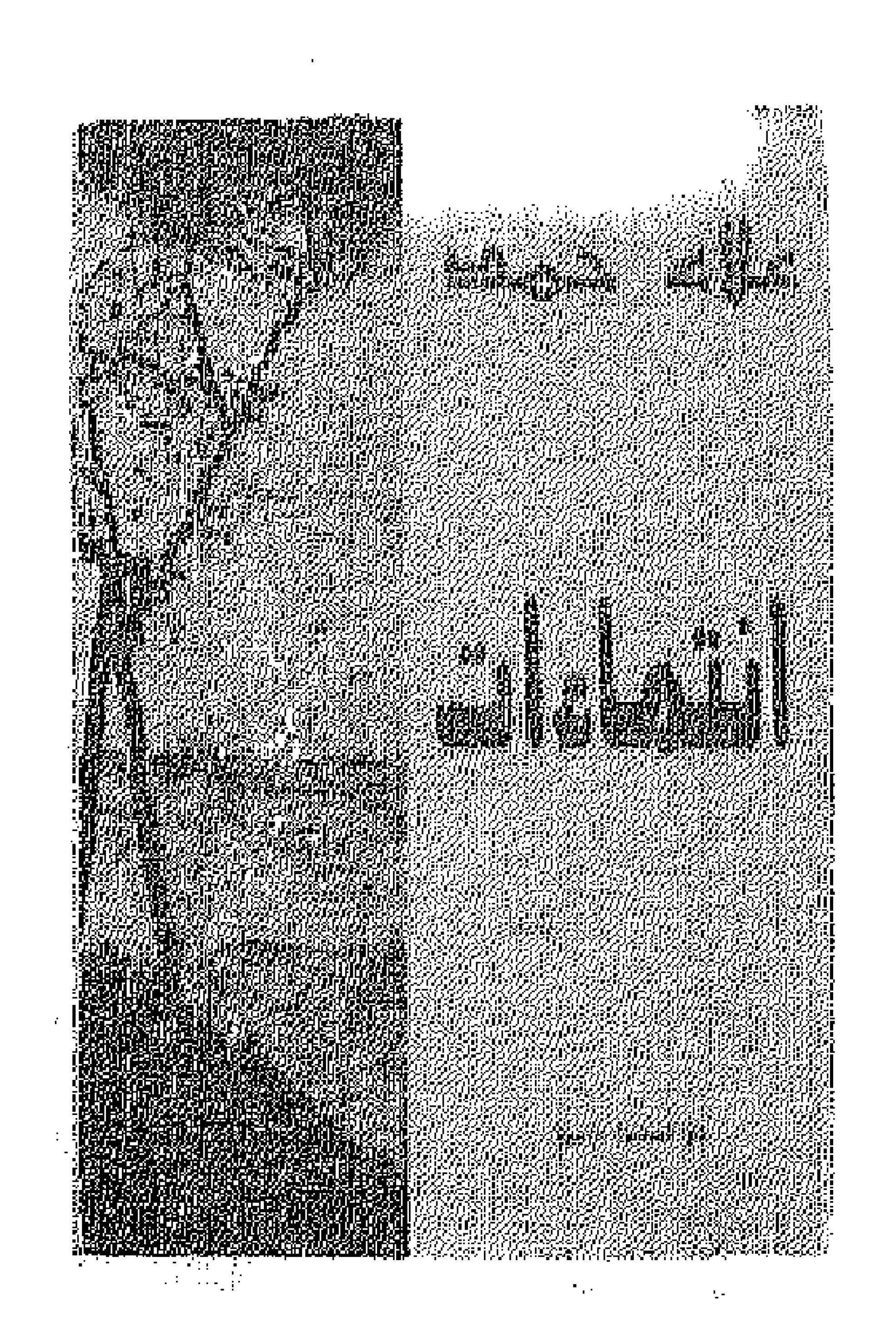


عن دار "صحارى" للصحافة والنشر في بودابست صدرت، أوائل العام الحالي، مجموعة قصصية جديدة للقاص العراقي ابراهيم أحمد، ضمت ثماني عشرة قصة كتبت في المنفى، وعن المنفى، بحساسية مرهفة تراوحت بين الحزن والغضب، بين الإقرار بوقائع العذاب في المنفى، والأمل بالوطن.

جاء في كلمة الناشر: "بقدر ما يظل أدب المنفى حاجة ملحة قاهرة يبدو صعباً وعصياً على التحقيق، ذلك أن الكتابة على أرض أخرى تحمل اختلالات التوازن التي تبدأ من افتقاد جاذبية ودفء التراب القديم إلى مواجهة عبوس الوجه وارتجاف الأمل والذي تصل اهتزازاته إلى التقاء القلم بالورقة".

يقول ابراهيم أحمد: كثيرون من أناسنا اعتقدوا أن النفي سيكون أياماً معدودة. وقد أجلوا حياتهم إلى موعد قابل للتأجيل دائماً، وقد ظل ينزلق أمامهم مثل كرة تتخاطفها الأقدام، لذلك بدا للكثيرين ان ما يقولونه او يفعلونه أشياء تحدث كافتراض أو مزاج أو وهم لاينبغي معاملته كحقيقة إلا في الوطن... وها قد أصبحت لنا في المنافي اطلال وقبور وأطفال كبروا وليس لهم من الوطن سوى دموع الآباء والأمهات وكبريائهم.

انتماءات



عن دار الكنوز الأدبية في بيروت صدرت، أوائل العام الحالي، مجموعة الشاعر العراقي علاء حمد الموسومة (انتماءات). وتضمنت المجموعة ثلاثاً وعشرين قصيدة كتبت خلال السنوات الأربع الأخيرة:

من أجواء المجموعة:

وتعالوا نتقاسم سعف النخيل

به يتقد الغيم والرمل في ظله

ونشر الرحيل

مدن تتقارب مني وأخرى دليل

* * *

مدن تحترق

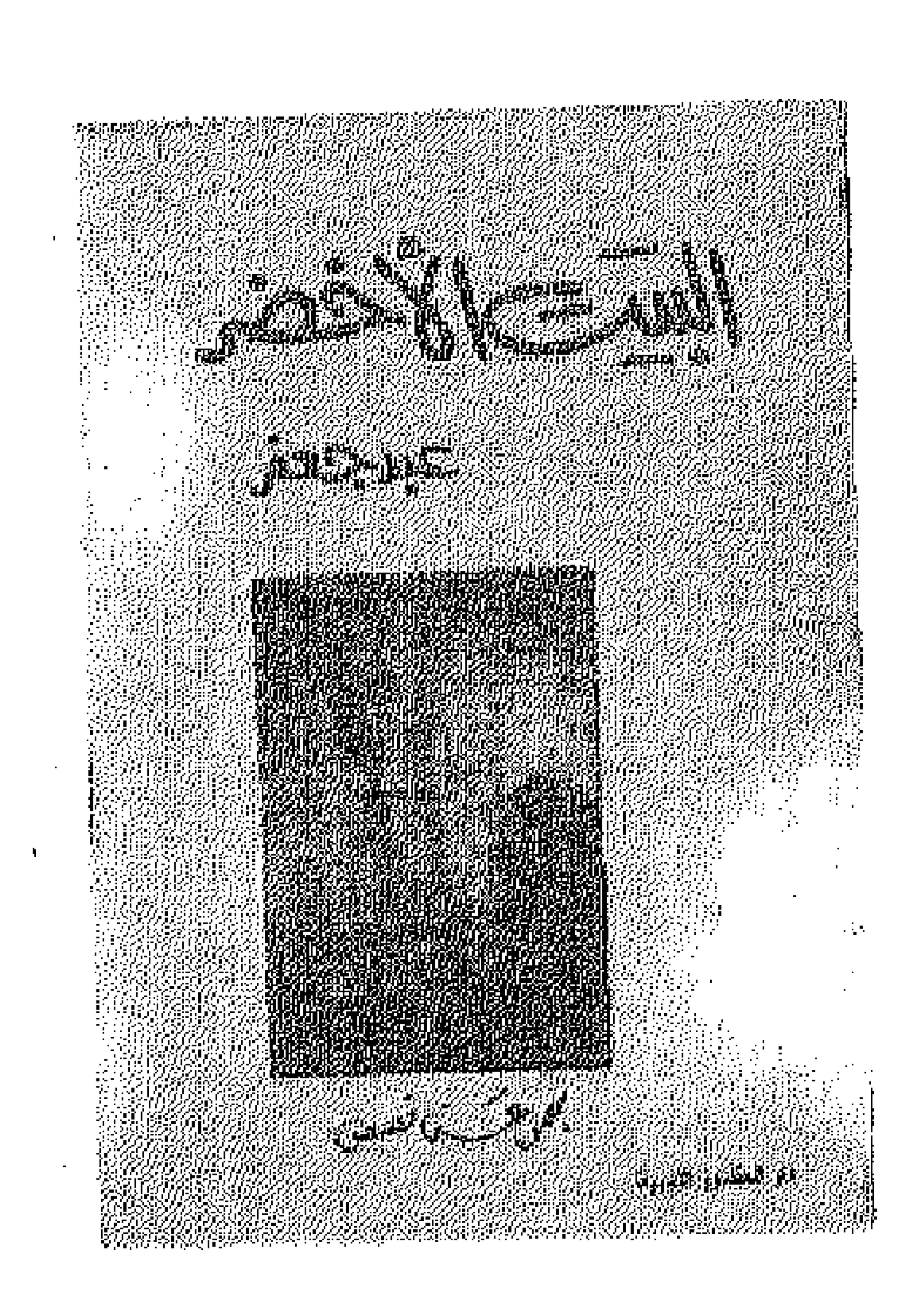
مدن ترتجف

مدن تختفي

الحداد يليق ببيتي

وفي كل بيت حداد

البيت الأخضر



عن دار الكنوز الأدبية ببيروت صدرت للقاص العراقي عبد جعفر مجموعته القصصية الأولى الموسومة "البيت الأخضر". ضمت المجموعة سبع عشرة قصة قصيرة كتبت في فترة عقد من الزمن امتدت بين أعوام ١٩٨٣ - ٩٣، وتوزعت أماكن كتابتها على المدن التي اغترب فيها القاص مذ اضطر لمغادرة وطنه: عدن، دمشق، لندن.

والقاص عبد جعفر المولود عام ١٩٥٤ في واحد من أحياء الكادحين الشعبية في بغداد، عمل محرراً صحفياً منذ أواسط السبعينات، وواصل عمله في المنافي التي تنقل فيها. بدأ كتابة القصة القصيرة منذ أوائل السبعينات، ناشراً بعض نتاجاته في الصحافة العراقية، وفي صحف ومجلات عربية.

هاجسه الأساسي في الكتابة، كما يكشف ذلك العديد من قصص المجموعة، تصوير عالم القمع الذي يسحق الانسان العراقي واحلامه، وأجواء الغربة وكوابيس المنافي التي نستطيع أن نرى ظلالها في قصص المجموعة، حيث الحصار يطوق شخصية العراقي ويلاحقها في حالات التذكر أو التشبث بالماضي، أو مواجهة هموم الحاضر.


فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر خمسة دنانير